العلاقات بين الشرق والغرب

تجارية - ثقافية - صليبية

تأليف

الدكتور عزيز سوريال عطية

ترجمة

الدكتور فيليب صابر سيف

راجعه الأستاذ أحمد خاكى



ص.ب ٤٣ الفجالة مصر

طبعة أولى : ١٩٧٢ ١/٢٠٠٠

الناشر : دار الثقافة المسيحية
٤ شارع المليجى الازبكية
ص ب ٤٣ الفجالة مصر

اسم المطبعة : مطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر ــ القاهرة
تليفون ٩٠٦٧٠٦

رقم الايداع : ١٩٧٢/٢٢٣١

هذا الكتاب

بحث تاريخي عميق فى فترة تلاقى فيها الشرق والغرب فتلاحمت الجيوش لكن الثقافات التقت وانفتحت أسواق التجارة .

وهذا الموضوع يهم المشتغلين بالعلاقات السياسية فى عصرنا حيث أن جذورها تمتد الى العصور الوسطى . كما يهم الطالب الجامعى الذى يدرس تاريخ الحروب الصليبية والعلاقات التجارية والثقافية بين شقى العالم الوسيط الاسلامى والمسيحى .

كاتب هذا الكتاب أستاذ متخصص فى تاريخ العصور الوسطى ، ظل يدرس ويحاضر عن هذه الفترة من التاريخ فى جامعات مصر وانجلترا وألمانيا وأمريكا سنين طويلة حتى صار حجة فى هذا الموضوع ، وقد نشرته مطبعة جامعة انديانا وجامعة اكسفورد وأعيد طبعه خمس مرات بالانجليزية . وقد ترجم الى عدة لغات أخرى أهمها الألمانية .

نرجو أن تجد أيها القارىء العزيز فى هذا الكتاب ماتبغى من دراسة علمية نزيهة عميقة .

دار الثقافة

محتويات الكتاب

الموضـــوع	صفحة

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل الأول

المسألة الشرقية وحلولها الأولى

معنى الصـــليبية

اختلف تفسير الصليبية بين عصر وعصر ، فمفكرو العصر الوســيط المسيحيون اعتبروا الحرب الصليبية اما حروبا مقدسة تهدف الى أغراض مقدسة بتوجيه من الله الذى وكل هذه المهمة الى البابا خليفته على الأرض، واما أنها رحلة للحج الى الأماكن المقدسة وراء البحار لغفران الخطايا • وكان يطلق على كل قائم بهذه الرحلة «الحاج الفقير» • أما الحملة المسلحة لأغراض الهجــوم والدفاع فكان يطــلق عليهــا « الحج الجمــاعى » (*) وهى تعنى الحملة الصليبية •

وثمة تعريف مضاد ظهر فى عصر النهضة وخلال القرن الثامن عشر عندما وصف الفلاسفة العقليون هذه الحركة بأنها مجرد انفجار للتعبير عن روح التعصب التى سادت العصور الوسطى ونموذج للحماس والغيرة العمياء في ذلك الوقت ، كما أنها تلقى ضوءا على عقلية ذلك العصر ، تلك العقلية التى لم تقبل مناقشة الآراء والمعتقدات •

(*) Passageium generale

وقد وجدت هذه الاتجاهات متنفسا مناسبا فى عدوان المسيحية على الاسلام والامبراطورية الاسلامية ، لاستخلاص مسقط رأس السيد المسيح ، تحت زعامة الكرسى البابوى (١) ٠

على أن المؤرخ السياسى يؤثر أن يعد الحروب الصليبية وحدة ، باعتبارها حركة هجرة من الغرب الى الشرق ، أو تطلعا من الدول الغربية الى مستعمرات أكثر منها ثراء ٠ ألم يكن النورمانديون والفرنجة (وهم العقل المدبر لهذه الحروب) مشهورين بحركات الهجرة منذ فجر العصور الوسطى فى القرنين الرابع والخامس ، أعنى فترة انحلال الامبراطورية الرومانية ؟ ٠ أما المدرسة الحديثة من المؤرخين الاقتصاديين فتصور الحروب الصليبية من زاوية مغايرة كل المغايرة فهى تراها مرحلة من مراحل التوسع الأوربى فى الشرق ، أى صورة من صور الاستعمار فى العصور الوسطى ٠ وفى خلال القرن الحادى عشر زاد عدد سكان فرنسا وبعض البلاد المجاورة لها فجأة حتى أربوا على الموارد المحدودة ، فليس من الغريب أن يلجأوا — لما عانوه من ضيق — الى البحث عن موارد جديدة ٠

وقد أوحت هذه الفكرة الى البابا « ايربان Urban » الثانى أن يشير فى خطابه سنة ١٠٩٥ الى فلسطين ، باعتبارها المكان الذى تجرى فيه أنهار من اللبن والعسل بلا ثمن ٠ ومع تقدم مشروع الفتح الصليبى وانشاء المملكة اللاتينية فى «أورشليم» [بيت المقدس] (٢) ، استمرت محاولات حركة المستعمرين من الغرب الى الشرق ٠

وتتفق آراء أهل العصور الوسطى على أن الحروب الصليبية كانت حملات عسكرية نظمها مسيحيو الغرب، وبخاصة النورمانديون والفرنسيون تحت قيادة بابوات وذلك لاسترداد الأماكن المقدسة من المسلمين ٠ وطوعا لاحدى مدارس الفكر استمرت الحرب المقدسة قرابة قرنين من ١٠٩٥ الى ١٢٩١ أو ١٢٩٢ وهما عمر مملكة أورشليم على الساحل السورى ٠

---

(١) See Roman

(٢) فضلنا أن نترجم Jerusalem بيت المقدس فى الغالب لأنها النص العربى الأصيل ٠ [المراجع]

واذا أردنا تعريفا شاملا للحروب الصليبية فلا بد من تفصيل بعض النقاط الخاصة بطبيعة الحركة ، وكذلك بالظروف المحيطة بفهمها فيعالم زاخر بالاضطرابات • ويجب علينا أولا أن ننبذ ما ساد من فكرة هـذه الحركة (أى الحروب الصليبية) منفصلة كل الانفصال عنالتاريخ البشرى• ويجب اعتبار الحروب الصليبية عنصرا من العناصر التي أظهرت العلاقة بين الشرق والغرب • هذه العلاقة التى ترجـع الى ما قبـل العصـور الوسطى • وكان مثار النزاع هو أن حدود أوربا غير واضحة ، وفىالامكان وصفها بأنها الحدود الدينية للغرب فى مواجهة الشرق •

والواقع أن اليونان والعقلية اليونانية والثقافة الهيلينية أعطت أوربا وعيا واضحا للحدود الدينية التي أرادت أن تحميها بل تتوسع بها الى ما وراء شرق بحر بربونتك Porpontic المعروف حاليا باسم بحر مرمرة• ففى القرن الخامس قبل الميلاد نلاحظ معالم واضحة للانشقاق بين أوربا بحضارتها الهيلينية وآسيا التى تمثلت فى ذلك الوقت فى الامبراطورية الفارسية • وقد أدى ذلك الى ما يمكن وصفه (حتي وقت مبكر منالتاريخ) بأنه المسألة الشرقية وهي مسألة الحدود غير الثابتة بين اليونان وفارس، أو بمعنى أوسـع بين أوربا وآسيا • وحتى بعـد ذلك أرادت الدول المتعاقبة ، عصرا بعد عصر ، أن تجد حلا لهذه المشكلة من اليونانيين الى الرومان والبيزنطيين والكارولنجيين Carolingians والصليبيين اللاتين وكذلك الحروب الاسلامية المضادة للحركة الصليبية • وتبعا لهذا يسعنا أن نستنتج ببساطة تامة أن الحروب الصليبية فى تعريفها المحدد كانت مجرد محاولة الفرنجة حل المسألة الشرقية فى العصور الوسطى •

ثم يجب أن نفحص حالة أوربا بوجه عام ، والحالة الفكرية فىالعصور الوسطى ، حتى يمكن تقويم طبيعة الحروب الصليبية والتطوع لها • فقد كان العصر الوسيط عصر الايمان والحرب • واستمر هذان العاملان فى تحديد ملامح المجتمع بل وعقلية العصور الوسطى • ولم يجـد هـذان العاملان تعبيرا أفضل من الحروب الصليبية باعتبارها حربا مقدسة يقوم بها فرسان أوربا ومجاهدو الكنيسة فى توافق تام • وقد كانتالاستجابة لخطاب ايربان الثانى فى نوفمبر سنة ١٠٩٥ فى كليرمونت فيراند هي :

«هذا ما يريده الله» (١) وكان هذا هو التعليق الوحيد لكل فارس بالنسبة لهذه الذكرى ٠

ولنقف الآن عند خطاب ايربان الذى يشار اليه دائما ، ولكن من النادر أن نجده مكتوبا ٠ هذا الخطاب الذى يجسم أمامنا الحركة الصليبية كلها ٠ وان تحليلا سريعا لهذه الوثيقة كما سجلها «فولتشر دى تشارتر» Fulcher de Chartres يصور لنا تعريف ايربان للحرب الصليبية ٠ والملاحظ أن البابا وضع ترتيبا منطقيا لأفكاره بطريقة عجيبة ٠ ولما كان البـابا ايربان فرنسيا وكان يتحـدث الى الشعب الفرنسى ، فانه لم يستخدم اللغة اللاتينية بل استخدم لغتهم القوميـة [الفرنسية] حتى لا يترك مجالا للشك فى جدية ما يقول ٠

١ ـ فى مقدمة الخطاب ، يبدأ ايربان الثانى بالمناداة بالاصلاح الداخلى للحالة الأخلاقية فى أوربا الغربية ، فيحث على الدعة ، والتواضع ، والتعلم ، والسلام ، والتيقظ ، والتقوى ، والعدل ، والمساواة ، والعفة ، لتكون هذه الحالة عدة للحركة الصليبية ٠

٢ ـ ثم ينتقل فى خطابه الى التصديق على « الهدنة الالهية » التى تمنع خرق السلام بين المسيحيين من مساء الأربعاء حتى شروق شمس يوم الاثنين من كل أسبوع والا حكم على المسيحى بأنه « أناثيما » أى محروم وذلك حتى تزداد المحبة بين سكان الغرب ٠ وهذا هو المقياس المبدئى لاتخاذ عمل موحد فى الشرق ٠

٣ ـ ثم يقدم بيانا لحالة الشرق ، فيوضح أن انتصار العرب والأتراك فى أرض رومانيا (أى الامبراطورية البيزنطية) الذى بلغ هلسبونت [الدردنيل] (٢) يدعو الى اتخاذ خطوة من الغرب المسيحى لتحرير تلك البقاع ، وكذلك الأراضى المقدسة من نير الكفرة الطغاة وأن يحمى المسيحيين الشرقيين الذين ساءت حالتهم ٠

٤ ـ ثم يعلن «ايربان» الحرب الصليبية فى كلمات حركت العواطف عندما قال : « وبنـاء على ذلك فانى ، أو بالحرى فان الله يطلب اليـكم

(١) Deus lo volt

(٢) Bras de Saint Georges Hellispont

باعتباركم من أتباع المسيح أن تنسروا هذا [أى الخطاب] فى كل مكان لحث الناس من كل الطبقات : الفرسان والجنود المشاة ، الأغنياء والفقراء ، لمد يد العون سريعا لهؤلاء المسيحيين ، وأن تمحوا ذلك الجنس الدنىء من أرض اخوانكم ! وأنا أقول ذلك لمن هو حاضر الآن ، ليعلنه لمن هم غائبون • وفوق هذا فان ذلك ما يأمر به المسيح » •

٥ ـ ان مكافأة كل من يحمل الصليب هو نيل الغفران فورا لجميع خطاياه « وهذا ما أمنحه لكل من يذهب ، بحكم السلطان الذى خولنى الله اياه » •

٦ ـ ثم يطلب الى جميع الأمراء أن يجتنبوا عداء بعضهم لبعض ، وأن يحولوا قتالهم نحو الشرق • « فليحارب كل واحد البرابرة كما يجب بدلا من محاربة الأخوة والأقرباء » •

٧ ـ وفى ختام الخطاب يطلب البابا الى الناس أن يبدأوا فورا ، فيحذر كل حملة الصليب من التسويف ، ويحثهم على أن يؤجروا أراضيهم ويجمعوا المال اللازم للنفقات « وعندما ينتهى فصل الشتاء ويأتى الربيع يمضون فى طريقهم ، وليكن الله لهم هاديا » •

وهذه الدعوة للتسلح توضح العلة فى انتشار فكرة الحروب الصليبية التى يمكن تعريفها بأنها كانت صراع « الأمم المتحدة » المسيحية فى العصور الوسطى ضد كل قوى الاسلام ، حيث تركز النزاع حول « أورشليم » وأرض الميعاد التى يدعى كل من الشرق والغرب لنفسه حق امتلاكها •

لقد بدأت الحروب الصليبية باعتبارها حرب الايمان والعقيدة من الطرفين ، فكانت مبارزة كلامية تحولت الى حرب فعلية • ولم يكن يدور بخلد كل من الغريمين روح الأثرة والتوسع • ومن أجل هذا وجد المتعصبون فى الغرب من يعينهم فى الشرق من حيث الدعاية والحرب • ولقد خلد اسما ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين بما كتب فى بيان أعمالهما الفروسية الباهرة وما أبديا من بطولة وبسالة ، وما نهضا به

من شريف الأغراض • ومن ناحية أخرى يعد من الخطأ أن يقنع المرء بأن أعمال البطولة التى قاما بها قد اقتصرت على سنوات الحروب الصليبية • ويمدنا كل من أسامة بن منقذ (١٠٩٥ ـ ١١٨٨) عندما أرخ حياته ، وكذلك ابن القلانسى (الذى توفى سنة ١١٦٠) فى أخبار دمشق ، بأمثلة متعددة للأوضاع التى اتخذتها الحروب الصليبية والهجمات المضادة لها على حدود دولة أورشليم • فلم تكن حربا تقوم على الخداع والحقد والخسة والتخريب كما كانت محاربة المسيحيين بعضهم بعضا فى أوروبا • فعلى سبيل المثال لو وازنا بين الرعب والفظاعة والتدمير الذى حدث بين انجلترا وفرنسا فى حرب المائة عام فى أواخر العصور الوسطى وبين المناوشات المحلية بين أمراء المسلمين والمسيحيين فى الأراضى عبر البحر للمسنا الفرق الهائل فى روح الحرب •

بل أكثر من ذلك أن الحروب الصليبية يمكن أن تشرح على أنها دبلوماسية سلمية • وهذا الاتجاه يتمثل فى العلاقات بين شرلمان وهارون الرشيد فى بدء القرن التاسع ، وكذلك بين فردريك الثانى والسلطان الكامل (من الأيوبيين) عام ١٢٢٩ ، وتبادل السفارات بين الملك جيم Jaime الثانى ملك أراجون [المنطقة الواقعة بين فرنسا واسبانيا الآن] والسلطان الناصر محمد بن قلاوون (من المماليك) خلال العقد الأول والثانى والثالث من القرن الرابع عشر •

اذن فالحروب الصليبية كانت محاولة الفرنجة حل المسألة الشرقية فى العصور الوسطى ، عن طريق الحرب تارة والسلم تارة أخرى • وان مراجعة المحاولات التى تمت فى عصور سابقة تلقى أضواء على تاريخ الحركة التى تمتد جذورها الى عهود سابقة • وتختلف أسباب نشأة الحروب من حالة الى حالة ، ولكن يمكن ملاحظة أن تشخيص المصدر الأساسى لجميع وجوه المشكلة يحمل دلائل الاستمرار • وأن الأساس الذى بنيت عليه كل هذه التحرشات مرده الى العقل اليونانى ، وتراث المثل الهلينية التى ظلت ضاغطة على الأوربيين الأوائل ، وكانت تهدف الى محاصرة العالم كله •

الحلول اليونانية والرومانية للمسألة الشرقية

كانت الحروب الناشبة بين اليونانيين والفرس في آسيا لاختلاف الثقافتين أول فصول الصراع بين الشرق والغرب · ولقد ظهر الصدام بين الثقافتين أو بالحرى بين أكبر قوتين في ذلك الوقت في ميدان ماراثون سنة ٤٩٠ ق·م· وسلاميس سنة ٤٨٠ ق· م· وقد انتهى هذا الصراع عام ٤٤٩ ق· م· في صلح كاليبه الذى أكد تفوق أبناء هلاس على جيرانهم حول بحر ايجه من الأوربيين والآسيويين · وعندما اتسعت تخوم اليونان برزت فكرة اخضاع العالم القديم كله للاغريق · وقد وصلت تلك الفكرة الى أقصى مدى لها في عصر الاسكندر الأكبر ٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق·م·

فلم يكن الاسكندر الأكبر مجرد قاهر العالم ولكنه كان فيلسوفا ، فقد كان تلميذا مخلصا لأرسطو · وقد رأى أن سيادته للعالم خطوة نحو توحيد العالم كله تحت لواء الثقافة الاغريقية · وعندما تم توحيد مدن اليونان ، قاد الاسكندر المقدونى حملات الى سوريا ومصر حيث قوبل بترحاب من الناس ، اذ اعتبروه محررا لهم من نير حكم الفرس البغيض· وفي عام ٣٣٢ ق· م· أسس مدينة الاسكندرية في مصر التى أصبحت مركزا للثقافة الاغريقية تحت حكم البطالسة الذين جاءوا من بعده · ثم زحف الاسكندر شرقا الى آسيا · وفي السنة التالية [أى ٣٣١ ق·م] هزم داريوس الثالث في موقعة اربلا وانتصر على المملكة الفارسية · وقد وصلت جيوش الاسكندر في آسيا الى لاهور وسمرقند وكابول في وسط آسيا · وقد كشفت حديثا بعض العملات اليونانية التى ترجع الى ذلك التاريخ في حفريات حول بشاور [في الهند] وفي الوديان الواقعة شمال عاصمة أفغانستان ·

ومن عجب أن الاسكندر الذى أخضع بقاعا كثيرة في آسيا للحكم

الاغريقي والذى زوج جنوده من بنات الفرس في ايران لكى يخلق أمة اغريقية فارسية موحدة ــ من عجب أنه أصبح في النهاية عاهلا شرقيا وارثا لداريوس ، واكزرسيس ، ومع ذلك فقد بقيت النزعة الاغريقية نزعة سطحية في ايران • وظهرت النكسة مع الثورة البارثية (*) [ثورة الفرس] Parthian ضد السلوقيين Seleucid الذين خلفوا الاسكندر في نحو منتصف القرن الثالث قبل الميلاد •

وهكذا نقلب صفحة من القصة الطويلة للعلاقات بين الشرق والغرب، توضح لنا احدى الصور الأولى في تغير المسألة الشرقية • وبسقوط الولايات اليونانية وأفول نجمها في البحر الأبيض المتوسط ، أصبحت روما حامية للثقافة الهلينية • ولقد كانت فكرة يوليوس قيصر أن يرجع حدود امبراطورية الاسكندر تحت سلطانه الى ما بعد الفرات وقد استأنف الامبراطور تراجان هذا المشروع فاستولى على عاصمة بارثيا Parthian Capital والمدائن Ctesiphon في عام ١١٦ م وامتد السلام الرومانى Pax Romana الى الخليج الفارسى [الخليج العربى الآن] • ولكن هذا التقدم سرعان ما فشل عندما قام اليهود بثورة عام ١١٧ م في الأقاليم الرومانية الواقعة في افريقيا وآسيا وكان هذا أول حادث مدون يمكن أن يوصف بأنه حرب دينية •

ومن الجانب الآسيوى ظهرت القومية الفارسية بصورة قوية خلال حكم الأسرة الساسانية (٢٢٤ ــ ٦٤٠ م) الذين حاربوا الرومان والبيزنطيين أربعة قرون ونجحوا في ذلك • وتم اذلال سلطة روما في عصر شاهبور الأول (٢٤١ ــ ٢٧٢) الذى أسر الامبراطور فالريان في أثناء احدى الغارات على مدينة الرها Edessa عام ٢٦٠ م• وقد خلد الفرس هذه الهزيمة ــ التي اعتبرت كارثة في تاريخ الرومان ــ بصورة بارزة منقوشة على جدار احدى الخرائب المجاورة لمدينة برسابوليس Persapolis القديمة وتمثل اللوحة فالريان راكعا أمام شاهبور وهو

(*) كانت مملكة بارثيا تقع في جنوب شرق بحر قزوين •

ممتطٍ ظهر جواده والملك الفارسي بشهامته الشرقية يبقي على حياة خصمه ٠ ومنذ ذلك التاريخ أتخذ شاهبور لقب « ملك ملوك ايران وغيرها » وفي بعض الأحيان كان يضاف الى ذلك اللقب « ملك الكون ، ابن الآلهة ، أخو الشمس والقمر ، وصديق النجوم » ٠

وتدل الحفريات في أنقاض مدينة دورا [أو تلول دورا] Dura-Europus الواقعة على نهر الفرات شرق تدمر Palmyra والتي ازدهرت ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي ، على مدى تغلغل الثقافة الرومانية الهيلينية داخل تلك الاراضي التي عرفت باسم مسبوناميا [وهي بلاد ما بين النهرين وهي العراق اليوم] ٠ ومع كل هذا التأثير نلاحظ أن قيام امبراطورية تدمر التي حكمتها الملكة « الزباء » (*) في شكل روماني كان مقدمة للحركات الآسيوية تحت حكم كسرى برزويه الساساني تم فتوح العرب للامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية بعد ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي ٠ وقد كان لذلك انعكاسات لا حد لها في مجرى التاريخ ٠

الحل البيزنطي

واذا تركنا التاريخ القديم وخطونا الى العالم خلال العصور الوسطى وجدنا أنفسنا أمام ظروف مختلفة بعض الاختلاف ٠ فلقد كانت المسألة الشرقية مشكلة أجناس وثقافات ٠ ولكنها أصبحت في العصور الوسطى مشكلة دينية ٠ لقد شهد الجزء الأول من القرن السابع للميلاد أفول نجم الدولة الساسانية ٠ وبعد أن مرت فترة هدوء وتعايش سلمي بين اليونانيين والفرس ، قرر بارفز كسرى الثاني ملك الفرس أن يثأر لصديقه البيزنطي الامبراطور موريس اذ قتله فوكس Phocas واستولى على عرشه عام ٦٠٢ ٠ وفي عام ٦٠٣ قامت الحرب وهزم فوكس في موقعة أركسامون Arxamon بين نصيبين والرها في شمال العراق ، واستولى

(*) Palmyrene Empire of Zenobia

على الموقع المحصن « دارا » عام ٦٠٥ • وقد دمر الفرس حدود سوريا وفلسطين عام ٦٠٨ • وفى عام ٦٠٩ اخترق الفرس آسيا الصغرى حتى وصلوا الى خلقيدونية التى كانت تشرف على البسفور على مرأى من القسطنطينية •

واستمرت الحرب عشرين عاما • وخلال هذه الفترة استولى هرقل على العرش البيزنطى (٦١٠ – ٦٤١) وعرف بشجاعته وخبرته وسعة حيلته • وفى الوقت نفسه تم غزو الفرس لسوريا عام ٦١٣ وأوقعوا هزيمة منكرة بالحامية البيزنطية فى انطاكية واحتلوا مدينة مهمة هى دمشق • وفى عام ٦١٤ دخلوا بيت المقدس واحرقوا القبر المقدس وقبضوا على البطريرك زكارياس [زكريا] وعادوا الى عاصمتهم « المدائن » حاملين الصليب المقدس وكل أدوات الصلب ، وقدموها الى ملكتهم مريم النسطورية • وفى عام ٦١٩ توجه أحد جيوش الفرس وغزا مصر وتوجه جيش آخر الى البسفور لكى يغزو القسطنطينية من البحر على حين نزلت جماعة الأفار Avar من البحر وحاصرت العاصمة العظيمة من البر •

وبدا الأمر وكانما قد ضاع كل شيء • وبدأ هرقل يفكر فى الهرب الى قرطجنه Carthage فى مقاطعة افريقية بعيدة عندما اقنع البطريرك سرجيوس Sergius الامبراطور باعلان حرب مقدسة ووضع ميزانية الكنيسة رهن تصرف جنود الصليب • ووجد هرقل نفسه يحارب حربا صليبية • وقد أطلق وليم الصورى William of Tyre رئيس الأساقفة فى القرن الثانى عشر فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » على حرب هرقل اسم الحروب الصليبية مع انها حدثت قبل خمسة قرون من قيام الحروب الصليبية اللاتينية التقليدية من أوربا الى الارض المقدسة • واستخدم هرقل خدعة بارعة فى محاصرة أعدائه من الخلف اذ أدت الى نتائج هائلة • ففى عام ٦٢٢ انزل قواته على شواطىء خليج الاسكندرونة عند ايسوس Issos فى مقاطعة سيليسيا او أرمينيا الصغرى جنوب جبال طوروس واجبر الفرس الذين حاصروا عاصمته على الانسحاب من آسيا الصغرى • وبينما قام البطريرك سرجيوس – بمساعدة بطريرك

بيزنطى يدعى بونس Bonus ـ بالدفاع عن القسطنطينية دفاع الأبطال ضد الأفار ، أرسل هرقل حملة أخرى الى الفرس فى عام ٦٢٣ · وفى هذه المرة ربك خصومه بمهارته الفائقة وذلك عندما توجه عن طـريق البحر الأسود واخترق أرمينيا الكبرى وأذربيجان وأخذ كسرى على غرة فى مكان ملكه فى جانزاك Ganzak ·

وبالمثل قامت حملات أخرى فى السنوات التالية فى منطقة شـمال الفرات حتى ديسمبر عام ٦٢٧ · حينما نزل هرقل فى أشور وقضى على الجيش الساسانى كله عند نينوى فى مجاورة المكان التاريخى « أربلا » الذى هزم فيه الاسكندر الأكبر غريمه داريوس قبل ذلك بتسعة قرون· وبعد ذلك اقتحم القصور الملكية فى داسـجارد Dastgard فى يناير سنة ٦٢٨ واستولى على غنائم كثيرة تحوى كنزا كبيرا من الذهب والفضة وسجاجيد لا تقدر بثمن وأثوابا حريرية ومقادير كبيرة من السكر والتوابل والعطور · وخلال هرب كسرى عزله ابنه وقتله فى فبراير · وبعد ذلك فاوض هرقل القائد الفارسى شهرواز Shahrvaz على الجلاء عن باقى المواقع التى تحتلها الحاميات الفارسية · وقد تم ذلك عام ٦٢٩ ورجـع شهرواز الى العاصمة المدائن ليطالب بعرش مولاه · وعلى شاطىء الفرات عند مدينة هيرابوليس Hierapolis (المدينة العربية منبج) استعاد هرقل الصليب المقدس وكل أدوات الصلب من رسل الفرس · وفى ٣٠ مارس سنة ٦٣٠ دخل أورشليم دخول المنتصر ليرجع كل ذلك الى مكانه الطبيعى عند الجلجثة [المكان الذى صلب فيه المسيح] · وهكذا انتهت الحرب الصليبية بين هرقل والفرس · وقد تحـاربت الامبراطوريتـان القديمتان الى حد الفناء · وبذلك مهدتا الطريق لاستمرار نجاح العرب الذى كان على وشك الحدوث ·

والواقع أن اتصال العرب بكل من بلاد فارس وسوريا البيزنطية بدأ قبل ظهور الاسلام وتعتبر أسرة تدمر التى حكمت فترة قصيرة فى صحراء سوريا فيما وراء دمشق مثالا واضحا لذلك · ولكن القبائل العربية كانت على أطراف هاتين الدولتين فمملكة بنى غسان فى منطقة حوران السورية

وكذلك مملكة بنى لخم فى الحيرة على الضفة اليمنى لنهر الفرات كانوا مسيحيين [لهم نفس عقيدة « الطبيعة الواحدة » التى اعتنقها المسيحيون فى مصر] وكانوا تابعين للبلاط الملكى فى كل من القسطنطينية والمدائن ولقد صار أحد ملوك بنى لخم وهو المنذر الأول معلما خاصا لأحد الأمراء الفارسيين بهرام جور وهو الذى أصبح ملكا ساسانيا عام ٤٢٠ · وكان أحد العرب السوريين أسقفا وكان مقره البصرة · وأنشأت ابنة المنذر ديرا للراهبات فى شبه جزيرة العرب قرب حدود العراق · وفيما بين عامى ٦٠٤ ، ٦١١ أى فى صدر الاسلام قامت احدى القبائل العربية التى لم يكن لها شأن كبير وهى « بنو بكر » بحرب ضد الجيش الساسانى وهزمته فى « ذى قار » بين واسط والكوفة على ضفة نهر الفرات · وهذا دليل واضح على أن الامبراطورية الفارسية الكبيرة لم تعد لها القدرة على مواجهة العرب الرحل ·

وقد كان العرب منقسمين قبل ظهور الاسلام ولكن ظهور النبى محمد ضمهم فى دين واحد تحت لواء واحد يحدوهم مبدأ الحرب المقدسة « الجهاد » ضد غير المسلمين حتى يخضع العالم كله للاسلام · وبدأت فتوحات العرب خلال حكم أول الخلفاء الراشدين : أبو بكر (٦٣٢ ــ ٦٣٤) وتانيهم عمر (٦٣٤ ــ ٦٤٤) وأحرز المسلمون أول انتصار لهم فى سوريا فى موقعة اجنادين فى ٣٠ يوليو سنة ٦٣٤ · ثم استولوا على دمشق فى سبتمبر سنة ٦٣٥ · حينئذ أدرك هرقل خطر القوة الجديدة فأعد جيشا قوامه ثمانون ألف مقاتل · وقد أبادهم العرب فى الموقعة الفاصلة « اليرموك » أحد روافد الأردن فى ٢٠ أغسطس سنة ٦٣٦ · واستسلمت كذلك كل من حلب وانطاكية فى الشمال · أما أورشليم فقد قاومت سنتين بقيادة البطريرك سفرونيس **Soffronius** الذى فتح أبواب المدينة عام٦٣٨ ، بعد أن حصل على امتياز دينى وتأكيدات بسلامة السكان المسيحيين · وفى هذه الفترة نقلت جميع أدوات الصلب من القبر المقدس قبل دخول العرب · فنقل الصليب الى القسطنطينية والحربة الى انطاكية · وأخيرا سقطت قيصرية عام ٦٤٠ ، وبذلك انتهى حكم البيزنطيين فى سوريا الكبرى كلها ، ومنها فلسطين ·

.. ومن الناحيــة الأخرى أى من جهــة فارس ، انتهت الامبــراطورية الساسانية نهاية تامة وأصبح الملك فى أيدى العرب بعد موقعتين فاصلتين هما القادسية عام ٦٣٧ ونهاوند عام ٦٤٢ ٠ وما كان من الملك يزد جرد الثالث الا أن أخذ كنزه الملكى وهرب به ٠ ولكن لسوء حظه قتله أحد رعاياه فى كوخ خارج الجهة الشمالية لمدينة مرو ، اذ طمع فى الذهب ٠ وأدى هذا الحادث الى أنهاء حكم الأسرة الحاكمة كما قضى على كل أمل فى تنظيم عملية مقاومة ٠ والمعروف أن الفرس من الجنس الآرى والعرب من الجنس السامى ولذلك فان « تعريب » الفرس اتخذ صورة فى منتهى البطء ٠ والواقع أن هذه العملية لم تتم لا فى العصور الوسطى ولا فى العصر الحاضر ٠ ومع أن ايران احتفظت بطابعها اللغوى والعنصرى حتى يومنا هذا ، فانها أنجبت للامبراطورية الاســلامية تحت حكم الخلفاء العباسيين فى بغداد بعضا من ألمع الشخصيات التى أسهمت فى بناء الفكر الاسلامى والسياسة الاسلامية ٠ وما حدث لليونان عندما هزمها الرومان حدث للفرس ، فقد أثروا فى العرب الفاتحين حتى فيما يتعلق بالدين فاتجهوا نحو « الشيعة » على أنها مضادة للعرب « السنيين » وهذا عامل مهم فى تكوين شخصية هذه الأمة ٠

وبينما كانت الجيوش العربية تتطلع فى حذر الى الثراء الفاحش الذى تمثل فى القصور الساسانية ، كانت هناك حملة أخرى تسير نحو الغرب الى مصر التى كانت تعتبر أكبر منطقة منتجة للقمح بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ٠ وقد تم فتح مصر بسهولة نظرا لعدم اشتراك السكان الأقباط فى المعركة المرتقبة ٠ فطالما عذب الحكام البيزنطيون المصريين أبناء النيل لأنهم أعلنوا اعتقادهم بوحدانية اللاهوت والناسوت فى العقيدة المسيحية ورفض ما أقره مجمع خلقيدونية بعد عام ٤٥١ ٠ وقد قابلت الكنيسة القبطيــة آراء المعارضين فى القسـطنطينية برفض تــام ولذلك وقعت اضطهادات شــديدة على أقباط مصر من حــكام روما وقاوم الأقباط هذا الاضطهاد فبدأوا محاولة تكوين قومية دينية سياسية خاصة بهم بلاطائل . ومن ثم كان من المســتحيل أن يشتركوا فى الدفاع عن أعــداء وطنهــم وكنيستهم ٠ ومن الناحية الأخرى نجد أن سماحة العرب تجلت فى الوعد

بترك حرية دينية أوسع مدى ، مع فرض جزية أقل مما كان يحصله البيزنطيون وعلى ذلك لم يكن يضير الأقباط أن يتغير الحاكم ٠

وفى يوم الجمعة ٦ أبريل سنة ٦٤١ [وكان هذا اليوم يوافق اليوم المعروف باسم الجمعة الحزينة عند المسيحيين وهو ذكرى صلب المسيح] تم تسليم مفتاح حصن بابليون (مصر القديمة) الى العرب بقيادة عمرو ابن العاص بعد شهور من الحصار والمفاوضات العقيمة التى قام بها الحاكم الاغريقى كورش [المقوقس] (١) وقد كان يجمع بين وظيفتى حاكم وبطريرك مصر من جانب الدولة الحاكمة ٠ وأعقب سقوط بابليون فى أيدى العرب غزو الاسكندرية وتم ذلك فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ ٠ ويظهر أن الاسكندرية التى كانت تضم فى ذلك الوقت أربعة آلاف منزل وأربعة آلاف حمام ، وأربعة آلاف قصر ملكى ، وأربعين ألفا من أثرياء اليهود الذين أدوا الخراج ، بهرت العرب الآتين من الصحراء ٠ وبسقوط أهم مركزين فى أيدى العرب تم فتح مصر وتحولت أنظار أغنى مقاطعة تابعة للرومان والبيزنطيين نحو الشرق بدلا من الغرب ٠

وتحرك العرب بسرعة مذهلة نحو الغرب فاتحين كل شمال أفريقيا « مملكة الفيسغوث [القوط] (٢) الى أن عبروا جبل طارق الذى كان معروفا باسم « أعمدة هرقل » وهزموا الملك رودرك فى موقعة بالقرب من مدينة صيدونيا فى عام ١٩ يوليو سنة ٧١١ ٠ وفى الوقت نفسه طاردت القوات العربية البيزنطيين فى الأناضول وتعقبتهم حتى مضيق البسفور ٠ وقد شوهدت القوارب العربية فى بحر ايجه ومرمرة فى عامى ٦٧٣ ، ٧١٧ وحاصروا القسطنطينية فى أثناء حكم قسطنطين الرابع وليو الأيزورى Leo the Isaurian ولكن أنقذت العاصمة بفضل التحصينات القوية وازدواج أسوارها المتينة بالاضافة الى نيران الأغريق المخيفة التى كان اختراعا حديثا فى ذلك الوقت قدمه مهندس يونانى من سوريا اسمه كالينيكس Callinicus ٠ وبذلك كانت ألقسطنطينية أول مكان

---

(١) Cyurs

(٢) Visigothie kingdom

بقف أمام جحافل العرب التى لم تهزم قسط .كما أوقف ليو الايزورى زحف العرب عن الشرق عام ٧١٧ ـ ٧١٨ نحو البلاد المسيحية. [فى أوربا] كما أوقف زحفهم من الغرب شارل مارتل فى معركة بواتييه عام ٧٣٢ . وبذلك تقهقر العرب الى جنوب جبال طوروس فى الشرق وجنوب جبال البرانس فى الغرب .

وبعد هذه المواقع الفاصلة بدأت الحركة المضادة ببطء لاسترجاع الأراضى المفقودة . واستمرت حرب العصابات فى اسبانيا مدة طويلة حتى ظهرت آثارها ضد الخليفة الأموى فى قرطبة . وظلت فترة استرجاع الأراضى المقدسة وسوريا تتردد فى أذهان البيزنطيين فى الشرق لأهداف سياسية وليست دينية .

ولا جدوى من محاولة استطلاع كل الحوادث بين العرب والبيزنطيين على الحدود الفاصلة بينهما ، ومعظمها كان فى الأراضى الأرمنية الواقعة بين الامبراطوريتين . ولعل أول صدام يذكر ضد العرب وقع خلال حكم الامبراطور نيسفورس فولكس فى الفترة . بين ٩٦٣ ، ٩٦٩ . فقد استرجع كلا من مقاطعة سليسيا وجزيرة قبرص ٩٦٥ . وشجعه ذلك على التقدم نحو شمال سوريا للاستيلاء على أنطاكية التى كانت تعتبر العاصمة اليونانية للشرق . وقد كان لموت أمير حلب سيف الدولة الحمدانى عام ٩٦٧ أثره اضعاف الجبهة الأمامية للمسلمين . وبعد حصار طويل استعاد البيزنطيون انطاكية وأصبحت حلب مقاطعة بيزنطية وأجبر حاكمها العربى على تقديم الولاء للامبراطور وانقاذ معاهدة يلتزم فيها بالحرب ضمن صفوف الولاء للامبراطور وانقاذ معاهدة يلتزم فيها بالحرب ضمن صفوف الامبراطورية ما دامت الحرب ضد غير المسلمين . بل أكثر من ذلك قطع العهد بحماية التجارة البيزنطية وكذلك التجار وأن يدفع جزية عن السكان المسلمين فى ولايته ، وأن يبيح اقامة كنائس المسيحيين فى المدينة . وأصبح نهر الكلب Orontes يمثل الحدود الجنوبية للامبراطورية البيزنطية بضعة أعوام . وهكذا ارتفعت الروح المعنوية للبيزنطيين حتى أن أحد الكتاب المعاصرين ذكر أنه لولا اغتيال الامبراطور نسيفورس فوكس عام ٩٦٩ لاستعاد حدود الامبراطورية الى الهند شرقا والى المحيط الأطلنطى غربا .

وجاء من بعد نسيفورس فوكس خليفته الامبراطور الأرمنى الأصل جون تسيمسكيس John Tzimisces من ٩٦٩ حتى ٩٧٦ · واستمر فى حملاته فى الأراضى المقدسة بهمة كبيرة ، ولكن لم تكن لهذه الحملات نتائج ثابتة · فقد عبر نهر الكلب عام ٩٧٥ واقترب الى دمشق من ناحية لبنان . ودون أية مقاومة أو صدام قرر الوالى التركى فى دمشق واسمه افتكين ان يسلم المدينة لليونانيين وأن يدفع جزية للامبراطور وذلك لأنه كان يخشى هجوم الخليفة الفاطمى فى مصر · وما حدث فى دمشق ، حدث فى بقية مدن سوريا وفلسطين · أما بيروت فقد قاومت ولكن الامبراطور نجح فى التغلب عليها وعذب حاميتها ، ومع ذلك لم يستطع التغلب على طرابلس وعندما وصل الى الجليل لم يحاول الاستيلاء على أورشليم · ولذلك لم يطلق عليه لقب أول محرر للقبر المقدس . وقد كتب الامبراطور للملك أشوت Ashot الثالث ملك أرمينيا مبررا عدم دخوله المدينة المقدسة ، اذ طارد « الوثنيين الافريقيين » الذين اختبأوا فى القلاع الساحلية · ويتعذر علينا الآن أن نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الانسحاب · ولعله شعر أنه غير قادر على أداء هذه المهمة · وكيفما كان الأمر فقد عاد الى معسكره فى انطاكية عام ٩٧٥ بعد أن أضاف الى الامبراطورية وادى نهر الكلب وفرض سيادته على اقليم دمشق ·

وبعد ذلك أتى باسل الثانى Basil II ٩٧٦ ــ ١٠٢٥ ومضى على سياسة التوسع فى سوريا بين عامى ٩٩٥ ، ٩٩٩ واستطاع الاستيلاء على بعض المدن مثل رفنيه Rafaniya وحمص وشيزر Shayzar كما استعاد طرطوس ومرة أخرى ينكسر أمام طرابلس · وخلال الحرب الدائرة بين المسلمين والمسيحيين حول حلب يظهر أن المدينة استطاعت أن تتحرر من حكم البيزنطيين · فأخيرا ، فى عام ١٠٠٠ أرسل الخليفة الفاطمى «الحاكم» سفارة الى القسطنطينية تفاوض فى الصلح · واتفق الطرفان على هدنة مدتها عشر سنوات على أساس الابقاء على الحالة الراهنة فى الأراضى المقدسة · ويظهر أن الحل البيزنطى أعطى بعض المكاسب للمسيحيين اذ استمرت سوريا فى أيدى البيزنطيين ولكنهم أخفقوا فى استرداد بيت المقدس من حكم المسلمين · ومنذ ذلك التاريخ لم يحدث شىء له أهمية كبرى حتى مجىء السلاجقة الأتراك والتجار والتماس الكسليوس كومنينس المشهور من بابا روما عام ١٠٩٣ ·

الحل الكارولنجى :

حاول البيزنطيون ايجاد حل لمشكلة الأماكن المقدسة الضائعة منهم وأسفر ذلك عن عمل هدنة مع الفاطميين فى مصر فى أعقاب الألف سنة الأولى للميلاد ، وفى الوقت نفسه كان هناك اتجاه الى حل سلمى آخر بين آخر الكارولنجى والعباسيين فى بغداد • ولم يعد البيزنطيون ينظرون الى العرب على أنهم مجرد شعب من الغزاة حل مؤقتا على دولتهم فى الشرق الأدنى • وقد عرض البيزنطيون موقفهم للخطر مع الكنائس الشرقية التى سموها « المنشقة » ووصفوها بالهرطوقية ، اذ أن النسطوريين واليعاقبة والأقباط تمتعوا بالاستقلال الدينى تحت حكم العرب كما لم يمارسوه حين كانوا تحت حكم الامبراطورية الشرقية للرومان منذ منتصف القرن الخامس للميلاد • وقد صاحب انتشار السلام والعدل والطمأنينة فى بلاد الشرق الأدنى ازدهارا مستمرا وتفوقا للحضــارة العربية التى اشترك فيها المسيحيون الشرقيون بنصيب وافر • وأصبح التعايش السلمى بين المسلم والمسيحى ، وبين العربى وغير العربى أمرا مفروغا منه تقبلته الشعوب برضى ، ولم يستطع الغرب أن يفعل شيئا ازاء ذلك • وفى الوقت نفسه ضاع التأثير البيزنطى فى ايطاليا ، مما دفع الى تقارب بين البابوية ومملكة الفرنجة • هذا التحالف الى جانب رغبة البابوات فى استرجاع الأماكن المقدسة وكذلك موقف المسيحيين الشرقيين كان بلا شك نقطة البداية فى تبادل البعثات الدبلوماسية بين الفرنجة والخلفاء العباسيين خلال القرن الثامن الميلادى • ومع أن المصادر الأصلية لهذا الموضوع قليلة ، فانه من الممكن تفسير الاتجاه العام لهذه السفارات من عرض سريع للحوادث •

أرسلت السفارة الأولى الى بغداد فى عام ٧٦٢ من ملك الفرنجة بيبن الثالث Pepin III (٧٤١ – ٧٦٨) وقد عاد السفراء بعد غيبة ثلاث سنوات مع مبعوثين من الخليفة المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥) ثانى الخلفاء العباسيين ومؤسس مدينة بغداد (مدينة السلام) • ولم يعرف طبيعة هذه السفارات الا أنها تحية أصدقاء وتبادل هدايا وبعض الاشارات الغامضة للمفاوضات. وتحددت هذه الاتصالات الدبلوماسية عندما حكم شرلمان وكانت لها أهداف

معينة • ولكى نفهم هذا الموضوع فهما واضحا ، لابد أن نستعرض هذه العلاقات خلال الوضع السياسى للعالم فى ذلك الوقت • لقد كان لنقل الخلافة من دمشق الى بغداد والتأثر بالتراث الساسانى وكذلك الحرب المستمرة مع الامبراطورية الشرقية ، كان لذلك كله أثره فى اشعال روح الكراهية التقليدية بين الفرس واليونان • ومن جهة أخرى فان تأسيس الدولة الأموية فى قرطبة باسبانيا معناه بقاء العدو الأول للعباسيين فى مجاورة مملكة الفرنجة فى الغرب • لذلك أصبح من الطبيعى لكل من الطرفين أن يتبادلا العلاقات الطيبة التى تسمح للفرنجة بأن تكون لهم مكانة فى المدينة المقدسة على أن يناوئوا الأمويين فى اسبانيا برضى العباسيين • وبهذه الطريقة أيضا وجه الغرب نظره الى ملء الفراغ الذى حدث باختفاء التأثير البيزنطى من الأراضى المقدسة •

وفى عام ٧٩٧ أرسل شرلمان ثلاثة سفراء الى بغداد وهم : لانتفريد ، وسيجموند ، وايزاك [اسحق] اليهودى • ويحتمل أن يكون اليهودى هو المترجم للسفارة • وقد مات المسيحيان فى الطريق وبذلك اقتصرت السفارة كلها على اليهودى • وبعد ذلك بسنين أرسل أحد الكهنة وهو زكارياس [زكريا] فى بعثة أخرى الى بطريرك أورشليم • ونستطيع القول بأن الهدف من كل من المبعوثين كان انشاء تعاون بين سياستى العباسيين والفرنجة للتعدى على حدود الخلافة الأموية فى قرطبة وكذلك الحصول على امتيازات للحجاج الغربيين الى فلسطين وبسط الحماية الكارلنجية على بيت المقدس والمسيحيين فى الشرق ويظهر أن الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) كان موافقا على هذه الاتجاهات فى جوهرها • ومن الأمور التى لا تحتاج الى مناقشة ان هارون الرشيد كان يرغب فى تقويض عرش الأمويين فى اسبانيا •

والواقع أن فكرة الحماية على الأماكن المقدسة والمسيحيين الشرقيين تصبح فكرة يصعب قبولها اذا قسناها بمقاييس السياسة الحديثة ، ولكنها تصبح شيئا عاديا اذا نظرنا اليها نظرة القرن الثامن للميلاد • فقد كان من المعتاد خلال العهود الأولى للاسلام أن يترك الخلفاء تدبير أمور « أهل الكتاب » أو « أهل الذمة » أى المسيحيين واليهود الذين هم تحت حكم

الاسـلام ، الى رؤساء كنائسهم دون خوف على سيادة العالم الاسـلامى ٠ بل ان الحماية المسيحية فى حالة شرلمان وضعته فى مركز تابع للسيطرة العربية ـ وربما كان هذا هو السبب الذى دعا بعض المؤرخين الى الاعتقاد بأن هذه الفكرة [فكرة الحماية] نشأت فى بغداد لا فى آخن ٠ وعلى ذلك فلم يكن هذا امتيازا أجنبيا اذا استخدمنا لغة عصرنا الحاضر ٠ ومع أن المفاوضات التى قام بها المبعوثين غير معروفة فان الحوادث فى السنوات التالية تشير الى نشـوء حماية اسـمية غير محـدودة للنواحى الروحية أو الدينية على أورشليم وكذلك على المسيحيين الشرقيين ٠

وفى نهاية عام ٨٠٠ نسمع عن راهبين شرقيين توجها الى روما مندوبين عن بطريرك بيت المقدس ، أحدهما من الدير المعروف باسم « دير القديس سابا » Sabas والآخر من دير « جبل الزيتون » ٠ ومعهما زكريا أحد الكهنة وحملوا معهم مفاتيح القبر المقدس وبعض الآثار المقدسة وأهدوها الى شرلمان ويظهر أن هذا المشهد أثر فى البابا الثالث الذى سارع الى وضع تاج الامبراطورية الرومانية على رأس شرلمان فى كاتدرائية القديس بطرس ليلة عيد الميلاد عام ٨٠٠ ٠

وفى عام ٨٠١ أرسل الخليفة سفارة وصلت لجهورن (ميناء مدينة بيزا) واستقبلهم الامبراطور استقبالا حافلا فى مكان بين ايفريا Ivrea فرسيلى Vercelli بمقاطعة تورين وذلك خلال عودته الى عاصمته الألمانية ، ومما لا شك فيه أن السفيرين المبعوثين ـ وكان أحدهما فارسيا والآخر حاكم مصر واسمه ابن الأغلب ـ أوضحا للامبراطور رغبة الخليفة أن يذعن لرأى الامبراطور ، كما أعطوه آخبار بعثاته السابقة التى يرجح أنها وصلت الى بغداد قبل أن تقوم هذه السفارة من هناك ٠ وقد سبقت الاشارة الى أن الرسول الوحيد الذى وصل من البعثة المسيحية كان اسحق اليهودى وقد عاد الى آخن عام ٨٠٢ واحتوت هدايا الخليفة على مجوهرات ، وذهب ، وملابس ، وعطور ، وآثار مسيحية مقدسة ، والفيل الأبيض المشهور ٠ وفى السنة نفسها (٨٠٢) أرسل الامبراطور سفارة أخرى يرأسها رجل اسمه رادبرت Radbert ولكن يظهر انه حدث له مثلما حدث لسابقيه فمات أثناء الرحلة ٠ وفى عام ٨٠٦ أرسل مندوبون من قبل بغداد ٠

وكان المندوبون هم : أحد المسلمين واسمه عبد الله ومعه راهبان اختارهما نوما بطريرك أورشـليم ٠ وكان اسـم أحدهما فيلكس والثانى اجبالد Egibald ٠ وسارت هذه الرحلة فى البحر الأبيض المتوسط تم جنوب أوربا الى آخن محملة بهدايا نفيسة منها خيمة نسيجها متعدد الألوان وبعض الثياب الأخرى ٠ هذا بالاضافة الى ساعة مائية عجيبة ربما كانت أول ساعة من نوعها فى تاريخ أوربا ٠

والغالب أن مركز شرلمان فى الشرق ازداد ازديادا مطردا خلال هذه الفترة ٠ فقد أمن الحجاج الأوربيين كما دافع عن حقوق المسيحيين الشرقيين بالطرق الدبلوماسية ٠ وكان يرسل عشر دخله وكذلك عشور بعض الأتقياء الأوربيين الى المؤسسات الدينية فى أورشليم ، تلك التى عمل على صيانتها على حين بنيت المنازل الجديدة عن طريق الوكالات الامبراطورية. فقد شيد ديرين لاتينيين فى المدينة المقدسة : أحدهما على جبل الزيتون والآخر بقرب القبر المقدس ٠ وأهم مؤسسة بناها الامبراطور فى « حقل الدم » ، فندق للحجاج وكنيسة ومكتبة وسوق وقف عليها الدخل المتجمع من اثنى عشر منزلا حكوميا ٠ والى جانب ذلك بعض حقول الأرز وبساتين الفاكهة فى وادى يهوشافاط [وادى القضاء] وقد قدم برنارد الراهب حسابا لكل نشاط هذه المؤسسات خلال حجة عام ٨٧٠ ٠ وباستمرار وصول الحجاج الأوربيين تدفقت الهبات وكثيرا ما سافر مندوبون عن بطاركة أورشليم الى أوربا لجمع المال لترميم الكنائس القديمة أو لأغراض أخرى مثلما فعل أسقف أماسيا Amasia عندما أبحر الى أوربا لجمع المال ليدفعه فدية للأتراك ليطلقوا من أسروهم من الرهبان عام ٩٠٠ على شواطىء بحر قزوين ووهب محبو الخير من الاقطاعيين ثمار ملكهم العقارى لأغراض الخير فى الشرق ٠ وفى بداية القرن العاشر كرس هيو (مركيز توسكانى) وزوجته جوليت دخل اقطاعياتهم فى أورفيتو سوفانا Orvieto Sovana ، اكوابندنت Aquapendente لرعاية الرهبان فى دير القديسة مريم اللاتينية فى أورشـليم وكذلك جميع الحجـاج الذين يستضيفهم هؤلاء الرهبان ٠

ان الطريقة السلمية التى انتهجها شرلمان فى حل المسألة الشرقية

وفرت العدل والاستقرار لجميع المسيحيين فى الشرق الأوسط • وعندما كتب ثيودســـيوس بطريــرك بيت المقــدس الى اغناطيــوس بطريــرك القسطنطينية عام ٨٦٩ قال ان العرب المسلمين عادلون وانهم لا يضايقون المسيحيين بأية طريقة من الطرق • والواقع أن قصة التسامح فى صدر الاســلام وكذلك على عهد الخلفاء الأولين لم تكتب بعد بكل تفاصيلها • بل أكثر من ذلك ، تعتبر صفة مميزة • ولكن مؤرخى الغرب اختلقوا فيها أو أهملوها • ومع أن هناك فترات متباعدة حدثت فيها اضطهادات فانه يجب أن يكون واضحا أن هذه الاضطهادات اقترنت بأهواء شخصية لبعض الخلفاء مثلما حدث من الخليفة الحاكم (٩٩٦ ــ ١٠٢٠) الذى يوصف أحيانا باسم « نيرون مصر » وذلك بسبب قسوته على المسيحيين وتدميره للقبر المقدس عام ١٠٠٩ • ولكن « الحاكم » كان مجنونا • فقد أساء الى المسلمين أيضا وكانت نهايته مظلمة غامضة • فقد قيل انه قتل فى صحراء حلوان وتولى خدمه قتله • وهناك رواية أخرى ــ لم تنبت صحتها بعد ــ تقول انه اعتزل متخفيا فى دير قبطى مهجور حيث كفر عن بشاعة أعماله •

واذا نظرنا الى الغرب وجدنا أن الاســلام فيه لم يقل تســامحا • فقد دهش الاسبان عندما استعادوا طليطله وكذلك النورمانديون عندما اســتعادوا صقلية لأنهم وجدوا الكنائس المســيحية لم يمسها ســوء كما وجدوا رجال الدين المسيحى يقومون بالشعائر الدينية دون تدخل أو ازعاج • بل ان تعاون العلماء المسلمين والمسيحيين واليهود فى أيبيريا [اسبانيا والبرتغال الآن] ساعد على ابراز عصر النهضة فى القرن الثانى عشر •

واذا أردنا الدقة فان عصر الارهاب فى الشرق الأوسط يقترن بالعصر الذى تسلط فيه الأتراك الذين كانوا حديثى العهد بالاســلام ولم يفهموا لغة القــرآن • ولا يمكن القول بأن المسيحيين وهم تحت حكم السلاجقة الأتراك كانوا أسعد حالا مما كانوا عليه تحت حكم الامبراطورية البيزنطية وقد حدث التخريب الحقيقى للأماكن المقدسة قبيل الحروب الصليبية على أيدى هؤلاء السادة الذين اغتصبوا السلطة من الخلفاء العرب واستولوا على بيت المقدس عام ١٠٧٨ على حين انطلقت جماعاتهم تنتشر فى الأناضول البيزنطى •

عصر الحجاج

برزت فكرة الحج والغفران في عقول الأوروبيين في العصور الوسطى بروزا دفع بعض المؤرخين الى وصف العصور الوسطى باسم عصر الحج ٠ لقد كان يعتبر الحج طريقا للغفران ذا أثر فعال ؛ بل أكثر من ذلك كان التبرك بالآثار التي يجلبها الحجاج يؤدى الى معجزات في شفاء المرضى ٠ وكانت احدى صور التقوى في الحج تلك الرحلة التي يكتنفها بعض الصعاب والأخطار ٠ فكانت فرصة لأولئك الذين يرغبون في المغامرة ٠ ويجب علينا أن نذكر أن الحج والتبرك بالآثار أصبح شيئا محببا في أوربا خلال العصور الوسطى ابتداء من القرن العاشر ، وفيما يأتي وصف ما ترتب على ذلك ٠

على الرغم من أن فكرة الحج لأماكن المعابد والشهداء لقيت صراعا منذ فجر العصور الوسطى فان انسقاقا حدث بين آباء الكنيسة نحو تبرير ذلك ٠ فنشأت مدرستان للفكر في هذا الشأن ٠ الأولى بدأها القديس باخوميوس العظيم (حوالى ٢٩٢ — ٣٤٦) من مصر العليا وأيده القديس أوغسطينوس من مدينة هبو Hippo (٣٥٤ — ٤٣٠) من شمال افريقيا ٠ وهذه المدرسة تدعو الى عدم تشجيع الحج باعتباره احدى الصور المتبقية من العادات الوثنية ٠ وعندما أحس القديس باخوميوس بقرب نهايته أوصى تلميذه وخليفته نيودور أن يحمل جسده بعد موته ويدفنه في مكان لا يعرفه أحد حتى لا يتخذ الناس قبره مكانا للعبادة أو منابة يحجون اليها ٠

أما المدرسة الثانية فقد اتبعت أسلوبا آخر ٠ فالقديسة هيلانة والدة قسطنطين حجت الى بيت المقدس خلال الفترة الواقعة بين نهاية العقد الثالث وبداية العقد الرابع من القرن الرابع ٠ وحملت معها الصليب المقدس وأدوات التعذيب ووضعتها في كنيسة بنتها قرب القبر المقدس ،

كما أسست كنائس كثيرة بعضها قريب وبعضها بعيد ، ومنها كنيسة « العليقة المحترقة » في دير سانت كاترين في شبه جزيرة سيناء (والتي كانت تسمى قبل ذلك كنيسة « استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم ») ٠ وقد قام البعض بالرحلات المحفوفة بالمخاطر الى فلسطين من بلاد بعيدة مثل بلاد الغال (فرنسا حاليا) وتركت بعتة الحج المعروفة باسم حج بوردو والقديسة سيلفيا من اكويتين (المعروفة باسم سيثريا وآيثريا) ما يدل على أن زياراتهم تمت قبل نهاية القرن الرابع ٠ ومن آباء الكنيسة الذين جندوا فكرة الحج القديس جيروم الذى قضى عشر سنوات (٣٧٢ — ٣٨٢) ناسكا جوالا حول الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى كله ٠ وحتى بعد عودته الى ايطاليا لم يبق هناك الا ريثما ينتهى من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ثم عاد بعد ذلك في عام ٨٣٥ الى تجواله في الشرق ، وانتهى به المطاف الى كهف بالقرب من كنيسة الميلاد في بيت لحم حيث علم شباب هذه الناحية ٠ وأسس مركزا للسيدات اللائى أتين للحج من ايطاليا ٠

وثمة ظاهرة جديدة حدثت نحو منتصف القرن الخامس بدأتها الامبراطورة ايودوكيا Eudocia اذا ألفت جماعة مجمع الآثار ٠ وبدأت بالرسم الذى رسمه القديس لوقا للسيدة العذراء ٠ وما لبثت هذه الجماعات أن صارت عادة محببة وأسست آلاف الكنائس في أوربا الغربية وأصبحت مكرسة للآثار التي أحضرها الحجاج من الشرق ٠ وعلى ذلك نهبت كنائس القدس ، ونهبت الآثار التي كانت بعيدة قطعة بعد قطعة على مر القرون. ويقال ان جسد القديسة كاترين أحد شهداء الأقباط في الاسكندرية في بداية القرن الرابع ، احتفظ به كاملا في دير جبل سيناء في القرن التاسع ٠ وفي الوقت الحاضر نجد أنه لم يتبق في الدير الا الجمجمة ٠ واليد اليسرى للقديسة كاترين ، وقد وضعتا في تابوت أبيض ومعهما تبرعات غنية من الذهب المصوغ والأحجار الثمينة بجانب مذبح الكاتدرائية المشهورة التي بناها جستنيان لتخليد ذكرى الامبراطورة تيودورا ٠ وأولئك الذين يزورون ما تبقى من كنيسة القديس سمعان العمودى بالقرب من حلب في شمال سوريا ويجدون عمودا عاش على قمته هذا الرجل القديس نحو ثلاثين عاما خلال القرن الخامس كان ارتفاعه أكثر من ٩٠ قدما لم يبق الا جزء منه ٠ أما الباقي فقد حمله أولئك الباحثون عن الآثار المقدسة ٠

ووقفت حركة الحج في أثناء فتح المسلمين للبلاد ، ولكن حالما وضعت الحرب أوزارها ، بدأت سيول المهاجرين مرة أخرى حتى القرن الثامن ٠ والدليل على ذلك زيارة أسقف بيرجييه Périgueux واسمه أركلف Arculf عام ٦٧٠ أى بعد ثلاث وثلاثين سنة من دخول الخليفة عمر على جمل الى بيت المقدس ٠ وقضى الأسقف تسعة شهور في المدينة المقدسة بعد أن زار الأماكن المقدسة ٠ والرواية المكتوبة التي خلفها لرحلته هي :
Relatio de locis sanctis ab Adamnano scripta.

وهي نموذج لبعض المخاطرات المعروفة ولكنها لم تتضمن الرحلة من انجلترا واسكتلنده وبلاد الغال (فرنسا) وايطاليا وسائر دول أوربا ٠ وقد بدأت رحلة حج ٠ وليبولد الانجلوسكسونى عام ٧٢٢ واستمرت سبع سنوات وقد دونها تحت اسم :
Vita sive potius Itinerarium S. Willibaldi episcopi Aichstadiani

ويبدو خط فاصل واضح بانشاء ما سمى بالحماية الكارولنجيةالدينية على مسيحى الشرق تم فتح الطريق من أوربا الى سواحل الشرق الأدنى نتيجة مباشرة لذلك ٠ فانشاء دور الضيافة في المدينة المقدسة خلال تلك الفترة كان نتيجة ازدياد عدد الحجاج اللاتينيين ٠ وهناك ثلاث كتابات في العصر الكارولنجي تستحق الالتفات وهي رحلات فيبيدلز نحو ٧٥٠ ــ ٧٦٠ ورحلات الراهب برنارد ٨٦٧ ــ ٨٧٠ ورحلات فورتمند Fortmund نحو ٧٨٠ ــ ٨٧٤ والأول يرجع غالبا الى أصل ايرلندىوقد عرف بزياراته ووصفه للبقاع المقدسة سواء في مصر أو في الأراضى المقدسة ٠ أما الثانى فكان من جبل سانت ميشيل في بريتانى (١) مع رجل معروف منأسبانيا اسمه ستيفن وآخر هو ثيودمند وكان غالبا من الفرنجة ٠ وكان عنوان ما كتبه برنارد « طريق الرهبان الثلاثة » أو « طريق الحكيم برنارد » (٢) ويحوى وصفه معلومات طريفة لبعض مناحى الحياة في مصر وفى الأراضى المقدسة في غضون القرن التاسع ٠ وفي بيت المقدس ، سكن ثلاثتهم في

(١) مقاطعة كانت في شمال غرب فرنسا ٠
(٢) Itinerarium Bernardi Sapientis

بيت الضيافة الذى بناه شرلمان للحجاج اللاتينيين كما فحصوا محتويات مكتبة القديسة مريم • أما الثالث فكان فورتمند وكان نبيلا من بريتاني واشترك في جريمة دموية عاقب نفسه من أجلها فى صورة حج دائم حتى يصفح عنه الله • فكان يسير حافى القدمين واضعا مسحا على رأسه مرتديا ملابس خشنة ، متمنطقا بسلسلة في وسطه وأخرى فى ذراعيه وسار نحو الشرق • وخلال تجواله مدة أربع سنوات زار سوريا وبقى فى بيت المقدس فترة من الزمن ، ثم ذهب الى مصر وعاش مع بعض الرهبان فى ثبايد [مصر العليـا] (*) Thebaid كما ذهب الى قرطجنة ثم عبر الى روما يلتمس صفح البابا بنديكت الثالث ولكن دون جدوى • وحين لم يفـد ذلك رحل مرة أخرى الى أورشليم ثم قانا الجليـل ثم الى البحـر الأحمر وجبل سيناء ثم الى موقع وقوف فلك نوح على جبال أرمنيـا • وعند ذلك فقط أدركته الرحمة والخلاص « من سلاسل الاثم التى كانت تكبله كالحديد » ومضى فى طريق عـودته الى قبر القديس مارسلينوس Marcellinus فى دير ريدون فى بريتانى •

ومع أن حروب البيزنطيين فى القرن العاشر انقصت من عدد المسافرين الى ألشرق الأوسط فان أفواج الحجاج من الغرب لم تتوقف توقفا حاسما على الاطلاق • ومن بين الاقطاعيين المعروفين الذين قاموا بالحج : هيلدا كونتيسة صوابيا Sawabia وقد ماتت فى الطريق عام ٩٦٩ ، وجوديث دوقة بافاريا ، وزوجة أخى الامبراطور أوفو الأول عام ٩٧٠ ، وآخرون مثل : كونت ارديش ، وكونت فيينا ، وكونت فيرون ، وكونت آركى ، وكونت انهالت ، وكونت جوريزيا • وكذلك لم يتخلف آباء الكنيسة عن الحج ومنهم : أسقف أوليفولا Olivola اذ قام بالحج عام ٩٢٠ والقديس كونارد أسقف كونستانس Constance وقد زار أورشليم ثلاث مرات ، أما القديس جون (يوحنا) أسقف بارما Parma فقد زار أورشـليم أيضا ما لا يقل عن ست مرات • كما قام بالحج خمسة أساقفة ومطارنة آخرون رؤساء أديار الرهبان الآتية: سانت سايبار ، فلافجنى ، أوريللاك ،

(*) المقاطعة التى تحيط بموقع مدينة طيبة القديمة وهى قريبة من مدينة الأقصر حاليا •

الفديسة أوبين دى أنجير d'Angérs ، ومونتييه اندير Montier-en-Der وقد سافروا جميعهم فى تواريخ مختلفة • ولابد أنهم بما لهم من مكانة قد اصطحبوا معهم أناسا من الطبقة الدنيا •

وتركزت حركة الحج من أوربا الى الأماكن المقدسة فى ثلاثة مراكز رئيسية هى : مكان القديس جيمس [يعقوب] من كومبوستلا فى أسبانيا، والقديس بطرس فى روما ، والأماكن المقدسة فى أورشليم التى اعتبرت أجمل المدن المقدسة جميعا • وفى القرن العاشر شجع رؤساء دير كلونى Cluny زيارة الحجاج لاسبانيا أولا واتضح أن أديارهم فى الطريق الجنوبى الغربى مراثىء مناسبة لجميع المسافرين الأتقياء فى هذا الاتجاه• وبعد ذلك امتد عملهم بانشاء أماكن مريحة فى المراكز الهامة ، وبدأوا فى تنظيم رحلات الى الأراضى المقدسة • وقد استطاع جمع كبير من الناس فى تلك الأيام أن يحجوا تحت رعاية الرهبان الكلونيين ومن هؤلاء مثلا رئيس دير سنافلوت عام ٩٩٠ وكونت فرون ٩٧٧ •

وبدأ الاسكندناويون فى الحج مع رجل اسمه كولسجر Kolseggr ووصلوا الى فلسطين عام ٩٩٢ وتبعهم هارالد هارهراوا عام ١٠٣٤ وأفراد من النرويج والدانيمرك خلال القرن الحادى عشر • وحتى الجزيرة النائية ايسلند حضر منها رسول المسيحية اليها فورفالد كودرانسن فيدتغيرلى ، وقد زار أورشليم عام ٩٩٠ •

وحتى القرن الحادى عشر كانت أفواج الحج العادى تتلاقى فى كنائس روما ثم تعبر البحر الأبيض المتوسط من أى ميناء بحرى فى جنوب أوربا مثل البندقية أو نابولى أو بارى• أما الطريق البحرى فكان الىالقسطنطينية وقد فتح بعد ايمان ملك المجر ستيفن وشعبه اذ أصبحوا مسيحيين عام ١٠٠٠ • وكان يستخدم هذا الطريق عادة سكان وسط أوربا ، وزاد الاقبال عليه بعد الحملة الصليبية الأولى • ويلاحظ أن نهاية معاهدة السلم بين الامبراطور باسل الثانى وخليفة مصر الحاكم فى نفس السنة[١٠٠٠م] زادت من سلامة السفر الى ما وراء البحر فى القرن التالى •

فاذا وضعنا كل هذا فى الاعتبار فانه يفسر لنا الهزة المفاجئة التى

اصابت حركة الحج في ذلك الوقت . والواقع أنه يمكن تعريف القرن الحادى عشر بأنه عصر « الحج بالجملة » فقد كان يتجمع مئات من الأتقياء ويسيرون الى بيت المقدس بقيادة أسقف أو رئيس دير أو اقطاعي كبير. ولا تعوزنا أمثلة من هذه التجمعات التى كانت تحشد للحج . فقد قاد فولك من نركسا Fulk of Nerxa وكونت انجو Anjou حملة شعبية للحج عام ١٠٠٢ . وفى العام ١٠٢٦ - ١٠٢٧ قاد رئيس دير فرنسى جماعة مكونة من ٧٠٠ حاج الى الأراضى المقدسة. وفى السنة نفسها ذهب الى الشرق الكونت وليم من انجوليم Angoulême مع عدد كبير من رؤساء الأديار والنبلاء . وفى عام ١٠٣٥ ذهب الدوق روبرت الأول من نورمانديا مع مجموعة أخرى ولكنه مرض في أثناء رحلة العودة من أورشليم ومات عند نيقية قرب الشاطيء الغربى للأناضول . ومع ذلك يتكرر ذهاب أفواج الحجاج من نورمانديا عام ١٠٦٤ . أما الحجاج الألمان فقد كانت مسيرتهم الكبرى عام١٠٦٤ـ١٠٦٥وقد نظمها الأسقف جنتر من بامبرج Bamberg اذ قاد ٧٠٠٠ رجل الى فلسطين . ومما لا شك فيه أنها كانت أكبر جماعة انضم بعضها الى بعض فى مسيرة واحدة قبل بدء الحروب الصليبية . وقد ذكرت بعض المراجع أن عدد هذه الجماعة بلغ اثنى عشر ألفا ، لا سبعة آلاف ، ولكن يظهر أن هذا الاحصاء مبالغ فيه . وكان من بين هؤلاء الألمان أساقفة ورؤساء أساقفة وعدد من الاقطاعيين والنبلاء والفرسان اخترقوا وسط أوربا الى القسطنطينية ومنها الى آسيا الصغرى (وكانت فى أيدى البيزنطيين فى ذلك الوقت) ثم الى سوريا . وفى العام ١٠٨٨ـ١٠٨٩ قامت حملة حج أخرى بقيادة الكونت روبرت الأول من فلاندرز [وهى دولة قديمة مكانها الآن بلجيكا والجزء الشمالى من فرنسا . وكانت تطل على بحر الشمال] وتحوى سجلات القرن الحادى عشر فى دير مدينة كلونى أسماء حجاج مشهورين من ألمانيا مثل رؤساء الأساقفة ترير Trier ومينز Mainz وآخرين من انجلترا وكذلك من فرنسا واللورين .

وحتى ذلك الوقت كان الاحترام الكامل للآثار المقدسة وزيارة أماكن القديسين قد صار جزءا من نظام المسيحية اللاتينية . ولم يمنع الحجاج من السعى الى طلب الغفران حتى بعد أن استولى السلجوقيون على الأراضى

المقدسة وعكسوا السياسة المستنيرة القائمة على التسامح الذى اشتهر به الخلفاء الأولون • وكانت القاعدة أن يسير الحجاج دون أن يحملوا معهم اى نوع من أنواع الأسلحة الا عصا لكل منهم يستخدمونها فى طرد الوحوش • وكانوا يسيرون معظم الطريق حفاة • والأغنياء منهم فقط كانوا يركبون الحمير • وكان الجميع تحت حماية الكنيسة وقلما كان يعترضهم شيء فى سفرهم فى أوربا • وكثيرا ما كان التجار ينضمون الى موكب السعف الذى يحمل فيه الحجاج صليبا مصنوعا من سعف النخل من أورشليم ، حتى يأمنوا غارة اللصوص • أما فى الشرق قبيل الحروب الصليبية فقد كان الحجاج يسيرون جماعات لحماية أنفسهم •

وفى عام ١٠٧٤ كانت الدعوة البابوية للتسلح بين أفراد الجماعات حتى يمكن الوصول الى أورشليم • وقد صدر ذلك من عهد البابا جريجورى السابع الى عهد الامبراطور هنرى الرابع • وبعد نجاح الحملة الصليبية الأولى وتأسيس المملكة اللاتينية لأورشليم وقيام الجماعات الدينية المسلحة، زاد عدد الهيئات المسافرة الى فلسطين • وفيما عدا الجماعات الايطالية وخاصة تلك التى كانت من البندقية وجنوا ، تلك الجماعات التى ملكت بيوت الضيافة فى معظم مدن الأراضى المقدسة ، لم تظهر جماعة أخرى آلا حراس بيت المقدس المعروفين باسم
Hospitallers of St. John of Jerusalem
[أى فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس] وكذلك جماعة الداوية الذين كان لهم دور مشهور فى الاشراف على حركة الحج وتسهيلها • وقد أصبحت جماعة فرسان بيت المقدس أكبر هيئة مالية امتدت فروعها فى العواصم الأوربية وفى أورشليم وفى معظم المراكز الشرقية • وقامت باستبدال العملات ، وجمعت أموالا طائلة من وراء حركة الحجاج (*) •

(*) من العجيب هنا أن تسمع عن الحجاج من أوربا ولا تسمع شيئا عن الحجاج البيزنطيين ويصعب على المرء تصديق أن اليونانيين رفضوا التوجه الى الأراضى المقدسة فى أى وقت من الأوقات ، وذلك مما يدعو الى زيادة البحث فى هذا الموضوع •

أوربا والشرق قبيل الحروب الصليبية

ان مجرد النظر الى الخريطة السياسية للعالم خلال العصور الوسطى حوالى نهاية القرن الحادى عشر ، يلقى ضوءا على أصل الحوادث فى مجال الحرب الصليبية ويوضح العوامل الفعالة فى موقف دول كل من أوربا والشرق الأدنى • فيلاحظ أن القوتين اللتين كانتا فى أوربا فى ذلك الوقت هما البابا والامبراطور ، وكان البابا يشغل مكان الزعامة للعالم • وبهذا أصبحت البابوية ذات مسئولية أدبيـــة عن الدفاع عن المسيحيين أينما وجدوا •

والواقع أن فكرة الحـروب الصليبية فى الشرق بدأت فى البـلاط البابوى قبل أن يثيرها البابا ايربان الثانى (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) فالبابا جريجورى السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥) [الذى كان اسمه هيلد براند قبل أن يتولى عرش البابوية] فكر فى مشروع الحرب المقدسة منذ وصل الى مركز البابوية • ففى عهـده كانت معركة مانزيكرت Manzikert عام ١٠٧١ التى اعتبرت نذير شؤم بالنسبة لانتهاء الامبراطورية البيزنطية والتى كانت آخر حصن للمسيحية فى الشرق ضد الأتراك • وعلى ذلك ادرك جريجورى أن الغرب المسيحى يجب أن يتخذ خطوة لانقاذ الشرق المسيحى ، ومن السهل ادراك أن البابا ايربان الثانى ورث مشروعه غير الكامل من سلفه العظيم • والفرق الوحيد هو أن جريجورى كان يفكر فى الامبراطورية الشرقية على حين كان ايربان يهدف الى تسلم أورشليم بعد أن تركها البيزنطيون • بل أكثر من ذلك لقى البابوات تشجيعا من الامبراطور الشرقى الكسيوس كومنينس (١٠٨١ ـ ١١١٨) •

ويقال ان الامبراطور بعث رسالة الى صديقه القديم الكونت روبرت الأول من بلاد الفلاندرز فى الجزء الأول من العقد الأخير من القرن الحادى عشر ، يطلب من الأوربيين أن يساعدوه حربيا فى الأناضول ضد الأتراك • ولسوء الحظ فقدت الوثيقة الرسمية • أما النصوص الموجودة فهى مكتوبة

الدينية المحرفة المعروفة باسم الابوكريفا • وفى تلك السنوات الحرجة فى حياة الامبراطورية الشرقية لا يوجد سبب يدعو الى التشكك فى الصفة التاريخية لرسالة تصف الحوادث • على أن روبرت كان قد حج منذ زمن الى الشرق فاشترك فى الحرب الملكية ضد الأتراك فى آسيا الصغرى عام ١٠٩٠ ، وكان من الممكن أن يستنجد الامبراطور بصديق يعاونه فى وقت الشدة • وفى خلال تلك الفترة كانت السفارات الملكية قد خرجت الى بلاد الفلاندرز • ولا بد أنها توقفت فى طريقها عبر ايطاليا فى مدينة بياسنزا Piacenza حيث قام البابا ايربان الثانى بجمع مجلس الكنيسة فى مارس عام ١٠٩٥ للبحث والمشاورة فى أمور الشرق • وكان ذلك من حسن حظ السفارة البيزنطية اذ استطاعت أن ترفع الأمر مباشرة للبابا المقدس وقد اجتمع معه الكهنة الرومان • ويظهر أن رأى ايربان قد استقر على أمر ما فى أثناء وجوده فى بياسنزا وأنه احتجز قراره الحاسم الى الاجتماع التالى فى جنوب فرنسا • وفى يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ أعلن البابا بكل مهابة ووقار الحرب الصليبية ، وذلك فى خطابه المشهور الى حكومة الكنيسة [أى الكهنة] والنبلاء الفرنسيين فى مجلس كليرمونت فيراند فى أوفرن ومنذ تلك اللحظة ، يمكن القول حقا أن الحروب الصليبية أصبحت مفتاح السياسة البابوية الخارجية الى ما يقرب من نهاية العصور الوسطى •

ومن ناحية أخرى كان امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فى حالة ضيق ، فان هنرى الرابع (١٠٥٦ ـ ١١٠٦) من الأسرة الساليانية Salian فى ألمانيا اضطر الى الجثو على ركبته فيما عرف باسم « اذلال كانوسا المشهور سنة ١٠٧٧ » ولهذا غرق خليفة شرلمان فى مصائبه ، وانقسمت ألمانيا قسمين بسبب التنافر المحلى • وهجم عليها الأباطرة المنافسون مرة برضى السلطة البابوية وبركتها وأخرى بغير رضاها • وعمل كل من رودلف من صوابيا وهيرمان من لكسمبورج ، وكونراد من فرانكونيا على زيادة حدة الخصومة فى ألمانيا الضعيفة • ومع أن جموعا غفيرة من الألمان تبعت المبشرين الجوالين فى حملة الفلاحين [احدى الحملات الصليبية] ، ومع أن بعض الفرسان الألمان المسئولين انضموا الى الحرب

الصليبية الأولى ، فان الامبراطورية الألمانية نفسها ظلت بعيدة عن الحركة الصليبية فى سنواتها الأولى • وقد تأجل التدخل الألمانى الرسمى حتى الحرب الصليبية الثانية عام ١١٤٦ حينما قاد الامبراطور كونراد الثالث جيشه المرابط حتى أورشليم .

وفى انجلترا كان الفتح النورماندى الذى حدث عام ١٠٦٦ ما برح ماثلا فى ذاكرة الصليبيين الأول اذ أعتبر ذلك الفتح أهم حوادث انجلترا حتى ذلك التاريخ ، فقد عمل وليم الفاتح (١٠٦٦ – ١٠٦٧) على توحيد الأمة ولم شملها ، وهو الذى عقد العزم على تحرير انجلترا من عيوب الاقطاع المعروفة فى القارة الأوربية ، كما عرف عنه فى دوقيته القديمة « نورماندیا » • وان العمل العظيم الذى بدأه لم يتم حتى نهاية القرن الحادى عشر • ولم يكن ابنه ووارثه ، وليم روفس (١٠٨٧ – ١١٠٠) الذى عاصر الحرب الصليبية الأولى ، كفؤا ليملأ مكان والده فى انجلترا ولا ليشترك فى حروب خارجية فى أرض بعيدة •

ولم يبق من دول غرب أوربا ما يمكن أن يبحث فيها عن جنود للحرب الصليبية سوى ايطاليا واسبانيا • وكان الجزء الشمالى من ايطاليا لازال تحت حكم الاقطاع مما أدى الى الخلافات بين الاقطاع والبابوية • وهذه الحقيقة جعلت هذا الجزء لا يقدم أية معاونة للحرب المقدسة • ومن الناحية الأخرى فان جنوب ايطاليا الذى كان تحت سيطرة البيزنطيين أصبح تحت حكم النورمانديين ، وبحث الجنس المشاغب الذى فتح البلاد تحت حكم روبرت جويسكارد عن مجالات أخرى للمجد واتساع الرقعة التى كانوا يحكمونها • وقد قدمت الحرب الصليبية الأولى للنورمانديين فرصة ذهبية لتعظيم أنفسهم ، فأسرعوا من ناحيتهم الى الدخول بكل قوتهم وشجاعتهم فى جانب الحركة •

وفى شبه جزيرة أيبريا [اسبانيا والبرتغال] ظلت المقاطعات المسيحية استوريا Asturia ، وقشتاله Castile ، ونافار Navarre واراجون Aragon ، بالاضافة الى اقليم البرتغال النامى فى حرب صليبية محلية مستمرة ضد العرب ، ولم يكتف البابوات باعفاء الاسبانيين من

واجب الاستراك فى الحروب الصليبية فى الشرق ، بل انهم طلبوا أيضا من النورمانديين والفرنسيين أن يمدوا يد المساعدة لمواصلة استعادة الأندلس • ففى خلال الزحف الجنوبى نحو طليطله عام ١٠٨٥ ، ساعد الفرسان الفرنسيون الملك الفونسو السادس من قشتاله • وفى تلك الأثناء كانت الخلافة المغربية فى تدهور واستقل الأمراء العرب كل بامارته• ولذلك ظهرت بعض الممالك الاسلامية فى شبه الجزيرة وقد عرفت باسم ملوك الطوائف • وكان بعضهم يحارب بعضا ، وفى سبيل ذلك كانوا يتحالفوا مع جيرانهم المسيحيين وأعدائهم الطبيعيين ضد المسلمين اخوانهم فى الدين •

وبدا مستقبل اسبانيا الاسلامية مظلما ، لولا أن نزل فى الوقت نفسه « المرابطون » (*) عند الجزائريين آتين من شمال افريقيا تحت قيادة يوسف بن تشفين وقد نجح فى وقف تقدم المسيحيين • وانتصر على الفونسو السادس فى موقعة زلاكا Zallaca عام ١٠٨٦ • واستنجد البابا ايربان الثانى بالنبلاء الفرنسيين لتعزيز الحرب الصليبية فى اسبانيا • ولم يسترد المسيحيون قوتهم حتى عام ١١١٨ حينما استعاد أراجون مدينة سرقسطة Saragossa التى تعتبر موقعا استراتيجيا • وشغل ظهور المرابطين كل اهتمام الاسبان المسيحيين ، ولم يكن ينتظر منهم أن يحاربوا فى جبهتين بالانضمام الى الزحف المقدس الى فلسطين الى جانب حروبهم الداخلية •

وقد أثبتت المملكة الفرنسية والاقطاعيات التابعة لها ، فيما عدا النورمانديين أنها الصخرة التى بنى عليها ايربان طموحه لحرب صليبية نحو الشرق • وايربان الذى كان فرنسى المولد وكولونى بحكم عمله رأى ببصيرته أن يختار فرنسا وطنه الأصلى ليبدأ منها حركته الجديدة • ففى

(*) استمر حكم المرابطين فى اسبانيا أقل من قرن ، وانتهى حكمهم بقيام حكم « الموحدين » الذين وحدوا كل شمال افريقيا وجنوب أسبانيا خلال الفترة الواقعة ما بين ١١٣٠ ، ١٢٦٩ والجدير بالذكر أن هذه الكلمة المرابطين حرفت فى اللغات الأجنبية فأصبحت Almorauids

كليرمونت التى فى قلب اوفرن Auvergne تكلم ايربان الى الكهنة ونبلاء فرنسا بالفرنسية • وقد اعتبر الجميع تحذيرات ايربان الهاما الهيا ومن هنا كانت الصيحة التى يرددها الصليبيون فى المعركة « هذا مايريده الله » Deus lo volt وكان قادة الحملة الصليبية الأولى من الفرنسيين والنورمانديين • ومع أن جريجورى السابع فكر فى أن يذهب الى الشرق بنفسه على رأس الجيش ، إلا أن ايربان كان راضيا بتعيين الأسقف أدهيمار دى مونتى Adhémar de Monteuil الأسقف الفرنسى من بى باعتباره « القاصد الرسولى » أو مندوب البابا للحملة التالية • وكان هذا الرجل متقدما فى السن • له من الذكاء والدهاء حظ عظيم •

وجاء النبلاء الفرنسيين ومن بعدهم الفلمنجيون والنورمانديون بأعداد وافرة ليتسلموا « الصليب » من البابا ايربان نفسه • ومن أوائل الذين تقدموا جودفرى دى بوايون دوق اللورين السفلى (أو لوثرنجيا)وأخوه بالدوين [بغدوين] (١) وآخرون من القادة الحربيين مثل رايموند من سانت جل كونت تولوز ، وروبرت النورماندى ابن وليم الفاتح ، هبو كونت فيرماندوا وشقيق فيليب الأول ملك فرنسا ، ستيفن من بلوا ، روبرت كونت الفلاندرز ، بوهمند من تارنتم Tarentum ابن روبرت جويسكارد المحارب النورماندى العظيم وابن أخيه دنكرى (٢) Tancred وكانوا جميعا من الاقطاعيين الأغنياء المعروفين بشجاعتهم، وغيرتهم الدينية وثباتهم • أما نواحى ضعفهم فكان مرجعها الى تقدم السن ، فكانت فيهم خلائق المعاندة أو التشبث بالرأى والغطرسة • ولم يشترك فى الحرب الصليبية الأولى أى ملك ولذلك تسمى هذه الحرب بجملة الأمراء والبارونات • والواقع أن ملوك أوربا العظام كانوا ثلاثة هم : الامبراطور هنرى الرابع ، ووليم روفس من انجلترا ، وفيليب الأول ملك فرنسا ، وجميعهم كانوا محرومين من الكنيسة فى ذلك الوقت ولذلك لم تكن للجيش الذى تجمع سلطة عليا موحدة ، ولكنه كان مجموعة من الفرق

(١) أسامة ابن منقذ **كتاب الاعتبار** ص ٦٥ •
(٢) ابن منقذ ص ٦٥ ، ٦٨ – ٦١ ، ٩٦ •

تخضع كل منها لقائد • ومع ذلك أثبت الصليبيون الأوائل انه من الممكن أن يتحدوا نحو الهدف الأساسى وهو حرب معركة الصليب ضد الشرق الاسلامى الذى كان يعانى من أعراض عدم التآلف •

والحقيقة الواقعة ، أن حالة الفوضى التى سادت الامبراطورية الاسلامية فى نهاية ذلك القرن تمدنا بالتفسير الرئيسى لنجاح اللاتينيين وانهزام المسلمين عندما بدأت الحرب • فنلاحظ أولا أن الشرق الأدنى كانت تحكمه دولتان متنازعتان : الفاطميون (١) فى مصر ومذهبهم مذهب الشيعة ، والخلفاء العباسيون (٢) فى بغداد ، ومذهبهم مذهب أهل السنة ، وطابعه الاستقامة والاعتدال • ولم يمكن التوفيق بين هذين المذهبين حتى أمام خطر الصليبيين القادمين من أوربا • ولكن لم يكن هذا نهاية الاضطراب • فقد أصبح الخلفاء العباسيون مجرد رمز لنظام الحكم الاسلامى • وانتهى حكمهم بأن خلعوا على أقوى قائد تركى لقب سلطان • وترجع قصة الأتراك فى غرب آسيا الى حكم الخليفة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) آخر من جاءوا

---

(١) الأسرة الفاطمية أصلها من تونس • وكان أول خليفة لها هو عبيد الله المهدى الذى انتحل اللقب عام ٩٠٩ وحكم حتى عام ٩٣٤ . وأسس عاصمة ملكه الجديد « المهدية » ، التى انتشر منها حكم الفاطميين فى كل شمال أفريقيا • وفى عام ٩٦٩ فتحوا مصر ونقلوا كرسى الحكم الى المدينة الجديدة التى أسموها « القـاهرة » والتى صارت مركز الامبراطورية الواسعة التى امتدت من المغرب الى سوريا • والفاطميون ينتسبون الى فاطمة ابنة النبى محمـد التى تزوجت على بن أبى طالب رابع الخلفـاء الراشدين وهم يدعون أنه خليفة الرسول بحكم الله • وأصبح خلفاؤهم موضع احترام كبير ، وهذا مضاد للروح الاسـلامية المستقيمة • وزالت دولتهم عام ١١٧١ عندما قمعهم صلاح الدين وأعاد مصر من الشيعة الى العقيدة السنية •

(٢) بدأ حكم الخلفـاء العباسيين بعد الأمويين عـام ٧٥٠ وانتقلت العاصمة العربية من دمشق الى بغداد وذالت دولة العباسيين عام ١٢٥٨ وهو تاريخ سقوط بغداد فى يد هولاكو قائد المغول • وعندئذ انتقـل الخلفاء الى القاهرة تحت حماية السلاطين المماليك • وينتسب العباسيون الى العباس عم النبى محمد وكانت لهم سلطة دينية وهمية فى القاهرة حتى الفتح العثمانى لمصر عام ١٥١٧ عندما نقلهم السلطان سليم الأول عقب الفتح التركى الى القسطنطينية • واندمجوا فى السلطة التركية وبقى لقب الخلافة يطلق على السلطة حتى أنهاه كمال أتاتورك عام ١٩٢٤ •

من الخلفاء بعد هارون الرشيد ، الذى اتخذ من الموالى الأتراك حرسا له لكى يحرر نفسه من نفوذ أرستقراطية العرب ، وهذا يماثل الجموع الوافرة من البرابرة الذين استخدمهم الأباطرة الرومان لهدف مماثل ٠ وأخيرا استولى الأتراك على السلطة كلها من يد الخليفة ٠

وقد استولى السلجوقيون ـ احدى القبائل التركية ـ بقيادة طوغرل بك على بغداد نفسها عام ١٠٥٥ بعد غزو ايران ٠ واغتصب طوغرل بك لنفسه لقب سلطان بالرغم من الخليفة الذى لم يكن له سلطان ٠ أما خليفته ألب أرسلان (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢) فقد اتجه نحو الفتوح والتوسع السياسى فاستولى على أورشليم من الفاطميين عام ١٩٧٠ ؛ وفى العام التالى اتجه نحو الشمال وأوقع الهزيمة فى موقعة مالازكرد بنائب الحاكم البيزنطى رومانوس الثالث ديوجينس ٠ وكان خليفة ألب أرسلان هو ملك شاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) آخر سلطان سلجوقى عظيم وقد فتح آسيا الصغرى فيما عدا أهم مدينة وهى طرابيزون على الساحل الجنوبى للبحر الأسود وجعلها تابعة لسلطنة الروم الخاضعة له ٠ وقد كانت وفاته نهاية حكم السلاجقة ٠

أما الطريقة التى مارس بها الأتراك حكمهم فقد ساعدت على اضمحلال مملكتهم ٠ فقد اعتمد حكمهم على النمو المطرد لفكرة الاقطاعيات المستقلة ، وذلك لتوسعهم فى فتوحاتهم وتقسيم البلاد على المحاربين وجيوشهم ، وقد انتهز الاقطاعيون الأقوياء أول فرصة مناسبة لاعلان استقلالهم التام باقطاعياتهم عن السلطنة ، وأدى زوال سلطة ملك شاه بشخصيته القوية عن مسرح الحوادث الى أن يثبت الحكام المشاغبون أقدامهم ، ويهيمنوا على اقطاعياتهم ويعلنوا استقلالها ٠ وتبع ذلك اثنا عشر عاما من الفوضى والنزاع المميت بين من أدعوا الخلافة السلطانية (*) ٠ وقد وافقت هذه

(*) ان صورة الشعب الداخلى فى سوريا وقت الحرب الصليبية الأولى كانت أكثر تعقيدا ، ويذكر السير هاملتون جب فى مقدمة النسخة الانجليزية لما كتبه ابن القلانسى عن تاريخ دمشق خلال الحروب الصليبية وقد طبعت فى لندن عام ١٩٣٢ (صفحة ١٤ وما بعدها) ست قوى متميزة

الأحداث نزول أقدام الصليبيين الأوائل فى الشرق ونجحوا فى انشاء مملكة أورشليم اللاتينية خلال عام ١٠٩٩ ·

بهذا بدأ حل الفرنجة للمشكلة الشرقية فى العصور الوسطى · ولما كان حظ المسلمين يومئذ متخلفا وكانوا فى حالة جزر وانحسار شديد ، فقد أصبحوا فريسة سهلة لغزاة الأرض المقدسة الجدد ·



= كانت تعمل فى الصراع السورى : (١) الامبراطورية الفاطمية (٢) القبائل العربية المحلية والأمراء العرب (٣) الأمراء السلاجقة (٤) أمراء الجيش التركى (٥) القبائل التركية المستقلة أو من غير السلاجقة (٦) السكان الأصليون فكان لكل من هذه القوى عملها واهتماماتها الخاصة · أما بالنسبة للصليبيين فكان هؤلاء جميعا فى نظرهم شرقيين ·

الفصل الثانى

حل الفرنجة للمسألة الشرقية

مفاهيم قديمة وأفكار جديدة

خضعت الكتابة التاريخية فى موضوع الحروب الصليبية بانتظام بطىء للسلسلة من التغييرات الأساسية خلال الربع الثانى من القرن الحالى ٠ وقد ألقت بعض المؤلفات الحديثة الضوء على وجهة نظر جديدة لبعض المراحل الأساسية للحروب الصليبية وأهمها مشكلة الترتيب التاريخى للحوادث فى عصر الصليبية ٠ فهناك مدرستان للفكر فيما يتعلق ببداية عصر الصليبية ونهايته ٠ وقد أوضح الباب السابق أن عام ١٠٩٥ لم يكن الا نقطة بالغة الأهمية فى ابراز حركة تمتد جذورها فى التاريخ الى ما هو أعمق من خطاب البابا « أيربان الثانى » ٠ والحقيقة أن الدور البارز الذى قام به « جروسيه Grousset » والذى صاغه فى المقال الافتتاحى لبحثه الهام فى موضوع الصليبية انما يهدف الى ارجاع بداية الحرب الصليبية الى ما قبل العصر الاسلامى وليس الى البداية التقليدية ٠ وعلى كل حال فيجب أن نلاحظ أن « جروسيه » قد حذا حذو أعظم مؤرخى القرن الثانى عشر فيما يتعلق بالمملكة اللاتينية فى أورشليم ذلك هو رئيس الأساقفة « وليم الصورى » الذى بدأ سجله التاريخى بموضوع « تاريخ الامبراطور هرقل » ٠ وخلاصة القول ان ابتكار « جروسيه » يظهر فى احياء نظرية قديمة جدا غابت عن فطنة الكتاب اللاحقين ٠ ويبـدأ رونسيمان كتابه الحديث بموضوع « كراهية الدمار » الذى حلت بالمسيحية الشرقية عند

قيام الاسـلام وامتداد امبراطورية العرب فوق الأرض المقدسة وفى غيرها من البلاد ٠ ويظهر أسلوب هذا التفكير نفسه فى مرجعه وكتابه الشامل « تاريخ الحروب الصليبية » ٠ ولا يمكن اعتبار الحروب الصليبية الا احدى المراحل فى العلاقات المستمرة بين الشرق والغرب ٠

ان نهاية الحرب الصليبية ـ بحسب مدرسة الفكر القديمة والنظرة التاريخية الغالبة ـ قد مرت بعيدا عن عكا فى عام ١٢٩١ وتبدو نهاية الحكم اللاتينى فى آسيا تاريخا مناسبا لختام قصة هذه الحركة ٠ ومع هذا يبدو واضحا أن الحروب الصليبية مضت بقوة حتى نهاية القرن الرابع عشر على الأقل ٠

وفيما بين ١٠٩٥ و ١٢٩١ نما اتجاه جديد للتهوين من قيمة اطلاق أرقام محددة للتعرف على الحملات المتتالية ، بحجة أن اطلاق الأرقام على الحروب الصليبية انما هو اعتراف بأن كل حملة كانت كيانا منفصلا مستقلا لا جزءا متداخلا فى حركة متصلة ، مما قد يشوه الحقيقة ٠ وبصرف النظر عن الحرب الصليبية الأولى التى انتهت بقيام مملكة أورشليم فان الرأى المؤيد لترقيم الحركات الحربية قد بدأ يفقد أهميته ٠ وأكثر من هذا أن اجراء مضاهاة بين المعارك الصليبية فى القرن الرابع عشر ووضعها جنبا الى جنب يبين أن المضى فى استعمال طريقة الأرقام أصبح لا مغزى له ٠

ومن جهة أخرى يبدو أنه من الضرورى قبول الأرقام فيما يختص بالحروب الصليبية الثانية والثالثة والرابعة التى عرفت منذ زمن بعيد بأن لكل منها كيانا قائما بذاته ، وتبدو هذه النظرة أكثر ملائمة ، فقد فات الوقت الذى يصلح لتغيير هذه النظرة ٠ أما بقية الحملات فواجب أن تستمد أسماءها من صفاتها المميزة أو من أسماء محركيها ومموليها ٠

ثم ان أية دراسة شـاملة لنتائج الحروب الصليبية يجب أن تؤدى حتما الى بحث الظاهرة التى أهملت سابقا الا وهى الحركات المناهضـة للحروب الصليبية وبالتحديد : الاسـلام وما جرى من تحركات آتيـة من الشرق معادية للتحركات الآتية من الغرب ٠ وسوف نعرض أهمية هذا الاتجاه لأنه أدى الى بعث الامبراطورية الاسلامية ، وذلك مما يعتبر من أهم نتائج الحروب الصليبية ٠

لقد كان الاهتمام باللغة العربية والأمور الشرقية من الملامح الرئيسية فى تاريخ الحروب الصليبية فى عصرنا الحالى . وبالرغم من أنه قد تم انجاز الكثير فى هذا المجال فان الكثير ما زال باقيا . وقبل تقديم الوثائق التاريخية اللازمة يستحيل تقييم مركز الحروب الصليبية فى سجل غير متوازن فى مصادره الشرقية والغربية . ومع هذا فان الوصول الى المصادر العربية القائمة مازال جزئيا . ومن سوء الحظ أن مؤرخى الحروب الصليبية البارزين لم يكونوا عربا ولا مستشرقين . فاذا أخذنا هذا فى الاعتبار كنا فى غنى عن أن نحاول اثبات أن تاريخ الحرب الصليبية لم يصل بعد الى مرحلة المراهقة .

وحتى يمكن أن نشرح بالتفصيل التاريخ العام للحركة التى قامت فيما بين ١٠٩٥ ، ١٢٩١ باعتبارها حلا من الفرنجة لمشكلة الشرق فى العصور الوسطى يعد من الضرورى اتباع طريقة التحليل لكى تظهر النقاط البارزة لكى تقتصر فى عرض التفاصيل التى عولجت من قبل فى الأبحاث العادية . فطريقة « جروسيه » فى التبويب ما زالت أكثر الطرق المقبولة اذ أنها تعكس بوضوح منطقى الصورة الحقيقية للحوادث التى حاول أن يصورها بأسلوب بسيط يتدفق حماسة . وبحسب طريقة «جروسيه» هناك ثلاث مراحل واضحة فى تطور العلاقات بين المسيحيين الغربيين والمسلمين الشرقيين فى الأراضى الآسيوية فى المنطقة التى ندرسها .

١ ـ المرحلة الأولى : اضطراب الحكم الاسلامى واستقرار حكم الفرنجة .

٢ ـ المرحلة الثانية : استقرار حكم الفرنجة والحكم الاسلامى : مرحلة التوازن .

٣ ـ المرحلة الثالثة : استقرار الحكم الاسلامى واضطراب حكم الفرنجة .

ولنعرض هنا تحليلا مختصرا لكل من هذه المراحل الثلاث .

المرحـــلة الاولى

(الصليبية حتى عام ١٢٩١)

هذه المرحلة هى عصر الحرب الصليبية الأولى وتعرف أيضا باسم حرب البارونات أو الأمراء الصليبيين • وتشمل فترة مـا بين قيام الولايات اللاتينية في الأرض المقدسة حتى موت « بالدوين الثانى » (*) عام١١٣١ •

وقد سبقت حرب الفلاحين الصليبية الأولى • وكانت حرب الفلاحين مقدمة غير مشرفة للحرب المقدسة التى أكدت تعقيد شخصية « بطرس الناسك » ؛ وكان مساعده الأساسى فارس فقير اسمه « والتر المفلس » وقاد هذا جماعة غير متكافئة من اثنى عشر الفا بدافع الايمان والجوع • وقاد كاهن المانى اسمه جوتشالك Gottschalk جماعات مماثلة من فرانكونيا ، وصوابيا ، ولوثرنجيا وخرج جميع شباب القرى ليشتركوا فى معركة الصليب ولم يكن معهم من الأسلحة سوى العصى والسكاكين والسيوف الخشبية ، وكانوا ينوقعون حدوث المعجزات والنصر على الكفار بعون من الملائكة • وقد قاد كل من وليم فيكونت ميلون ، كونت اميخ من اقليم الرين ، وفولكلمار فى المانيا صفوفا من المجندين من أجل الحرب المقدســة • وبعد أن الحقوا الأذى الشائن بيهود اواسط أوربا توغلوا متقدمين بمحاذاة نهر الدانوب حيث قاسوا الكثير ، كما سببوا المآسى فى المجر وبلغاريا • وأخيرا نزلوا على القسطنطينية كسحابة من الجراد ، وكان هذا بعيدا عما طلبه الكسيوس فى رجائه • ولم يكن لدى الامبراطور. البيزنطى الذى هاله الأمر أن يختار بين أمرين بل كان عليه أن يذعن فى سكون لمشيئتهم بنقلهم الى الأناضول ، حيث قتلتهم السيوف التركية

(*) يطلق عليه ابن منقذ اسم بغدوين البرونسى مفرقا هذا عن بالدوين الثالث (بغدوين) •

فى نيقية فى أغسطس عام ١٠٩٦ • أما القلائل الذين استطاعوا أن ينجوا بحياتهم فقد أخذوا أسرى الى الشرق ، ولم يستطع الهرب الى شواطىء اوربا الا قليل منهم بينهم « بطرس » ووقفوا ينتظرون الجيش الاقطاعى القادم •

وفى هذه الأثناء جهزت أربعة جيوش منظمة لتسلك الطريق القديم الى القسطنطينية من أجل الحرب الصليبية الرسمية ، وكان يسير فى مقدمة الصفوف جيش قوى من اللوثرنجيين وأهالى اقليم الرين بقيادة جودفرى دى بوابن وأخيه بالديون • ووصلوا عبر المجر والبلقان الى أسوار العاصمة البيزنطية فى ٢٣ ديسمبر عام ١٠٩٦ ، واتبعوا طريق شارل العظيم الذى قيل ان أول امبراطور رومانى مقدس سلكه ليحارب العصاة والمتمردين ، وهذه بلا شك أسطورة انتشرت لتثير حماس الصليبيين فى حروبهم المقدسة • وقد قدر أنا كومنينا Anna Comnena عدد هذا الجيش بنحو عشرة آلاف من الفرسان وسبعين ألفا من المشاة ، بالاضافة الى جماعة كبيرة من التابعين للمعسكر • وفى هذه الأثناء عبر هج فيرماندوا شقيق « فيليب الأول » ملك فرنسا بمصاحبة جماعة الفرنج النورمانديين جبال الالب وايطاليا وبحر الادرياتيى الحافل بالعواصف ، فتحطمت سفينته قرب درازو Durazzo وساعدته قوات بيزنطية وأخذ الى القسطنطينية وتبعه روبرت كيرتهوز دوق نورمانديا وستيفن كونت بلوا وتشارتر ، وأخيرا روبرت من الفلاندرز • أما النورمنديون من جنوب ايطاليا وكان عددهم عشرة آلاف فارس وعشرين ألفا من المشاة المحاربين تحت قياده بوهمند ابن روبرت جويسكارد وتانكرد [دنكرى] ابن أخيه فقد استولوا على الشاطىء الشرقى للادرياتيك جنوب درازو ، ثم تقدموا ولحقوا بالآخرين فى نوفمبر عام ١٠٩٦ ، وتحت قيادة روبرت سانت جل كونت تولوز وبصحبة أدهيمار Adhémar المندوب الدينى للبابا عبروا جبال الألب وشمال ايطاليا حتى شواطىء الادرياتيك ، حيث قاسوا الكثير الى أن وصلوا درازو • واتبعوا الطريق العادى عبر اغناطيا عن طريق شبه جزيرة البلقان الى القسطنطينية عبر سالونيك • وقد تم التنظيم النهائى فى مايو عام ١٠٩٧ وأعلى تقدير لعدد أفراد هذا الجيش يقدمه فولتشر اذ قدره بستين ألفا • وأقل تقدير يقدمه رايموند من اجويلر هو عشرة آلاف ،

وهذا يقرب من عدد كل الجيش البيزنطي · وحتى اذا اتسمت العصور الوسطى بالمبالغة فان الحد الأدنى للعدد قد تسبب بلا شك في مشكلة ضخمة للامبراطور من حيث تموين الجيش وتنظيمه ونقله الى الأناضول · وتمت الترتيبات لنقل الصليبيين الى آسيا الصغرى بدون تأخير بعد قبول الاتفاق على تطبيق حكم القانون الدولي فيما يختص بموقف أصحاب النفوذ الاقطاعيين الغربيين وجها لوجه من الامبراطورية الرومانية الشرقية. وقد تمت استمالتهم الى أن يقسموا على الولاء للامبراطور وأن يدينوا له بالطاعة والوفاء في شأن انتصاراتهم المقبلة ، ولكن لم يكن في نيتهم الوفاء بقسمهم هذا ، على الأقل فيما يختص بالأماكن المقدسة · وقد بدأت المعركة بالاستيلاء على نيقية فأسلموها لحرس الامبراطورية في ١٩ يونيو عام ١٠٩٧ · ثم تغيرت خطط الجيوش الرئيسية التركية بقيادة « قيلج أرسلان » في دوريليم Dorylaeum في أيام الصيف الحارة في شهر يوليو عام ١٠٩٧ فكان هذا التغير سببا في فتح طريق الأناضول الى سوريا وبدأ بعض القادة يأملون حكم امارات خاصة بهم مستقبلا ، وقد بدأ الاحتكاك بينهم واضحا في السباق بين تانكرد وبالدوين للاستيلاء على طوروس ارمينيا في سبتمبر ، وقد أحبط بالدوين محاولات قائده وذلك بزواجه من أميرة أرمنية وتولى عرش الرها بعد اغتيال الملك ثوروس Thoros في أثناء احدى الثورات الداخلية ·

حينما وجد الصليبيون أنفسهم داخل الحدود الشمالية لسوريا أصروا على الاستيلاء على أنطاكية تلك المدينة الجميلة المحصنة ، « مدينة الله » على نهر الكلب Orontes حيث أطلق على أتباع المسيح اسم «مسيحيين» أول مرة في التاريخ · وطمع بوهموند في الاستيلاء عليها لنفسه · وبعد حصار مضن طويل خلال ثمانية شهور سقطت المدينة في أيديهم في ٣ يونيو عام ١٠٩٨ أى قبل أربعة أيام فقط من وصول كربوغا الحاكم التركي للموصل على رأس جيش قوى لانقاذها ، وكان ذلك بعد سقوط نيقية بسنة واحدة تقريبا · أما روح الجيش المعنوية التى تسببت الحرارة والجوع في اضعافها فقد أنعشتها معجزة اكتشاف الرمح المقدس الذى طعن به أحد الجنود الرومان جنب المسيح في أثناء تعذيبه فوق الصليب ، وقد وجد في احدى كنائس أنطاكية · ولهذا استطاع الجيش أن يرد جيوش كربوغا

القريبة وأن ينتصر عليها ، وبقى بوهمند على حين ضيق الآخرون الحصار على أورشليم بطرق متعددة سنة أخرى • أما رايموند الذى كان يتمنى الاستيلاء على أنطاكية لنفسه وأبعده عنها بوهمند فقد احتل مقاطعة طرابلس على سبيل التعويض •

وأخيرا لمح الباقون من الصليبيين قباب المدينة المقدسة وقلاعها فى الأيام الأولى لشهر يونيو عام ١٠٩٩ • وفى اليوم السابع من الشهر استطاعوا أن يتموا عمليات الحصار بأكملها ؛ وبدأوا فى تشييد قلعة خشبية هائلة لها جسر متحرك استعدادا لتدمير الجدران • وقاموا بعمل السلم المتحرك والمنجنيق والعجلات وجميع العدد والآلات واستخدموها فى هجومهم اليومى المتتالى على تحصينات المدينة • وكان الخليفة الفاطمى المصرى قد استرد القدس حديثا من أيدى الأتراك وترك لحراستها محاربين أكفاء • وبالرغم من الدفاع الباسل عن المدينة بدا واضحا أن سقوطها كان يرجع الى عامل الزمن وحده ، أما وصول التعزيزات المسيحية من رجال ومواد من سفن جنوه الحربية فى يافا فقد قرر مصير المسلمين • وفى يوم ١٥ يوليو بدأ المسيحيون فى التدفق فوق الجدران من الجسر المتحرك وفى مقدمتهم دائما الدوق جودفرى • ويقول المؤرخون لهذا الحادث أن الاستيلاء على المدينة تم فى الساعة التاسعة وهى ساعة تعذيب المسيح يوم الجمعة ـ وقد نزل بعضهم بسرعة وفتحوا أبواب المدينة ليدخلها الآخرون • أما بقية القصة فهى حرب تقوم على التخريب المنظم والمذابح الوحشية • وقال مؤلف الـ « جستا فرانكورم » (وهو مجهول) •• وكان شاهد عيان لهذا الهجوم المرعب : « لقد سار رجالنا وأخذوا يقتلون ويذبحون الى أن وصلوا الى هيكل سليمان حيث كانت المذابح من الفظاعة بحيث أغرقت الدماء أقدامهم » •

ويسمى رئيس الأساقفة « وليم الصورى » الاستيلاء على المدينة المقدسة باسم (نهاية الحج) ويقول : لم تكن فيها وحدها مناظر الجثث بلا رءوس والأطراف المتناثرة فى جميع الاتجاهات والتى أثارت الانزعاج فى نفوس كل من نظر اليها ، بل كان مما يثير الرعب الفظيع النظر الى المنتصرين أنفسهم وهم غارقون فى الدماء من قمة الرأس الى أخمص القدم ؛ وتمضى الصورة الحية التى صورها رئيس الأساقفة فى القرن الثانى عشر

على هذا المنوال : « لقد أعلن كل مهاجم أن المنزل الذى دخله قد أصبح ملكا له بكل ما يحويه • ذلك لأنه قبل الاستيلاء على المدينة كان الحجاج قد اتفقوا على أنه بعد الاستيلاء على المدينة بالقوة يصبح من حق أى رجل ان يمتلك ما يستطيع الفوز به مدى الحياة دون أن يتعرض حقه فى هذا الامتلاك لأى نوع من المعارضة • ونتيجة لهذا وصل الحجاج الى المدينة بكل حذر ، وقتلوا مواطنيها بكل جرأة ، وتوغلوا فى الأماكن المهجورة والأماكن البعيدة وفتحوا بالقوة المساكن الخاصة للأعداء • وعلى مدخل كل منزل كان يعلق المنتصر المستولى على هذا المنزل درعه وأسلحته انذارا لجميع المقتربين منه ألا يقفوا أمام هذا المنزل ، فقد سبقت حيازته » •

ويبدو أن هذا كان أصلا من أصول استعمال الدروع الحربية لتحقيق الشخصية ، وقد أصبحت هذه العادة أكثر شيوعا بين الصليبيين فيما بعد تشبها بما كان يرسمه المسلمون فوق دروعهم من سمات • ولما هدأت المدينة وسكنت الاضطرابات وضع الحجاج المتعطشون للدماء المخضبون بها أسلحتهم جانبا وتقدموا للصلاة فى كنيسة القبر المقدس وكلهم تنهدات دامعة وعواطف قلبية جياشة •

وهكذا أعلنت مملكة أورشليم وكان حارسها الأول جودفرى دى بوايون الذى قبل ذلك اللقب المتواضع « المدافع عن القبر المقدس » وكان الواجب الرئيسى لهذا الحارس هو تأمين سلامة هذا النصر • وقد أدى دوره هذا بهزيمة أول جيش مصرى وصل من القاهرة الى عسقلان فى الشهر التالى •

ومن الواضح أن المنتصرين فى هذا اليوم قد عادوا من المعركة الى أورشليم محملين بالغنائم الهائلة التى نهبوها • وحينما أدرك الأمراء المسلمون فى المدن الساحلية التى لم تحتل بعد أن خططهم قد أخفقت بدأوا يرسلون الجزية من الذهب لجودفرى ، وأهدوا اليه خيولا محملة بالمؤن والفواكه • وقد قبلت مظاهر السلام هذه لأنها عوامل استقرار لمركز المنتصرين والمنهزمين على حد سواء ، فقد قدر عليهم أن يعيشوا معا سنين مقبلة •

وأخيرا توفى جودفرى فى ١٨ يوليو عـام ١١٠٠ وخلفه بالدوين البولونى باعتباره أول ملك منتخب لهذه الولاية الصغيرة الجديدة ، وتوج فى القبر المقدس فى ٢٥ ديسمبر عام ١١٠٠ ، واذا نظرنا نظرة شاملة على بداية هذا الحكم الاقطاعى تبين أنه كان يتكون من مرحلتين عامتين فى فترتين متتاليتين : مرحلة المملكة الأولى فى القرن الثانى عشر ، وهى التى كان حكامها بالرغم من أنهم منتخبون يرغبون فى السيطرة على النبلاء ، ومرحلة المملكة الثانية فى القرن الثالث عشر ، وقد صارت وراثية ولكن يحكمها الاقطاع • وفى كلتا الحالتين كانت الكلمة الأولى للكنيسة ، وكان رأى البطريرك اللاتينى لأورشليم حاسما • وكانت المملكة تتكون أساسا من أربع امارات شبه مستقلة وهى أورشليم وانطاكية والرها وطرابلس • وهذه قسمت الى بارونيات (*) واقطاعيات على حين كانت السلطة الحقة للمدن الساحلية مركزة الى حد كبير فى المدن التجارية البحرية العظيمة وهى البندقية وجنوا وبيزا •

وقد ظهرت الكنيسة اللاتينية أيضـا وكان لها اثنان من البطاركة فى أورشـليم وفى أنطاكية وثمانية كراسى لمطارنة وستة عشر كرسيا لأساقفة ، بالاضافة الى عدد كبير من الرهبان • وقد بدأ الأمر أولا كما لو أن أنطاكية ذات الشهرة القديمة ، عاصمة الشرق من أيام السلوقيين حتى الفترة البيزنطية ، سوف تسـتعيد شهرتها الواسعة التى كانت قد فقدتها منذ هجوم العرب ، وأنها سوف تصبح عاصمة جديدة لمملكة مسيحية أخرى • وبذل بوهمند المستحيل من أجل تحقيق هذا المشروع الطموح • ولكن الغلبة كانت لأورشليم وصارت روما الشرق بما فيها من « القبر المقدس » وفات بوهمند فرصة اكتساب الطابع الملكى السامى بالرغم من أن الكنيسة قد دعت مطالبه وفضلتها على مطالب بالدوين • ويبدو أن داجوبرت رئيس كنيسة أورشليم قد تمنى لنفسه نوعا من البابوية القيصرية حيث يكون العرش البطريركي ـ لا السلطة المؤقتة ـ مركزا عظيما لحكم الكهنة فى الأرض المقدسة وهذا يفسر الصراع الشديد

(*) البارونية ـ فى العصور الوسطى ـ تعنى اقطـاعية تؤجر من الملك أو لورد أو نبيل •

بين الكنيسة والحكومة في أورشليم خلال سنى التطور في القرن الأول لقيام ذلك الحكم .

وفى كثير من الكتب والمراجع المتداولة بيان تفصيلى للتاريخ السياسى الداخلى لهذا التنظيم الجديد ، وكذلك لعمليات الاستطلاع العسكرية المهمة ، وامتداد حدود السلطة . ودون أن نذكر هذا كله هنا يجدر بنا أن نحاول فحص عوامل القوة وعوامل الضعف فى الحكومة الجديدة ، فقد يساعد هذا على فهم النقاط البارزة فى الحروب الصليبية . انتهت - بانتصار الصليبيين - الحرب الصليبية الأولى وترك عبء المحافظة على هذا النصر على أكتاف الملك الجديد ومن بقى معه فى البلاط الملكى . وفى الحقيقة أن الاستيلاء على الأرض المقدسة كان ما يزال مقصورا على مدن قليلة هامة وقطاع من الأراضى الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط على حين بقيت الأراضى الداخلية فى سوريا الكبرى فى أيدى المسلمين . ولم تدخل المدن الرئيسية وهى حلب ، ودمشق ، وحمص ، وحماة على أيدى اللاتينيين فى مملكتهم على الاطلاق .

وفى الداخل ظهرت بذور الخلافات فى الأقسام الاقطاعية فى المملكة التى لم تستطع أن تحكم نفسها بنفسها ، واستقر المسيحيون باعتبارهم أجانب على حدود المسلمين المعادين لهم . وقد وفى الحجاج الصليبيون بقسمهم ورجعوا الى بلادهم فى أوربا على حين بقى الأعداء المهزومون على أهبة الاستعداد لتحين جميع الفرص لاسترجاع الأملاك الضائعة . وفى سنة ١١٠٠ اعتقل جماعة تركمان وانشماند من سيواس بوهمند ولم يطلق سراحه الا فى عام ١١٠٣ . وفى السنة التالية (١١٠٤) اعتقل العدو بالدوين دى بورج الذى اعتلى العرش فيما بعد ومعه جوسلين من كورتنارى ، وهما يحاربان فى مقاطعة حران Harran وأطلق سراحهما فى سنة ١١٠٨ بعد أداء جزية كبيرة ، واستمر موقف المسيحيين فى الشرق دقيقا للغاية .

وبالاضافة الى الحصار الدائم من الخارج والمناهضة المستمرة من الداخل أعلن الامبراطور اليكسيوس أن كلا من انطاكية والرها من

الممتلكات البيزنطية بحسب الاتفاقية الأولى مع الصليبيين فى القسطنطينية . وهكذا نتج عن العداء البيزنطى المتزايد ضد الصليبيين هجوم بوهمند الفاشل على درازو عام ١١٠٨ .

ومن جهة أخرى خلد حكم بالدوين الأول (١١٠٠ – ١١١٨) لأسباب عملت على تقوية بناء المملكة الوليدة النامية . فلقد كان بعيد النظر ذا مقدرة جبارة . وقد حارب سياسة الكنيسة الحاكمة التى كانت تتمثل بقوة فى توسكان بطريرك أورشليم الذى تم خلعه فيما بعد . وسار الى خليج العقبة واستولى من المصريين على ميناء أيله على البحر الأحمر . وهكذا قسم العالم العربى قسمين أحدهما فى افريقيا والآخر فى آسيا ، ولأنه لم يستطع الحصول على تعزيزات من الجنود من ناحية الغرب بدأ سياسة تحسين العلاقات مع المسيحيين الشرقيين وخاصة المارونيين والأرمن الذين شجعوا تدريجيا على طاعة الرومان . أما اللاتينيون الذين بدأ استشراقهم فقد بدأوا يختلطون بالأهالى ويتزوجون من المسيحيين الشرقيين وأحيانا من المسلمات اللاتى اعتنقن المسيحية . وكذلك انجبوا جيلا جديدا يسمى Pullani (*) وقد سلك بالدوين نقوده وعليها الكتابة باللغة العربية حتى يسهل المعاملة التجارية مع المسلمين ، كما شجع تجار البندقية وجنوا وبيزا على الاستفادة من امكانيات التجارة على سواحله لكى تظفر المملكة بموارد جديدة من الدخل .

وبدأ كل من بالدوين الأول وخلفائه سياسة بناء القلاع القوية فوق أماكن حصينة . ومن هناك استطاع الفرنجة أن يحكموا البلاد حكما قويا . وكان لهذا أهمية استراتيجية عظيمة . ويعد حصن الشوبك Kark de Monréale الذى بناه بالدوين فى عام ١١١٥ جنوبى شرق البحر الميت مثلا رائعا من القلاع العديدة التى بناها الصليبيون فيما بعد للاغراض الدفاعية وكذلك للأغراض الهجومية . وكانت الشوبك تقع فى منتصف المسافة بين أورشليم ورأس خليج العقبة ، مشرفة على طرق

(*) التعريف اللاتينى لانتاج التزاوج المختلط بين الأوربيين والشرقيين فى عهد الحروب الصليبية بالشام (المترجم) .

القوافل بين القاهرة ودمشق وبين دمشق ومكة : وبذلك ساعدت قائد القلعة على فرض رسوم عالية على المسلمين المارين هناك ، سواء كانوا تجارا أو حجاجا • ويعد حصن الاكراد Kark de Chevaliers كذلك من أكبر القلاع وأشهرها ، ويقع على حافة الجبل التى تطل على ممرات القوافل الواقعة فى الشمال بين حمص وحماه من جهة وبين طرابلس وطرطوس من جهة أخرى • وبالرغم من أن « فرسان القديس يوحنا » كانوا يحتلونها فان أساسها لم يرس الا بعد الحرب الصليبية الأولى بقليل على موقع قوى لقلعة عربية أو بيزنطية قديمة • أما القلعة الثالثة بين قلاع القرن الثانى عشر العظيمة فهى التى يطلق عليها باللغة العربية اسم كرك وقد شيدت شرقى البحر الميت فى صحراء موآب وفيها استقر رجينالد دى شاتيون Reginald of Châtillon • وقد استثارت عصاباته المتلصصة التى كانت تغير على قوافل دمشق ومكه والقاهرة ، غضب صلاح الدين وكراهيته ، فوجه الى هذه القلعة أكثر هجماته على القلاع ، وكانت أول قلعة وقعت فى يده وذلك فى عام ١١١٨ • والمعروف أن هذه القلاع التى مازالت بقاياها قائمة كانت أبنية ضخمة تحيط بها جدران محصنة مزدوجة ، وكانت لها أبهاء عظيمة وكنائس صغيرة للصلاة ، وتكنات ومخازن واسطبلات وأحواض للمياه • وكانت بعض أجزاء هذه القلاع تنحت فى صخرة صلبة محوطة بقناة مملوءة بالماء بين الجدارين المشيدين حول القلعة • وكانت المياه الغزيرة تأتيها من الينابيع المجاورة وكان يقيم فى هذه القلاع فرسان المنطقة وكبار الاقطاعيين وقلما كان يقيم فيها الملوك •

ولقد استمدت المملكة اللاتينية قوة أكبر من خلق منظمات دينية عسكرية مؤلفة من كهنة عسكريين يجمعون بين الدين ومحاربة أعداء الصليب • وكانت أولى هذه المنظمات هى منظمة «الداوية» Templars التى كونها فارس فرنسى اسمه هيو دى باينس Hugh de Payens وبعض رفاقه الذين أصروا عام ١١١٩ على تكوين قوة خاصة لحماية الحجاج والدفاع عن الأرض المقدسة • وقد منحهم بالدوين الثانى مكانا للاقامة على مقربة من « هيكل سليمان » ، فسموه باسمه ، وخطط حكمهم القديس برنارد من كليرفو على غرار طريقة الرهبنة البندكتينية يميزه التعبد

الكثير ، ومنحهم البابا هونوريوس التالت الضمان في عام ١١٢٨ .
وكانوا يرتدون الملابس البيضاء وعليها الصليب الأحمر .

أما العامل الثاني العظيم الذى قام بدور آخر في الحفاظ على المملكة اللاتينية وعلى أسباب الحروب الصليبية فقد كان دور الفرسان البيض (أو فرسان القديس يوحنا) ويرجع أصلهم البعيد الى عام ١٠٤٨ قبل الحروب الصليبية ، حينما كان حاكم أورشليم المسلم يسمح لتجار أملفى Amalfi ببناء مستشفى للحجاج المسيحيين ، وبعد الحرب الصليبيةالأولى قام بعض أعضاء ذلك المستشفى فعلا بالعناية بالمرضى وتضميد جروح المحاربين . وفي نحو عام١١٢٠أصر رايموند دى بى Raymond du Puy وصحبه العاملون معه فى المستشفى على أن يطلقوا على أنفسهم اسم فرسان مستشفى سان جون (القديس يوحنا) فى أورشليم تحدوهم الفضيلة والاحسان ومساعدة المرضى والوقوف فى سبيل الدفاع عن الأرض المقدسة . وكانت قلاعهم الأساسية طوال هذه الفترة فى قلعة الفرسان المشهورة ، وكانوا يرتدون الملابس السوداء وعليها الصليب الأبيض . وقد استمر ظهور مذاهب عسكرية مماثلة للمذهب السابق ذكره ، وربما كان النظام التيوتونى أشهرها جميعا . وكان المفروض على الأعضاء المنتمين لهذه المنظمات أن يكونوا أحرارا وأن تكون لهم شخصية متزنة . وبمرور الوقت بدأوا ينحرفون عن مبادىء حكمهم الأصلى وخاصة الداوية ، وقد أصبح هؤلاء من أغنى المشتغلين بأعمال المصارف فى أوربا الى أن قامت الملكية الفرنسية بالقضاء عليهم بعد أن كانت مدينة لهم بالكثير . ونفذ القضاء عليهم على أثر اجتماع مجمع فينا الدينى سنة ١٣١٢ .

وقد أفسد الداوية والفرسان خدماتهم الجليلة التى أدوها من قبل للمملكة اللاتينية فى أورشليم ، وذلك بفروسيتهم المستمرة لا لمجرد الحصول على الحقوق واستثمار الأموال بل فى محيط الحرب الخطر أيضا. ومن المعروف عنهم أنهم كانوا يتحالفون مع الأمراء المسلمين بين آن وآن، بعضهم ضد بعض . وكل من اطرافهم فى قوة كبيرة وغنى عريض .

وكانوا يمتلكون الأديار فى أوربا وفى جميع أرجاء العالم اللاتينى تقريبا وكانوا يتبعون قانونا صارما ويذعنون للبيروقراطية التى تنتهج منهجا واسعا فى الجاسوسية ، ولم يدينوا بالطاعة الا لبابا روما مباشرة ، وتبعا لهذا استطاعوا أن يتخذوا السلطات المركزية دينية أو دنيوية حتى فى الأمور ذات الطابع العسكرى . ومن الطريف أن نعرف أن فكرة الصليبيين لم تهدأ فى أوربا فيما بين الحربين الصليبيتين الأولى والثانية . ولم يقف اندفاع المحاربين المقدسين ، وان لم يكن هذا على نطاق عالمى . وقد سجل التاريخ حملتين مما نستطيع وصفه بأنه حروب صليبية بسيطة فى الأرض المقدسة . سميت الأولى حرب عام ١١٠١ وأعلنها البابا باسكال الثانى (١٠٩٩ ـ ١١١٨) عند وصول الأخبار المثيرة عن سقوط أورشليم بعد موت اربان . وكان أول من استجاب للنداء الجديد أحد المعارضين القدامى لخطاب اربان عام ١٠٩٥ وهو وليم التاسع دوق اكويتين كونت بواتو Poitou ويعرف بأنه أول من مارس الانشاء الغنائى القصصى فى الفرنسية ، وكان من بين زملائه المسلحين كثيرون من الاقطاعيين مثل هيودى لوزجنان الأخ غير الشقيق لرايموند التولوزى وأحد رجال الحروب الصليبية السابقين ، وستيفن من بلوا : كل هؤلاء ثم انضم اليهم ثلاثة من الأسافقة الفرنسيين وجملة من المرتزقة من فرنسا وبرجانديا والمانيا ولمبارديا . وكانت القسطنطينية ملتقاهم المألوف وأعلنوا أهدافهم ، وهى اطلاق سراح بوهمند من الأسر واتمام أهداف الحرب الصليبية الأولى بأن يستولوا على بغداد مقر الخلافة العباسية . وقد اتبعوا نفس الطريق تقريبا الذى اتبعته الحرب الصليبية الأولى الا أن جيشهم دمر تدميرا فى مرسيفان Mersivan وهرقليا Heraclea فى آسيا الصغرى ، وذبح الكثيرون منهم وأسر بعضهم وخاصة من النساء ، ووصلت قلة منهم الى الأرض المقدسة سواء عن طريق البحر أو البر .

وكانت الحرب الصليبية النرويجية بقيادة الملك سيجورد Sigurd (١١٠٣ ـ ١١٣٠) أقل اختناقا ، فقد كان الملك يجوب البحار على الطريقة النرويجية . ومعه جماعة تبغى الوصول الى أورشليم قادمين من النرويج . وكان معه كذلك أسطول ذو خمس وخمسين سفينة قضت أربع سنوات

في السياحة في انجلترا وفي محاربة العرب المغاربة في أسبانيا وفي التآخي مع النورمانديين في صقلية ، وأخيرا عاونوا بالدوين الأول في الاستيلاء على ميناء صيدا عام ١١١٠ • وفي العام نفسه ساعد أهل جنوه الملك في الاستيلاء على بيروت • وقد خابت جهود بالدوين على كل حال في الاستيلاء على صور وكان على خلفه بالدوين الثاني دى بورج (١١١٨ـ ١١٣١) أن يحقق هذا النصر عام ١١٢٤ بمعاونة الفينيسيين [أهل البندقية] •

وكان حكم بالدوين الثاني على وجه الاجمال امتدادا لسياسة الملك السابق في تقوية مملكته • وقد ضم مقاطعته القديمة الرها الى تاج أورشليم • وفي الرها ، نصب في العالم التالي أحد أعوانه وهو جوسلين من كورتناى ، وفي عام ١١١٩ أصبح حاكم انطاكية • وقد قوى الحرب ضد الأتراك والمصريين فأتت بنتائج مختلفة ، وأدت مخاطراته الماجنة الى وقوعه أسيرا في يد الأتراك عام ١١٢٣ ولكنه أطلق سراحه في السنة التالية • وقد بزت الحسنات في حكمه السيئات بالرغم من أن ضغطه المتواصل على الحدود السورية والمصرية أدى الى امكان تحالف أعدائه المنقسمين فيما بعد ، وأيقظ الجيوش الاسلامية من نومها وخمولها • فبذرت بذور انهزام المسيحيين ، ولكنها استغرقت المرحلة التالية لكي تنمو وتثمر •

المرحـلة الثانيـة

ان الفترة المتوسطة فى حياة مملكة فلسطين لم تكن فترة توازن مستقر بين مملكة الفرنجة المتماسكة وبين حكم المسلمين القوى · وكان هذا عهد فلك الخامس (١) Fulk of Anjou (١١٣١ - ١١٤٣) وولديه بالدوين الثالث [بغدوين] (٢) (١١٤٤ - ١١٦٢) وأملرك الأول (أمورى الأول) (١١٦٢ - ١١٧٤) فى أورشليم من الجانب المسيحى ، وآل زنكى من ملوك الموصل ؛ ومنهم أتابك عماد الدين (١١٢٨ - ١١٤٦) وابنه وخليفته نور الدين (١١٤٦ - ١١٧٤) من جانب المسلمين · ويعد هذا العهد أيضاً عهد الحرب الصليبية الثانية فيما بين (١١٤٦ - ١١٤٨) ، تلك الحرب التى نتجت عن سقوط الرها (٣) · والحق أن انتصارات المسيحيين بلغت ذروتها فى نهاية حكم بالدوين الثانى · وقد نجم عن سقوط الرها فى أيدى المسلمين دورة بطيئة فى الحركة التى استمرت ضد الفرنجة فى السنوات التالية ·

وربما كانت الضربة الأولى التى قام بها فلك فى بداية حكمه هى محاولة محو الخلافات بين اللاتين والبيزنطيين · وقد اتبع خلفاؤه طريقته فى الصلح · وتزوج كل من بالدوين الثالث وأخو املرك الأول من أميرتين تنتميان الى كومنين ، على حين تزوج مانيول الأول من كومنينس (١٩٤٣ - ١١٨٠) من مارى من انطاكية ابنة رايموند ، وبالرغم من أنه من الخطأ أن نسلم بأن الكراهية والشك بين اللاتينيين واليونانيين قد اقتلعا وتلاشيا، فانه كانت هناك فترة سلمية نسبيا ، وكان هناك بعض التفاهم فى الشرق · وقد أحرز فلك نصرا آخر مع جاره المسلم أنر [معين الدين أنر] حاكم

---

(١) ابن منقذ ص ٦٥ ويسميه فلك بن فلك ·
(٢) ابن منقذ ص ٣٤ ·
(٣) كان سقوط الرها الأول عام١١٤٤ أمام عماد الدين، أما سقوطها النهائى فقد تم بعد سنتين من ذلك التاريخ فى نوفمبر عام ١١٤٦ خلال حكم نور الدين بعد اغتيال والده ·

دمشق الذى كانت سلطته مهددة بخطر الخطط التوسعية لعماد الدين زنكى حاكم الموصل • وفى السنوات (١١٣٩ ــ ١١٤٠) سعى أنر الى التحالف مع المملكة اللاتينية ضد أبناء دينه المسلمين • ونضرب سيرة أسامة بن منقذ أمثلة من الصداقة المتزايدة والتسامح الدينى بين المسيحيين المستعمرين وبين العرب من أهل سوريا فى ذلك الوقت •

ومع ذلك أثار استيلاء أسرة زنكى من الموصل على الرها رعب المسيحيين الذين أذكى فى نفوسهم برنارد من كليرفو روح الصليبية حينئذ ، وكان برنارد هذا قديسا فرنسيا فصيحا فى التعبير عن مبادئه ، وكان يحتل مكانة مرموقة فى أوربا فى عصره هذا ، وقد أعلن البابا يوجينيوس الثالث الحرب الصليبية الثانية ونادى بها سانت برنارد فى بلاط كل من فرنسا وألمانيا ، وعلى أنها باعتبارها مشروعا ملكيا كانت أقل شعبية وأقل فى صبغتها الدولية من الحرب الصليبية الأولى • وقد سار كل من ملك فرنسا لويس السابع (١١٣٧ ــ ١١٨٠) وامبراطور ألمانيا كونراد الثالث (١١٣٨ ــ ١١٥٢) على رأس سبعين ألفا من المرتزقة من كل دولة • وفى فيزلاى ، حيث كان رجال فرنسا يقيدون أسماءهم للحرب ، قيل ان القديس برنارد مزق ثوبه ليتخذ منه صلبانا للمقاتلين حينما نفذ المقدار الذى كان معدا من الصلبان • وقد كان عدد الذين تحمسوا للحرب المقدسة عظيما • واعتقد كونراد أن الحرب الصليبية يمكن الاستفادة منها فى توحيد شعبه الذى كان عندئذ منقسما بين حزبى الجولف Guelf والجبللين Ghibelline • وبينما اتخذ الجيشان الأساسيان الطريق البرى نحو القسطنطينية ، أبحر جيش أقل عددا مكون من خليط من المحاربين الفلاندرز ومن انجلترا • ونزل فى البرتغال لمحاربة المغاربة فى شبه جزيرة ايبيريا • وفى عام ١١٤٧ استولوا على لشبونة ووضعوا الأسس للمملكة البرتغالية • وتعتبر هذه نتيجة جانبية للحرب الصليبية الثانية • أما فيما يختص بالجيوش الكبيرة. فقد سادت الشكوك وعدم الثقة بين الفرنسيين والألمان الذين ساروا وبينهما مسافة معينة وقد اشترك كل منهما فى الشك المتبادل مع الأغريق • وفى آسيا الصغرى شل الأتراك حركة الغزاة وذلك باتلاف المحصولات وردم معظم ينابيع المياه وبذلك حرموا المسيحيين كل المؤن اللازمة لحياتهم اليومية • وفى المعركة الثانية فى دوريليام Dory laeum فى أكتوبر عام ١١٤٧ ارتد

الألمان المنهوكون فى غير نظام • وفى يناير عام ١١٤٨ قاسى الفرنسيون هزيمة منكرة فى كادماس Cadamus وتراجع كونراد الى القسطنطينية مريضا فاقد الأمل ، ثم سار الى ألمانيا دون مجرد القاء نظرة على الأرض المقدسة • وتمكن لويس ـ بصعوبة ـ من الوصول الى أنطاكية وقام بالحج الى القبر المقدس فى عيد الفصح عام ١١٤٩ قبل أن يبحر عائدا الى وطنه بعد كوارث الصليبية • وفى طريقه ضايقه البيزنطيون الذين كان لهم الحق فى أن يرتابوا فى شعوره وعطفه نحو أعدائهم النورمان • وفى الحقيقة نزل لويس فى كالابريا Calabria وتوج روجر ملكا على صقلية ، وبهذا برزت مملكة أخرى نتيجة للحرب الصليبية الثانية • وفى فرنسا امتدت جذور فلسفة ابلارد Abelard أكثر عمقا فى عقول القرن الثانى عشر نتيجة لفشل الصليبيين وقد استخف أتباعه بسياسة سانت لويس •

الا أن أكثر نتائج الحروب الصليبية خطرا على الصليبيين كانت فى الشرق حيث شجع انهزام المسيحيين الأمراء المسلمين الذين كانوا يحكمون الأقاليم الواقعة حول مملكة أورشليم اللاتينية ، على أن يضايقوا الدويلات الصليبية الصغيرة بغير هوادة • بالرغم من أن المسلمين فى الجبهة الجنوبية قد فقدوا عسقلان التى يطلق عليها اسم « عروس سوريا » والتى استولى عليها بالدوين الثالث فى عام ١١٥٣ فقد كان السوريون فى الشمال يشكلون أشد الأخطار على اللاتينيين • وانهار تحالف دمشق مع المسيحيين وذلك بسبب العدوان الغاشم من المسيحيين الذين كانوا يهدفون الى اقتطاع أجزاء معينة من ادارة المسلمين لأنفسهم • وفى النهاية خضعت دمشق لنور الدين فى أبريل عام ١١٥٤ وبهذا استفادت قوة وبنيانا على طول المعاقل المكشوفة لجيرانهم اللاتينيين •

وبحث الملك اللاتينى عن جبهة أخرى للتوسع المستقبل فى الجنوب ، وذلك لأن قواته لم تكن على قدم المساواة مع الأتراك فى الشمال • وكانت الخلافة الفاطمية فى أيامها الأخيرة فى طريقها الى الانحدار ، وكان الموقف فى مصر يبدو مناسبا لاحتلال آخر ، وكانت مصر غنية فى مصادرها ولكنها كانت تفتقر الى رجال أقوياء يقومون بالزعامة • وطمع كل من أملرك ونور الدين فى الظفر بهذه الفريسة الجديدة ، وأصبح هناك تنافس شديد

بين هذين الرجلين للحصول عليها ، ولذلك قاد أملرك خمس حملات على مصر فيما بين سبتمبر عام ١١٦٣ وديسمبر عام ١١٦٩ وكانت الحملة الأخيرة بمعونة عسكرية بيزنطية ولكنها لم تكن الا حركة اسمية • وفى هذه الأثناء غزا قائد جيوش نور الدين وهو شيركوه البلاد ثلاث مرات • وقد أتاحت حالة مصر الداخلية لذلك السورى فرصا ذهبية ، اذ دعاه الوزير الفاطمى شاور وكان مركزه مهدده لقيام منافس له اسمه ضرغام كان قد نال نصرا محققا فى معركة غزة عام ١١٦٣ ضد الصليبيين فأصبح معبود الجماهير • وبعد احتفاظ شاور بمركزه وقوته بدأ يضع الخطط ضد شيركوه السورى معتبرا اياه مسلما سنيا مكروها يتولى سرا وضع الخطط لانهاء الحكم الفاطمى الشيعى فى مصر • وطلب شاور المعونة من أعدائه الفرنجة وتمت معاهدة عام ١١٦٧ تنص على أن يحتفظ أملرك بقواته فى مصر حتى يلقى جيش شيركوه أو يطرد من البلاد على أن يكون لأملرك ٤٠٠ر٠٠٠ قطعة ذهبية فى هذه الأثناء يتسلم نصفها فورا •

وقد أرسل هيو حاكم قيصرية الى الخليفة للحصول على توقيع الخليفة نفسه على هذه المعاهدة • ويصف وليم الصورى ذهول هذا الرسول الرسمى حينما رأى القصر الفاطمى العظيم فى القاهرة بما فيه من فخامة وترف • ويقول وليم فى سجل التاريخ الذى كتبه ان المبعوثين قد ساروا فى ممرات ضيقة يحرسهم جنود مسلحون من الحبشة ويستطرد وليم قائلا : « لقد ساروا الى فناء كبير متسع غير مسقوف ، تنفذ اليه أشعة الشمس ، وكان هناك طرقات للنزهة على جانبيها أعمدة من الرخام يعلوها سقف به نقوش بديعة ورسوم جميلة مرصعة بالأحجار المتنوعة الملونة وكذلك أراضيها • وكانت تبدو الفخامه فى كل ما يشهدونه • وكانت المواد والمهارة البادية فى صناعتها بديعة للغاية حتى أنها كانت تلفت أنظار كل من يراها ، وتظل الأعين معلقة بها لا تمل من النظر اليها وذلك لجمالها النادر ، وكانت هناك برك للأسماك مملوءة بالمياه وطيور من جميع الأنواع التى لا نراها فى المواطن التى نعيش فيها ، وذلك لأن تلك الطيور كانت أكبر من الطيور المعروفة ، وكانت أشكالها وألوانها غريبة علينا أصواتها مختلفة عما تعودناه » •

وحينما اقترب المبعوثون من الخليفة فى داخل القصر ، أظهر الحاكم تبجيله المعتاد للخليفة ، فركع مرتين على الأرض بحسب العادة وقدم الولاء باتضاع كما لو كان يقوم بعبادة اله مقدس ، ثم انحنى مرة ثالثة ملامسا الارض ووضع عليها سيفه الذى كان يتدلى من رقبته • وحينئذ سحبت فى سرعة بالغة ستائر مطرزة ومرصعة باللآلىء والذهب كانت تحجب العرش وما فتحت تلك الستائر حتى ظهر الخليفة بوجهه المسفر على عرش من الذهب يحيط به خاصة مستشاريه وكانت هذه المظاهر أكثر من مظاهر الملك فى فخامتها » •

وبعد أن طبع الوزير قبلة بصورة ذليلة على قدم الخليفة ، شرح الوزير ظروف المعاهدة ، فصدق سيده [الخليفة] عليها ، وذلك بأن وضع كفه العارية فى يد الرسول بناء على طلب هيو مما أثار ذعر المصريين ودهشتهم •

وفى الحق ان مصر آلت مباشرة بموجب هذه المعاهدة الغريبة الى الحماية الصليبية لأول مرة فى تاريخ الحركة • وقد حاصر أملرك الاسكندرية أسلم شيركوه حكمها الى ابن أخ له شاب اسمه « صلاح الدين » ، وكان مقدرا له أن يصبح بطلا أصيلا من أبطال الاسلام • واتفق الطرفان على ترك مدينة الاسكندرية للمصريين بدلا من الدخول فى معركة مجهولة العواقب • وسار أملرك حينئذ الى القاهرة ونجح فى اقناع شيركوه بأن يترك البلاد كل منهما ـ ويقول الفرنجة كما يقول المؤرخون العرب أن أملرك قدم لشيركوه رشوة قدرها ٥٠٠٠٠ر٥٠ قطعة ذهبية ليقبل هذا الاتفاق • وقد وعد شاور بأداء جزية قدرها ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ قطعة من الذهب وسمح للملك أن يخصص سكنا لاتينيا فى القاهرة به فرقة لحراسة أبواب المدينة ، ثم غادر البلاد •

وقبل نهاية عام ١١٦٨ اعتزم أملرك خيانة العهد فنزل الى مصر مرة ثانية مصرا على الغزو والمؤكد • وفى بلبيس ، شرقى الدلتا ذبح الأهالى ومضى مسرعا خارج جدران مدينة الفسطاط جنوبى مدينة القاهرة الحديثة ، وكانت الفسطاط العاصمة العربية القديمة لمصر ودامت أكثر من ثلاثة قرون . وقررت السلطات المذهولة حينئذ احراق المدينة على حين

أسرع الرسل الى نور الدين يحثونه على انقاذ مصر وانقاذ الخلافة من ذلك الخائن • وقد استخدم عشرون ألف برميل من الزيت وعشرة آلاف من المشاعل فى احراق المدينة بعد أن هجرها أهلها مسرعين • واستمر اشتعال النيران أربعة وخمسين يوماً • وان بقايا مدينة الفسطاط الممتدة أميالا قد أمدت عالم الآثار الحديث بموقع ممتاز لأعمال الحفر والكشف تستغرق سنين طويلة • أما نور الدين فانه استجاب لهذا بأن أرسل جماعة التركمان تحت قيادة شيركوه القدير ، وفى صحبته ابن أخيه الشاب صلاح الدين • ووصلت الجماعة فى يناير عام ١١٦٩ على حين كان أملرك يواصل مباحثاته بشأن دفع الذهب من جانب شاور ، وأخيرا اضطر الملك اللاتينى للانسحاب دون أن يوجه ضربة واحدة حينما وجد نفسه فجأة مضيقا عليه بين المصريين فى المدينة من جهة والتراكمة فى المؤخرة من سوريا •

وفى هذه الأثناء رقى شيركوه الى منصب وزير وقد أتته هذه الترقية من الخليفة اقرارا له بالشكر اذ أطاح برأس شاور ، وفتح قصره على مصراعيه يغنم الشعب ما فيه • واختفى شيركوه بعد ذلك بقليل فى ظروف عنيفة (٢٣ مارس) خلفه صلاح الدين فى الحكم • أما وجه العجب فى ظهور الخليفة الشيعى مع وزير سنى فلم يعد له وجود ، وذلك لوفاة العاضد آخر الفاطميين فى ١٣ سبتمبر عام ١١٧١ وكلف خليفة بغداد العباسى السنى صلاح الدين بالقيام بسلطة الحكم فى مصر فى الحال • وبهذا انتهى الحكم الفاطمى فى مصر وعادت اليها الوحدة الدينية للعقيدة الاسلامية الأصيلة • وفى ١٥ مايو عام ١١٧٤ توفى نور الدين أيضا واستطاع صلاح الدين أن يعتلى العرش سلطانا على المنطقة كلها من الموصل الى حلب فى الشمال ومصر فى الجنوب • وبذا تمت الوحدة السياسية على جميع حدود مملكة أورشليم اللاتينية •

وكان دنو الساعة الحاسمة وشيكا • فقد توفى املرك الشجاع فى السنة التى توفى فيها نور الدين (١١ يوليو عام ١١٧٤) تاركا وراءه أخاه الأبرص العاجز بالدوين الرابع (١١٧٤ ــ ١١٨٥) على عرش أورشليم المتعثر ، ليواجه عملاقا جديدا ذا سلطان موحد على جميع حدوده • وكذلك انتهت المرحلة المتوسطة الى هذه النهاية التعسة •

المرحـلة الثالثـة

تمثل هذه المرحلة الحاسمة فترة الحكم الاسلامى ازاء فوضى الفرنجة • وفى هذه الفترة انقلب ميزان القوة ضد مملكة أورشليم • انها عهد صلاح الدين وخلفائه الأقوياء من الأيوبيين (١) والمماليك (٢) الذين أخذوا على عاتقهم مهمة القضاء على الحكم اللاتينى فى الأرض المقدسة • ويبدو أن صلاح الدين كان يمكنه التعايش مع اللاتينيين على أساس مواقفهم حتى ريثما يقوى مركزه بالتدريج فى شمال سوريا • لقد قام بعقد معاهدتين مع أعدائه عامى ١١٨٠ ، ١١٨٥ ولكن « ريجنالد دى شاتيون » لورد مونريال كان ينقض كل معاهدة من عشه فى الصحراء من كرك ، وذلك بشن الغارات واعتراض طريق التجار المصريين وقوافل الحجاج القاصدين مكة أو دمشق • وفى عام ١١٨٢ نقل مقادير كافية من الخشب على الجمال الى ميناء ايله التى احتلها على خليج العقبة ، وبنى أسطولا مكونا من خمس سفن حربية ، وأقام بعض الحرف البسيطة ، وتوجه نحو أرض المسلمين المقدسة ، وهى مكة والمدينة ، لكى يخربها ووصل الى عدن واستولى

---

(١) أسس صلاح الدين الأسرة الأيوبية (١١٦٩ ـ ١٢٥٠) والاسم الحقيقى هو : الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد حكم مصر من ١١٦٩ ـ ١١٩٣ ، وهو من أصل كردى • وقد بدأ حياته فى خدمة نور الدين زنكى • وكون الامبراطورية المكونة من مصر وسوريا والأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، وكذلك اليمن ، وكثيرا من المقاطعات الشمالية فى العراق •

(٢) السلاطين المماليك يرجعون فى أصلهم الى كونهم عبيد ، فالكلمة مملوك تعنى عبد فى حرس السلطان •

وعندما استولوا على الحكم ساروا فى نفس طريق الأيوبيين • والمماليك نوعان متميزان : ١ ـ المماليك البحرية وسموا كذلك لأنهم كانوا يسكنون جزيرة الروضة فى النيل وحكموا مصر من ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ •

٢ ـ والمماليك البرية : وسموا كذلك لأنهم كانوا يسكنون فى القلعة وحكموا مصر من ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ •

على الموانىء البحرية فى الحجاز واليمن ، ويقال انه وصل فعلا الى شواطىء الحجاز وتقدم الى مسيرة يوم من المدينة • وكانت خطته خيالية تتصف بالجنون فكانت فاقدة القيمة وكان مقدرا لها الفشل الذريع . وفى عام ١١٨٧ اعتقل رجينالد أخت السلطان نفسه من احدى القوافل المارة • وطلب صلاح الدين من الملك الجديد جاى دى لوزجنون (١١٨٦ ـ ١١٨٧) أن يوبخه أو يعاقبه ولكن جى Guy لم يستطع على الرغم من رغبته فى الاستجابة أن يفعل • وأقسم صلاح الدين أن يفصل بسيفه رأس رجينالد عن جسده •

وخلال ظهور تلك المضايقات كان المسيحيون يعانون الاضطراب ، وكان كل سيد اقطاعى يسلك سلوكا مستقلا داخل اقطاعيته • ونجم عن موت الملك بالدوين الأبرص فوضى لا يمكن حصرها للخلاف على من يخلفه ، وأخيرا حينما استولى جى دى لوزيجنون على العرش ، رفض رايموند كونت طرابلس أن يعترف به ثم تحالف مع صلاح الدين حتى تقوى مكانته ضد السيد الجديد • ولم تنته الخلافات بين جى ورايموند الا بعد انتصارات صلاح الدين عام ١١٨٧ •

وفى هذه الأثناء تخلى الغرب عن النبلاء المنقسمين ، فلم تصل اليهم تعزيزات ذات قيمة • وأدى موت مانيول كومنينس ، وكان يعطف على هؤلاء النبلاء ، الى ذبح اللاتينيين فى القسطنطينية عام ١١٨٢ ، وأدى استيلاء اندرونيكس كومنينس الأول (١١٨٣ ـ ١١٨٥) على التاج البيزنطى بالقوة الى فوضى شاملة فى الامبراطورية الضعيفة مما أدى الى تغيير مفاجىء فى السلالة المالكة . ولم يكن هناك أى أمل فى هذه اللحظة ، لا فى أوربا ولا فى بيزنطة •

وفى هذه الأثناء كان صلاح الدين يعمل على رأب الصدوع فى العالم الاسلامى ، واستطاع أن يوسع حكمه من مصر الى بلاده الأصلية القديمة فى شمال سوريا • واستسلمت له حلب عام ١١٨٣ وانضمت الموصل الى حكمه عام ١١٨٥ • أما بقية الامارات الصغيرة فى شمال غرب بلاد ما بين النهرين فقد انضمت اليه عام ١١٨٦ • وهكذا تحرر من متاعب المسلمين أبناء الدين الواحد ، وبدأ يتعامل مع المسيحيين فى هدوء •

وفي الناصرة اشتبك جيشه في معركة سافرة مع الداوية (أول مايو عام ١١٨٧) حيث ألحق بالفرسان هزيمة منكرة وضرب صلاح الدين الحصار حول مدينة طبرية الهامة وكانت هذه بداية النهاية ، لأنها أدت الى معركة حطين الحاسمة حيث دمر صلاح الدين جيوش المسيحيين تدميرا لم يكن يمكن تلافيه ٠

وكان اللاتينيون قد جمعوا جيوشهم الموحدة عند ينبوع صفورية Safouriya على بعد أميال قليلة من طبرية ، وذلك لمساعدة المدينة التي كانت محاصرة من كل جانب ، وبالرغم من الخلاف بين رايموند والملك كان عليه أن يكون في مقدمة الجيش ، لأن طبرية في نطاق مقاطعته وكانت زوجته محاصرة في قلعتها — وكان عدد الأعداء من المسيحيين يقرب من ١٠٫٠٠٠ فارس ، ١٨٫٠٠٠ من الجنود المشاة كلهم على استعداد للحرب ، ولكن يعوزهم التقدير السليم لأهمية القيادة ٠ أما صلاح الدين كان يعرف جفاف السهل الصحراوي ودخلوه من المياه وما فيه من تلال ذات براكين قديمة تعرف باسم « قرون حطين » واقعة بين المسيحيين وبين المدينة الحزينة ، فقد عمل كل ما في وسعه لجذبهم الى ذلك الموقع الحربي القاسي قبل أن يهاجمهم ، وحينما نصح رايموند قادة الجيوش أن يستمعوا لصوت الحكمة فيحجموا عن هذه الخطوة بالرغم من مصالحه ومن الخطر الذى كان يهدد زوجته ، اتهمه الملك ومستشاروه المتسرعون أمثال ريجنالدو دى شاتيون بالجبن وأمروا الجيوش بالتقدم ٠ كان هذا في الأيام الأولى من شهر يوليو بما فيها من حرارة الصيف وصحو السماء ٠ وقضى الجيش الليل في وسط الصحراء عند موقع لا يستطيعون منه العودة ٠ وما أسرع أن حاصرهم المسلمون وناوشوهم من كل جانب وذلك عن طريق الخيالة المحاربين بالقوس والسهم ٠ وصوبوا أسلحتهم الى الخيل بعد أن فصلوا الفرسان عن المشاة ٠ فنزل أولئك الفرسان عن جيادهم يقاسون من ثقل دروعهم واحتوتهم بقعة شديدة القيظ ليس فيها قطرة ماء ٠

وقد نشبت معركة حطين ، في ٤ يوليو عام ١١٨٧ تاركة من الجانب المسيحي من لم يموتوا من الرجال والجياد ، منهوكين يكادون يهلكون ظمأ

فوق رمال الصحراء المتوهجة . ولكي يزيد صلاح الدين من عذابهم لاحظ اتجاه الريح وأشعل النيران فى البرارى المجاورة ، وذلك لكى يختنقهم الدخان . وكان اللاتينيون قد اتخذوا صليب الآلام رمزا لهم فى المعركة الحاسمة . وقد أرسله بطريرك أورشليم القديم من القبر المقدس وتظاهر بالمرض حينئذ . وصودر هذا الصليب وأرسل الى بغداد ، وهكذا فقدوا ما يرمز الى أهم عقائدهم المقدسة . واستطاع قلة من الفرسان الذين أحسوا بحرج الموقف منذ البداية أمثال رايموند وباليان دى ابلين أن يحاربوا ويجدوا طريقهم الى الحرية . أما بقية الجيش ومعه الملك والمتسرع رجينالد فانهم لم يفلتوا ، وبدأ الرجالُ يلقون دروعهم صارخين متضرعين يطلبون الماء . وكان صلاح الدين قد أحرز ضربة عظيمة لموقع حربى ممتاز بحكمة عسكرية بالغة على حين بلغ المسيحيون قمة الحماقة ودفعوا الثمن من أرواحهم غاليا . وأمر السلطان أن يصلب على الفور مائتا فارس قوى من الداوية ومن فرسان القديس يوحنا . أما رأس رجينالد دى شاتيون فقد انتظرت سيف صلاح الدين نفسه تنفيذا لقسمه السابق. وعومل الملك والنبلاء العظام معاملة طيبة ، وسقوا ماء باردا يشفى غليلهم، وسمح لهم بالعودة بعد أداء جزية . ومن الباقين من قتل ، ومنهم من بيع فى أسواق الرقيق ، فزخرت بهم تلك الأسواق ، وكان من جراء ذلك هبوط أثمان الأرقاء .

وهكذا أصبح الطريق الى أورشليم مفتوحا ، ولكن صلاح الدين أراد أن يشغل كلَّ الحدود حول العاصمة حتى يكون الحصار قصيرا ، وقد سلمت طبرية فى اليوم التالى وسقطت عكا فى ٩ يوليو ، وما ان حل شهر سبتمبر حتى كان الاستيلاء قد تم على بيروت ويافا وعسقلان وصيدا وجبيل (التى كانت تسمى ببلوس Byblos أيام الفينيقيين) . وقد أسرع السلطان فى فرض الحصار على القلاع القريبة مقدرا لها أن تسلم دون ضربها اذا انتشر المسلمون على الحدود المحيطة بها . وغالبا ما كان يعرض بكل حكمة على حراس هذه المراكز المحصـــــنة حريتهم الشخصـية اذا ما تركوها لمصلحة المسلمين دون الدخول فى صراع ظاهر .

ولم يبق فى أيدى المسيحيين من الموانىء البحرية سوى صور وطرابلس

وأنطاكية حينما أصر صلاح الدين على أن يتوج انتصاراته بغزو أورشليم ·
وبعد حصار قصير دام اثنى عشر يوما سقطت المدينة المقدسة يوم ٢ اكتوبر عام ١١٨٧ وكان الاستيلاء يختلف كل الاختلاف عن منظر الهجوم القاسى فى الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٩ · فقد منع صلاح الدين غضب رجاله وثورتهم ، وجعلهم يتوقفون عن ايقاع أى أذى ، وأعطى للسكان الأثرياء مهلة أربعين يوما ليؤدوا الجزية التى فرضت عليهم ، ثم يذهبون حيث شاءوا · وقد قبل مقادير معقولة لتحرير جماعات من الفقراء كما قبل العرض النبيـــل من أخيه لمنح الحرية لألف منهم دون دفع أية جزية ، واستجاب لرجاء عدويه البارزين البطريرك اللاتينى وباليان اللذين كانا يقودان الدفاع عن المدينة بأن يطلق سراح ألف آخرين · وبناء على الرغبة النابعة من نفسه هو أطلق سراح ١٥٫٠٠٠ أسيرا · وكانت هذه لمحـة من الكرم · وفى لغة العصر الحاضر : احسانا لنفسه ، وطلبا لطمأنينة روحه · وقد حمى القبر المقدس من الحرائق المتعمدة ، وأعلن استعداده أن يسمح للحجاج المسيحيين بالدخول اليه · ويجمع المؤرخون اللاتينيون على فروسية صلاح الدين وانسانيته وشــهامته ويؤيد المؤرخون العرب حبه للناس واستقامة طريقه وعقله الملهم · وتتصل هذه الصفات الرفيعة طبعا بجهاده المتواصل ، دون تعب وكلال ، وعبقريته العسكرية · · تلك الصفات التى تكمل صورته الخالدة ·

وقد انتشر الذعر والدهشـــة فى جميع أنحاء أوربا عند سماع نبأ الكارثة التى حلت بأورشليم · وفى الحال حمل ثلاثة ملوك الصليب وبدأوا الحرب الصليبية الثالثة · وقد عبأ الامبراطور فردريك بربروسا جيشـا عظيما وسار فى الطريق البرى عام ١١٩٠ ، وبعد أن هزم السلاجقة خارج دونيه Donia وصل الى سيليسيا وأدركه الغرق لثقل دروعه وهو يعبر نهر سالف Seleph فى ١٠ يونيو عام ١١٩٠ · وتفرقت فلول جيشه قبل وصوله الى الأرض المقدسة ·

وفى هـــذه الأثناء كان البـــابا يقنع فيليب أوغسطس ملك فرنســـا وريتشارد الأول قلب الأسد بأن يدفنا خلافاتهما وأن يتعاونا فى الحرب المقدسة · وأبحر فيليب من مسينا فى ٣٠ مارس عام ١١٩١ ورسا خارج

عكا في ٢٠ أبريل ، وتبعه ريتشارد فأقلع في ١٠ أبريل ولكن سفنه ساقتها الرياح الى قبرص فغزاها واستولى عليها من أحد البيزنطيين وكان قد أخذها عنوة ، واسمه ايزاك كومنينوس ، ثم بيعت للداوية فباعوها فيما بعد للوزجنيين . وفي يونية رسا ريتشارد في عكا وسلمت المدينة في ١٢ يوليو عندما وجدت نفسها مواجهة لهجوم متحد . ثم عاد فيليب الى فرنسا بعد أن حدثت بعض المنازعات مع ريتشارد مع أنه ترك معظم قواته فى الأرض المقدسة ، وبذلك أصبح ريتشارد القائد الوحيد للحرب الصليبية التى اشتهر فيها بفروسيته وقوته . وأخيرا عقد الصلح مع صلاح الدين فى ٣ سبتمبر عام ١١٩٢ . وأصبح الشاطىء من صور الى يافا ملكا للاتينيين واشترط أن يضمن الحجاج المسيحيون سلامة طريقهم لزيارة أورشليم التى بقيت فى أيدى المسلمين .

وتوالت الأحداث فى كل من انجلترا وفرنسا مما اضطر ريتشارد أن يعود الى أوربا مع مجموعة من الحجاج فى ١٠ أكتوبر عام ١١٩٢ . بعد أن أقام طريقة طابعها التسامح الدينى المتزايد بين الحجاج الآتين من الغرب وبين الأهالى المسلمين فى الشرق الأدنى (أما قصة اعتقال ريتشارد فى وسط أوربا ثم اطلاق سراحه فهى بعيدة عن نطاق هذه الدراسة). وفى السنة التالية (١١٩٣) ذهب بطل حطين الى دمشق مريضا بالحمى رجلا متعبا منهوكا فى سن الخامسة والخمسين وتوفى فى ٤ مارس قبل أن يرى محو آخر الممتلكات اللاتينية فى فلسطين .

واستمرت فكرة الحروب الصليبية أثناء القرن التالى لأغراض مختلفة، وكان الامبراطور هنرى السادس ابن فردريك بربروسا يود أن يحقق ما لم يسمح بتحقيقه وفاة أبيه الأليمة . وتذا أخذ الصليب عام ١١٩٥ وكون جيشا من ستين ألف مقاتل وأسطولا من أربع وأربعين سفينة حربية ، وأتى بهم الى شواطىء ابيوليا فى الجزء الجنوبى من الامبراطورية تحت الأبنين Appenines ثم منح الملكية لأرمينيا وقبرص وأصبحت كل منها مملكة متحالفة معه فى النضال التالى . كما ظهر أيضا النظام التيوتونى فى ذلك الحين وانضم أيضا الى قوات هنرى . وما أن حل عام ١١٩٧ حتى كانت الاستعدادات للحروب الصليبية الألمانية قد تمت .

وابحر الأسطول بقيادة أسقف فورزبرج حتى لحق الامبراطور فى تاريخ متأخر في الأرض المقدسة وقد رسا الصليبيون بالقرب من صيدا واشتركوا مع الفرنجة فى استرداد بيروت • وفيما بعد ـ حين كانوا يحاصرون قلعة تورون ـ وصلت أخبار موت الامبراطور في موعد غير مناسب أدى الى هبوط الروح المعنوية للجنود ، فتركوا أماكنهم وعادوا الى وطنهم • ولعل النتيجة الوحيدة الهامة لهذه الحرب الصليبية هى قيام النظام العسكرى التيوتونى للدين الذى كان مقدرا له أن يقوم بدور تاريخى فى تطوير بروسيا •

وبمجىء البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢٩٦) بدأ المحاربون عن الكنيسة ينادون باستئناف الحرب المقدسة . وفى النهاية أثمرت تصريحات البابا • ولكن الحرب الصليبية الرابعة التى بدأها انوسنت بصورة جدية لاسترداد أورشليم ، أخرجتها المطامع الشخصية عن طريقها المرســوم ولم تصبح أكثر من هجوم وضيع على القسطنطينية • وكانت الجماعات الثلاث المنحرفة على هذا النحو الشائن هى : أهالى البندقية والفرنسيون والفلمنكيون ويرجع دافع الاستيلاء على الامبراطورية الشرقية الى فيليب الصوابى وزوج أخته ومحسوبه الكسيوس أحد المطالبين بعرش بيزنطة، مع أن أحد والديه فقط كان يونانيا وبالطبع كان الدوق الأعمى المسن انريكو داندولو من البندقية ، وراء مشروع مد الامتيازات التجارية فى المنطقة التى يحكمها فى الشرق امتدادا لم يشهد أهالى البندقية مثــله فى الماضى •

وقد اتفق أن تجتمع فرق الفلمنكيين الفرنسيين فى بقعة معينة على بحيرات جمهورية سان مارك من الفلاندرز ومارسيليا • وفى نوفمبر عام ١٢٠٢ أبحروا على سفن حربيــة من البندقية قبــل أن يتقــدموا الى القسطنطينية • وقد تخلى سيمون دى مونتفورت Simon de Montfort وكثيرون من الصليبيين الناقمين على هذه الحال عن المعركة لاظهار احتجاجهم على هذا الموقف ، وتوجهوا توا الى عكا فى الأرض المقدسة • على حــين أبحر الجنود البالغ عددهم ٢٠ر٠٠٠ فى اتجاه البسفور • وكان هــؤلاء مقسمين بالتساوى بين أهالى البندقية والفرنج الفلمنكيين ، وقد انتهى

إلهجوم على عاصمة الشرق ــ ولم يكن ميسورا ــ بسقوط الامبراطورية اليونانية الضعيفة ٠ وبعد أن نصبوا امبراطورهم الذى كان لعبــة فى أيديهم والذى اغتاله رعاياه فى الحال فى فترة من الفوضى الشاملة أصر الصليبيون على تنصيب امبراطور لاتينى بديلا له ، وكان هذا ممثلا فى شخص بالدوين من الفلاندرز ٠ وتركت المدينة العظيمة مفتوحة بصفة رسمية للنهب وللحصول على الغنائم مدة ثلاثة أيام ٠ ويصعب تصديق حالة النهب والسلب فى أكثر مدن المسيحية حضارة ٠ وهى التى كانت حصن أوربا فى الشرق ٠ وكتب فيلهلردون Villehardouin شاهد العيان الفرنسى المعاصر مؤرخا لهذا الحادث قائلا : « منذ بدء الخليقة لم يحدث مثل هذا النهب والسرقة فى أية مدينة » ٠ ولقد أصبح النهب والتخريب شيئا عاما ٠ واشــترك فى هــذا السلب البارونات وحــكام الكنائس اللاتينيون الذين يتبعون مذاهب مقدسة على حد سواء ٠ كل هؤلاء كانوا ينهبون ما استطاعوا حمله ٠ وفى هذه الفوضى خربت أو سرقت الأعمال الفنية العظيمة والمخطوطات القيمة وكانت تباع المئات والمخطوطات الخاصة بأرسطو وديموثينوس بأرخص الأسعار ٠ واغتصبت الكنوز الغالية من القصور ، كما سرق كل ما يدل على الشعائر الدينية من الكنائس من كئوس وصلبان ذهبية وفضية ، وكل ما كان يزينها ٠ وشحنت السفن الحربية بالمواد الكمالية والفراء الجميلة واختطفت الأربعة الجياد البرونزية الرائعة التى كانت معلقة على كنيسة ســان مارك من حلبــة الســباق البيزنطية ٠ وتعد سرقة هذه التحف من أكبر أعمال النهب والسلب فى التاريخ ٠ كما اختفى كل ماكان على مذبح القديسةصوفيا المحمل بالأدوات القيمة ٠ وأخيرا قام جنود الصليب علانية باغتصاب النساء وبالدعارة ، ولم ينج من عنفهم حتى الراهبات العذارى ٠ ويذكر نسيتاس شونياتس Nicetas Choniates شاهد العيان اليونانى والمؤرخ لهذه الحوادث المؤسفة حزنه على مصير تلك المدينة فيقول :

« أيتها المدينة يا قرة عين المدن جميعا ، يا موضــوع جميع قصص العالم ، يا محط أنظار العالم ، يا مدعمة الكنائس ، يا قائدة الايمان ، يا مرشدة الأرثوذكسية وحامية التعلم ، يا مقر كل شيء حسن ٠ لقــد

شربت كأس غضب الاله حتى الثمالة لقد زارتك نيران أكثر ضراوة من تلك التى نزلت على المدن الخمس » •

وبهذه الحالة التى لا يمكن وصفها حلت الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية محل الامبراطورية البيزنطية حتى عام ١٢٦١ ، ونصت معاهدة التقسيم على تسليم العرش الامبراطورى وخمسة أثمان المدينة الى بالدوين ، أما البطريركية اللاتينية الجديدة ومعها الثلاثة الاثمان الباقية والقديسة صوفيا فقد تركت للبندقية • وكان توماس موروسينى أول بطريرك فينيسى • أما تراقيا وأراضى الدردنيل الساحلية وجزائر بحر ايجه العظيمة فقد كانت من نصيب الاقطاعيين الفرنجة الفلمنكيين الفرنسيين على حين أصبحت المراكز التجارية فى تراقيا وعلى الادرياتيك ومعها الجزائر (الدوديكان والايونيين والبلوبونيسس) وجزيرة كريت من نصيب فينيسيا • وكان هذا هو نصيب الأسد فى أكبر السرقات التى عرفها التاريخ • وكان على البابا انوسنت أن يغضى عن ذلك كله بالرغم من غضبه الشديد لانحراف الصليبيين عن محاربة المسلمين الى هجوم فظيع على الحدود المسيحية • وبالرغم من أن اضطرار اليونانيين الى التجنس بالجنسية الرومانية هدأ من نفس البابا ، فان الاحتلال المؤقت للبلاد كان يمهد الطريق للعدوان التركى بعد ذلك بقرنين • واتسعت الهوة التى كانت تفصل المسيحيين فى الشرق عن الغرب اتساعا لم يسبق له مثيل •

وأراد انوسنت الثالث أن يعالج فضيحة الحرب الصليبية الرابعة عن طريق ايقاظ ضمائر المسيحيين بضرورة استرداد الأماكن المقدسة ومحاربة الامبراطورية الاسلامية فى الشرق • وجاءت الاستجابة لنداء البابا فى هذا الوقت من أطفال أوربا الغربية أكثر مما أتت من الجيوش المنظمة • وكان هذا يعد مقدمة للحرب الصليبية الخامسة التى كان لها هى الأخرى صفاتها المميزة بالرغم من أنها لم تتلاءم مع الروح المرحة للبابا المقدس • وقد كانت حرب الأطفال الصليبية عام ١٢١٢ احدى المآسى الكبيرة فى ذلك العصر • وكان الواعظ لها طفلا عمره اثنتا عشرة سنة اسمه ستيفن • ظهر هذا الطفل فى بلاط فيليب أوغسطس . ومعه

رسالة مزعومة من السيد المسيح الى ملك فرنسا يحثه فيها على الحرب المقدسة بقيادة طفل من الأطفال • وفى هذا العصر الذى كان يصدق فيه كل شيء ، حين كان يتعانق الجهل مع الخرافات ، لم تستطع حنكة الملك وعدم مبالاته من منع انتشار الحركة التى كانت تعجب الجماهير • ويقال ان نحو ٣٠٫٠٠٠ طفل ومن بينهم عدد كبير من أسر النبلاء قد اشتركوا فى الحرب الصليبية وتبعوا الناسك الجديد « بطرس الناسك » فى طريقه الى مرسيليا حيث كانوا يتوقعون أن ينشق البحر بمعجزة أمام تقدم الحجاج مثلما حدث أيام موسى عند الخروج من مصر كما هو وارد فى التوراة •

وفى الحال كان للقوات الفرنسية نظائرها فى المانيا حيث تبعت جماعة أخرى طفلا آخر اسمه نيقولا من كولونيا • وسار الألمان فى صفين عبر جبال الألب الى جنوه وبرنديزى عن طريق روما ولم تهبط الا عزيمة القليلين منهم فلم يواصلوا الرحلة • ولقد مات كثيرون منهم فى الطريق على حين تلكأ البعض فى القرى، أما البقية فقد وقفوا على الساحل منتظرين حدوث المعجزة وانشقاق المياه الى الأراضى الواقعة خلفها • ولما لم تحدث المعجزة اقترح اثنان من الرجال ، هيو الحديدى ووليم الخنزير وهما من مرسيليا ، أن يتبرعا بنقل القوات الى الأرض المقدسة • وقد ساقا الأطفال لبيعهم فى أسواق الرق فى شمال افريقيا ومصر • وقيل ان هذه القصة قد تأكدت عام ١٢٣٠ حينما صحب كاهن شاب الطفل ستيفن الى مصر لهذا الغرض ، وبعد سنوات من الخدمة التى تتصف بالأمانة فى مصر استطاع أن يسترد حريته وأن يعود ثانية الى موطنه • أما ما قاساه الألمان فقد كان أقل نسبيا ، ذلك لان جنوه وكثيرا من المناطق الايطالية والموانى البحرية قد استوعبت الكثير منهم ، وعاد الباقون الى وطنهم ، واستطاع البعض أن يجد الوسيلة التى توصله الى فلسطين •

ويجب تتبع منشأ الحرب الصليبية الخامسة الى موعد تتويج فردريك الثانى فى ٢٥ يوليو عام ١٢١٥ فى آخن ، وقد أخذ الامبراطور الجديد الصليب فى هذه المناسبة بمحض اختياره ، ويبدو أنه كان فى أيام شبابه تسيطر عليه فكرة قيادة العالم المسيحى بأجمعه تحت هدف عالمى ، وقد

نباطأ في الوفاء بالقسم • وفى مجلس اللاتيران (*) the Nov. Lateran البابوى فى نوفمبر من السنة نفسها حدد البابا انوسنت الثالث تاريخ قيام الحرب الصليبية فى بدء عام ١٢١٧ ، ولم تأت الاستجابة لدعوته من الامبراطور بل من ثلاثة ملوك صغار : اندرو ملك المجر ، وهيودى لوزجنان ملك قبرص ، وجون دى برين John de Brienne ملك بيت المقدس • وبدأت قواهم المتحدة بالرغم من ضعفها سلسلة من المعارك الصغيرة الفاشلة • وكانوا يشنون غاراتهم من القاعدة المسيحية فى عكا على سهل الأردن وذلك فى أثناء عام ١٢١٧ • وفيما بعد انسحب اندرو الى المجر ثم مات هيو ، وبقى قليل من الألمان مع جون حتى وصل لتدعيم مركزه أسطول من التعزيزات القادمة من فريسيان • وأعلن أن مفتاح أورشليم فى القاهرة لا فى الأراضى المختلفة • فتقرر أن يبحروا وهدفهم القيام بحرب صليبية على مصر • ورسوا فى دمياط وفرضوا عليها الحصار من مايو عام ١٢١٨ الى ٥ نوفمبر عام ١٢١٩ يوم استولوا على المدينة • وأدى انتشار نبأ هذا النصر الى وصول المزيد من التعزيزات تحت قيادة مندوب الكاردينال الاسبانى بلاجيوس من البانو وكان متحمسا للغاية ، ولكنه كان عنيدا متعاليا •

وورث السلطان الكامل محمد (١٢١٨ – ١٢٣٨) مهمة الدفاع عن مصر عن أبيه العادل سيف الدين أبو بكر الذى كان يعرفه الصليبيون الأولون باسم « صفى الدين » وهو أخو صلاح الدين الذى انقسم سلطانه الموحد ، وحكم شقيق الكامل واسمه المعظم (١٢١٨ – ١٢٢٧) حكما مضطربا فى دمشق ، وكلاهما كان أقل من سابقيه مركزا • وقد عرض الكامل سلطان مصر عرضا يصعب تصديقه وهو التخلى عن أورشليم وممتلكات الفرنجة الأصلية فى الأرض المقدسة قبل عام ١١٨٧ للصليبيين نظير اعلانهم السلام وتركهم مدينة دمياط • ولقى هذا العرض القبول من جون دى برين ولكن بلاجيوس أصر على اتمام غزو مصر والاستمرار فى الحرب حتى وصول جيش فردريك الثانى • ودخل الصليبيون الدلتا فى عام ١٢٢١ فى منتصف الصيف • وكان الجو حارا رطبا وكانت مياه

(*) اللاتيران مكان بالفاتيكان •

النيل تستمر فى الارتفاع بسبب الفيضان السنوى • فحطم المصريون السدود المقامة على كل القنوات ووجد الغزاة أنفسهم وسط بحيرة كبيرة على مقربة من أعدائهم المصريين • ومع هذه المتاعب لم تصل أية امدادات من الامبراطور • ولهذا فشلت هذه الحملة فشلا ذريعا واضطر بلاجيوس أن يقبل شروط « الكامل » الجديدة وهى السلام وتسليم دمياط • وفى أثناء تلك المعركة استطاع الراهب المسكين فرانسس الاسيسى الذى كان مصاحبا للصليبيين أن يقنع بلاجيوس بأن يسمح له بعبور خط المعركة ليصل الى معسكر السلطان خارج فارسكور عند بحيرة المنزلة ومعه راية الهدنة بقصد محاولة تغيير دين السلطان الى المسيحية • وأصغى السلطان فى دهشة بكل اهتمام وسرور الى مناقشات ذلك الزائر الاشعث المنظر واعتقد أنه مجنون وأمر بعودته سالما الى الجانب المسيحى •

ولم تأت الدعوة المسالمة الجديدة من مجهودات ارسالية القديس فرنسيس ولكنها أتت عن طريق حرب صليبية جديدة ذات طابع مختلف كل الاختلاف عما سبقها ، وقد بدا هذه الحرب « الامبراطور الكافر » الذى يصعب فهم شخصيته فردريك الثانى (١٢١١ ــ ١٢٥٠) وكان من أشد المعارضين فى زمنه • وهو رمز اكتمال نهضة القرن الثانى عشر • نقد كان بارعا متسامحا محبا للتعلم ، محدثا لبقا باللغات اليونانية والعبرية والعربية وكان ما يطلق عليه حقيقة وهو أنه الرجل العجيب Stupor Mundi ومع ذلك فقد وصف بأنه أتوقراطى عديم المبالاة ، مشغوف بالملذات ، ملحد ، يجدف فى حق موسى والمسيح ومحمد • وتسبب فى غضب البابا عليه فأصدر قرارا بحرمانه • وقد تكاثر فلاسفة العرب فى بلاطه وكان بالغ الصداقة مع المسلمين •

ومهما يكن لفردريك من رذائل فان فضائله لم تجعله متناسبا مع عصر له حب أعمى للحرب • وقام على رأس حرب صليبية خاصة من وحى تفكيره متحديا بذلك الكنيسة • وتعرف هذه الحرب عادة باسم الحرب الصليبية السادسة • ولعل فردريك كان فى أول الأمر جادا فى الذهاب على رأس جيش الى الأرض المقدسة فى أثناء عام ١٢٢٧ ولكن لم يعرف حتى الآن هل كان ينوى استخدام الجيش فى الحرب أو كان ذلك لضغط

دبلوماسى • وعلى أية حال فقد أصيب بالطاعون فطلب التأجيل من البابا• أما جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) الذى كان يتبع سياسة البابوية فى العداء لفردريك فقد رفض قبول أى تأجيل مهما تكن الأسباب• ولهذا فان فردريك الذى حكم عليه بالحرمان • وكان يقاسى من رواسب الحكم قرر باعتباره وصيا لابنه كونراد أن يركب سفينة حربية صغيرة ويذهب فى رحلة سالمة الى الشرق • ولم يكن على السفينة معه الا بحارة مسلمون من صقلية ، وجماعة محدودة العدد من خدمه الخاص • ووصل الى عكا عن طريق قبرص ، وعاش فى ظروف شديدة القسوة ، ولما كان منبوذا من البطريرك اللاتينى فقد تتبع حركات السلطان من مكان الى آخر ، وكان يتباحث معه ويتناقش من أجل الوصول الى معاهدة لتحرير فلسطين • وقد أعجب رسل السلطان بمعرفته لثقافة العرب ولغتهم ، وأخيرا حدد « الكامل » شروط المعاهدة فى ١١ فبراير عام ١٢٢٩ وأنعم فردريك على أهم سفراء السلطان وهو فخر الدين بوسام الفروسية ذكرى لهذا النصر الدبلوماسى •

وعادت المدن الثلاث المقدسة : أورشليم وبيت لحم والناصرة الى المسيحيين وعادت معها تورون فى الجليل واللد وصيدا وقليل من الاماكن الأخرى مكونة ممرا من الساحل الفينيقى الى الداخل لمرور الحجاج المسيحيين فى أمان • وبقى مسجد الصخرة وغيره من أماكن المسلمين المقدسة فى حوزة المسلمين • ووعد الامبراطور بأن يقف تدعيم أية حرب صليبية مسلحة ضد مصر الى الأبد • ونفذت الهدنة عشر سنوات ميلادية• أى ما يوازى عشرة سنوات هجرية وبضعة أشهر • وكانت هذه أكبر ضربة دبلوماسية من رجل كان يفهم عقلية عدوه • ودخل فردريك بكل نصر وكبرياء مدينة أورشليم فى ١٨ مارس وتوج نفسه ملكا لاتينيا بأن وضع التاج بنفسه على رأسه فى كنيسة القبر المقدس ، وذلك لأن احدا من رجال الكنيسة لم يتسن له القيام بهذه السلطة من أجل شخص انحرف عن دينه وحرمته البابوية من صلته بها • ويضاف الى هذا انه باسم بطريركية أورشليم اللاتينية وضع رئيس أساقفة قيصرية بعض القيود على أورشليم فهجرها الصليبيون والحجاج واضطر بطل هذا الزمان

أن يعود سريعا الى بلاده ليحمى فى ايطاليا مملكته التى غزتها جيوش البابا بأمر من جون دى برين • وكان هذا بلا شك من سخرية القدر •

ويبدو أن البابا كان يود الحصول على أورشليم عنطريق الغزو واراقة الدماء فقط • وسادت الحروب الأهلية خلال الأعوام العشرين التالية بين رجال الامبراطور والفرنجة المحليين والاقطاعيين • وبينما كان الفرسان البيض والداوية طرفى نزاع لم تهتم الدوائر الايطاليـة الا بمصـالح تجارتها • ولم ينقذ المملكة اللاتينية الهزيلة الا قيام المسلمين بالمعـارك الداخلية • وتشبه الأيام الأخيرة من الحكم الأيوبى تلك الأيام التىسبقت الحرب الصليبية الاولى • وتحالف اللاتينيون مع رؤساء دمشق المحليين ضد مصر فطلب السلطان الأيوبى المساعدة من الأتراك الخوارزميين ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على أورشليم فى أغسطس عام ١٢٤٤ • وقبل أن يحل عام ١٢٤٥ كانوا قد استردوا معظم فلسطين • ودفعسقوط اورشليم للمرة الثانية لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) ملك فرنسا القديس الى بدء حرب صليبية جديدة ضد مصر • وسقطت دمياط فى أكتوبر عام ١٢٤٩ ثم اتجهت الحملة نحو القاهرة وتكررت خطط المصريين نفسها وأدت هذه الى خسائر فادحة تجشمها الصليبيون ، وتوقفتقدمهم عند المنصورة حيث تمت هزيمة الصليبيين وأسر الملك ومعه معظمنبلائه بعد المعركة الحاسمة فى فبراير عام ١٢٥٠ • وقد سرد قصة هذهالحوادث المثيرة بالتفصيل شاهد العيان جونفيل Joinville مؤرخ القصر الذى يعد عمله أول تاريخ عظيم باللغة الفرنسية العامية كتب عن هذا العصر• وبدأت المباحثات الخاصة بشروط الافراج عن الملك وهو سجين • وكان على الصليبيين أن يجلوا عن دمياط تماما وحددت جزية قدرهـا نصف مليون جنيـه تورونى (*) أى ما يسـاوى مليون [بيزانت] besant وفى أوائل مايو أبحر المراقبون ومعهم الملك الى عـكا بعد أن أدوا كل ما استطاعوا جمعه من أموال خاصة من الداوية الأغنياء ، وبقى لويس ما يقرب من أربع سنوات فى الأرض المقدسة محـاولا أن يعوض بعض الخسائر التى جرتها هزيمته فى مصر من كبار اللاتينيين فى الشرق •

(*) عملة مسكوكة بمدينة تورز بجنوب فرنسا • (المترجم)

واستطاع أن يجمع الفرنجة المنقسمين فى ممتلكاتهم الهزيلة وتحالف مع الحشاشين Assassians المعروفين بشباتهم ومعاقلهم اللبنانية • ثم أبحر عائدا الى وطنه فرنسا فى أبريل عام ١٢٥٤ • وعلى كل حال فقد بقى الملك في حالة قلق حتى بدأ الحرب الصليبية من جديد فى شمال افريقيا حيث مات خارج تونس فى ٢٥ أغسطس عام ١٢٧٠ وعلى شفتيه هـذه الكلمة :

« أورشليم ! أورشليم ! »

وفى هذه الأثناء قامت حربان صليبيتان قصيرتان ثانويتان لا أثر لهما • الأولى قام بها لقطـاء أراجون عـام ١٢٦٩ والثانية قام بها ادوارد أمير انجلترا عام ١٢٧١ • وعلى الاجمال فقد شهد القرن الثالث عشر تغييرا جذريا فى معنى الصليبية وروحها • فغزو القسطنطينية عام ١٢٠٤ والحرب الصليبية الألبيجنسية (*) عام ١٢٠٨ والحملات الأوربية المتعددة ضـد أصحاب المذاهب الكنسية المنشقة أولا ثم ضد المسيحيين المتمردين المعادين للبابوات ـ كل هذه العناصر اشتركت فى تغيير المفهوم الأساسى لمثالية الصليبية الأصلية • حدث كل هذا والمسلمون فى الشرق يجمعون القوات ويستولون على الأراضى • فحينما انتهى الحكم الأيوبى بمقتل توران شاه عام ١٢٥٠ أصبح ورثتهم سلالة السلاطين المماليك الذين كانوا يخدمون سادتهم القدامى كحرس من العبيد • وقد تم الوفاق بين أيبك (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧) أول المماليك وبين لويس التاسع • وشهد أحد خلفائه قطز (١٢٥٩ ـ ١٢٦٠) هزيمة المغول الأقوياء بقيادة هولاكو فى معركة عين جالوت عام ١٢٦٠ • وكان بطل هذه المعركة الحاسمة بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) الذى قتل سيده واعتلى عرشه • وبعد ذلك استرد المماليك ـ واحدا بعد آخر ـ ممتلكات الفرنجة شيئا فشيئا ، حتى استولى الأشرف خليل (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣) أخيرا على عكا فى مايو عام ١٢٩١ • وما أن حل عام ١٢٩٢ حتى كانت جميع مراكز المسيحيين الغربية ومن بينها صور وصيدا وبيروت قد سلمت وقذف بتاج أورشليم من عكا فى عرض البحر الى جزيرة قبرص •

(*) نسـبة الى البيجنس Albigenses وهى طائفة دينية ازدهرت فى جنوب فرنسا (١٠٢٠ ـ ١٢٥٠) وأقمعت نظرا لهرطقتها •

الفصل الثالث

الحروب الصليبية في أواخر القرون الوسطى

أصبحت الحروب الصليبية ـ من الناحية التاريخية ـ موضع مراجعة وتصحيح • وقد سبق أن ذكرنا ذلك ، وأن الأفكار القديمة قد أفسحت الطريق لمدارس فكرية جديدة • وحتى عهد قريب ، حدد رجال التاريخ الحركة الصليبية بفترة استمرار مملكة أورشليم اللاتينية فوق الأراضي الآسيوية • وقد بدأت الحروب المقدسة بخطبة اربان الثانى التى لا تنسى فى كليرمونت فيراند عام ١٠٩٥ وانتهت تلك الفترة بجلاء الفرنجة المحزن عن فلسطين عام ١٢٩١ ـ ١٢٩٢ ؛ وفى ضوء الأبحاث المتزايدة فى هذا المجال لم يعترف أحد بتلك الفكرة الجديدة المباغتة عن الحروب الصليبية • وفى هذا الباب محاولة لتحديد مصير الحروب الصليبية بعد سقوط عكا على ساحل سوريا فى أيدى المصريين قرب نهاية القرن الثالث عشر • فبالرغم من التغيرات الظاهرية للأهداف الرئيسية للحروب الصليبية فان استمرار الحركات الصليبية فى أواخر العصور الوسطى سوف نقدم عليه برهانا قاطعا بسرد سريع للأحداث • ولا مجال للشك فى أن القرن الرابع عشر كان عهد الحروب الصليبية الأخيرة بمعناها الصحيح • فبعد ذلك فى أثناء القرن الخامس عشر بدأت الحروب الصليبية تفقد قيمتها الحقيقية وانتهت حينما أصبحت تسعى الى هدف بائس لا أمل فى احيائه •

وفى الأدب الشائع أن التحركات الصليبية عادت فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الممتد من (١٢٩٢ ــ ١٣٤٤) • أما النصف الثانى من القرن الرابع عشر الممتد من (١٣٤٤ ــ ١٣٩٦) فهو فترة المعارك الصليبية المتتالية فى الشرق • وقد شهد هذا القرن العديد من التغيرات الأثرية التى رسمت الحدود التقليدية لمواقع الحروب الصليبية • وحتى ذلك الحين كانت الحروب المقدسة مقصورة على الشرق الأدنى ــ أما فى أواخر العصور الوسطى فقد بلغت آفاقا تبعد عن الأرض المقدسة فى كل اتجاه تقريبا • وبالرغم من أن الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر كانت تعوزها صفات الشجاعة والقوة والمكاسب المعنوية التى اتصفت بها الحروب الصليبية الأولى ، الا أنها تركت تأثيرها فى تاريخ البشرية وذلك بفتح الطريق الى الصين • ولقد سجلت مغامرات الرسول اللاتينى الاستكشافية فى بلاط مملكة خان بالق المغولية ثورة على الحقائق الجغرافية فى العصور الوسطى فان فكرة الاتحاد مع المغول بعد اعتناق المسيحية فى النضال ضد السلاطين المماليك فى مصر وسوريا قد أطلق عليه فى بعض الأحيان اسم « صليبية التتار » ولقد أصبح هذا من الملامح الرئيسية فى الأدب الشائع فى ذلك الحين • وقد اعتنق تلك الفكرة البابوات والملوك وكان تكبير خريطة العالم القديم الى حد ما نتيجة جانبية للحروب الصليبية الأخيرة •

وبالرغم من أن الهدف الرئيسى لكل الحركة الصليبية كان الاستيلاء على الأرض المقدســة فانه يبدو أن الصليبيين فى القرن الرابع عشر قد لجــأوا الى طرق متعــددة بمهاجمة مراكز كانت تبــدو أكثر أهميـــة فى الامبراطورية الاســلامية كان من الواجب أن تضعف وتفتقر قبل أى احتلال جدى لشواطىء فلسطين • وسوف نرى أن الحروب الصليبية لم تكن ضد الأراضى المقدســة بقدر ما كانت ضد الأناضول ومصر وشمال افريقيا والبلقان •

وأصبح سقوط عكا على أيدى المسلمين عام ١٢٩١ مثل سقوط أورشليم عام ١١٨٧ وسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ بمثابة تذكار للأوربيين للحالة التعسة فى الشرق ؛ كما أصبح الملوك الجوالون فى أقطار الشرق الأدنى

تذكارا آخر لتلك الحال . فلقد قضى بيتر الأول اللوزجنى الذى أطلق عليه وزير خزانته فيليب دى ميزيير لقب مناضل المسيحية ثلاث سنوات تقريبا (١٣٦٢ ـ ١٣٦٥) متنقلا من بلاط الى بلاط فى كل أنحاء قارة أوربا يطلب المعونة من أجل خططه الحربية . وفى باريس عام ١٣٩٣ مات ليو السادس ملك ارمينيا الذى كان لاجئا يائسا بلا تاج ، دون أن يخلفه ولد . وفيما بين (١٣٩٩ ـ ١٤٠١) ترك مانيول الثانى بلايولوجس بيزنطة فى رحلة الى أوربا الغربية ليرجو من كبير الأساقفة المقدس وملوك فرنسا وانجلترا الأقوياء ارسال النجدة الى عاصمته التى طال عليها حصار العثمانيين المتتالى وهجماتهم . وحتى بعد زوال الامبراطورية الشرقية وسقوط تلك المدينة العظيمة لجأ الى روما شخص يدعى أنه الامبراطور توماس بلايلوجوس . وعلى كل حال فان الحروب الصليبية قد صارت حركة للدفاع لا للهجوم وذلك فى أثناء القرن الخامس عشر .

المبشرون والارساليات فى القرن الرابع عشر

كان القرن الرابع عشر حقا عصر التبشير للحروب الصليبية ، خاصة فى عشرات السنين الأولى منه • وكان هذا رد الفعل الطبيعى لضمير الأوربيين تجاه الحالة التى تسير بخطى ثابتة نحو اليأس فى الشرق • وكان اخفاق الصليبيين فى انقاذ مملكة أورشليم اللاتينية والدفاع عن مدينة عـكا من أهم الصفات المميزة لذلك العهد ؛ وكان على أوربا أن تبحث عن أسباب اخفاقها فى مواجهة الاســلام • وهذا سبب تدفق الأدب الشائع الذى كان يميز تلك الحقبة من الزمن • وفى الحقيقة يبدو أن مؤيدى فكرة الحروب الصليبية قد جاءوا من كل الطبقات فى مجتمع العصور الوسطى ؛ فكان من بينهم البابوات والملوك والمحاربين والأدباء والوزراء والأساقفة وسيل لا ينقطع من الحجاج العائدين من المدينة المقدسة بقصصهم الشائقة عن الشرق . وكان أصحاب الرأى منهم يفكرون لا فى مجرد الاستيلاء ثانية على مكان مولد السيد المسيح بل فى الطريقة الثانية التى يبقى بها هذا المكان فى أيدى المسيحيين بعد ارجاع مملكة أورشليم التى كانوا قد خسروها وضاعت من أيديهم •

ولقد بدأ هذه الحركة شاهد عيان من نابولى اسمه ثاديو وذلك عن طريق كتابه الذى أسماه "Hystoria" (التــاريخ) وفيه يصف مصير آخر قلعة من قلاع المسيحية اللاتينية على شواطىء فلسطين • وكانت دعوته للاتحـاد بين كل أمراء المسيحيين تحت قيادة الكنيسة لانقاذ «ماورثناه عن أجدادنا» متفقة مع سياسة البابوية الرسمية • ولقد اقترح معاصره نيقولا الرابع (١٢٨٨ ــ ١٢٩٢) « حجا جماعيا » بمعاونة شارل الثانى من اينو نحو عام ١٣٠٩ ، وزاد من تعلقه بذلك أحقيته لطلب تاج مملكة أورشليم اللاتينية • وحتى قبل سقوط عكا نصح أحد الفرنسيسكان واسمه فيد نزيو من باديوا البابا نيقولا بما يتبع فى خطة المعركة المقترحة

وذلك فى كتاب عنوانه «تحرير الأرض المقدسه» .Liber Recuperationis
.Terre Sancta وقد ناقش المؤلف التحصينات العسكرية على ساحل الامبراطورية الاسلامية كما ناقش مشكلة القواعد العسكرية فى أرمينيا وسوريا والقرى البحرية والبرية والطرق المؤدية الى الشرق ، كما ناقش موضوعات أخرى هامة ، وذلك بافتراض أن عكا ما تزال فى أيدى المسيحيين مما قلل اهمية بعض أوجه نصحه ، ومع ذلك فان ارشادات نيقولا الرابع كانت شاهدا على مولد فترة جديدة فى الدعاية الأدبية والدبلوماسية من أجل الحروب الصليبية .

ان انتاج المبشرين للدعوة الصليبية هائل فى أبعاده . ولذا يجب أن نستعين بمقياس دقيق للنخبة الممتازة منها حين دراسة بعض نماذجها أو بعض ما يتميز فيها بصفات خاصة بارزة . ولعل أحدث شرح لهذا الموضوع هو ما نسب الى رايموند لل الكتالونى . وقد ولد فى عام ١٢٣٢ وقتله المسلمون الغاضبون على شواطىء شمال افريقيا عام ١٣١٥ أو ١٣١٦ . وكان لل من الشخصيات العجيبة فى عصره بل فى أى عصر آخر .

فلقد كان شاعرا وفيلسوفا . ألف مئات متعددة من الكتب بطريقة جديدة فى الفلسفة مبنية على اتحاد المعرفة ووحدتها وأوضح ذلك فى كتابة شجرة العلوم "Arbor Seientiae" وفوق ذلك كان من بين أقدم المستشرقين الذين اتقنوا اللغة العربية حتى أنه كان ينظم الشعر العربى . وبالرغم من أنه قد بدأ حياته يتبنى فكرة خطة جديدة للصليبية ظهرت فى كتابه « التحرير النهائى » .

فانه سرعان ما فكر فى أنه قد يكون من الأفضل أن يحاول كسب المسلمين باعتناقهم المسيحية . وأنه عن طريق انقاذ أرواحهم مما حسبه ضلالا سوف يكسب الأرض المقدسة مستقبلا ومعها العالم الاسلامى بأكمله الى حظيرة المخلص دون عنف ولا سفك للدماء . ولذلك كانت دراسته للغة العربية والاسلام وسيلة للوعظ من أجل المسيحية ، وبذلك صار رسولا للارسالية المسيحية بين المسلمين . ولقد عبر البحر ثلاث مرات الى شمال افريقيا من أجل بلوغ ذلك الهدف المحفوف بالأخطار . وكانت مناقشاته

فى رحلته الأولى مع ابن عمار مفتى تونس العظيم ، وظهرت تلك المناقشات فى كتاب « محاورات رايموند المسيحى وعمار الساراسينى » أما فى رحلته الثانية فقد قبضت عليه السلطات التونسية وأودعته السجن حتى أطلق سراحه وأرجعه الحاكم المسلم الى بلده • أما فى رحلته الثانية فقد توج بتاج الشهداء الذى كان يأمل الحصول عليه • وذلك حينما قتله الدهماء خارج ميناء بوجيا (بجاية) الجزائرية • وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة • وانقذ جثته بعض بحارة جنوه ودفنوها فى كاتدرائية بلدته الأصلية لاس بالماس فى جزيرة ميورته [من جزر بليار] •

وفى تلك الأثناء كانت الروح التقليدية للصليبية تلقى الرعاية والاهتمام الكبيرين فى بلاط فرنسا حيث كان فيليب الرابع (١٢٨٥ ــ ١٣١٤) بعد أنَ أهان البابا بونيفاس التالث (١٢٩٤ ــ ١٣٠٣) فى روما ، وبعد أن أقام البابوية فى نطاق مملكته فى أفينيون ، أراد أن يمد سلطان فرنسا وقيادتها الى معظم دول العالم • وعلى رأس الأشياء الكثيرة التى كان يرغب فى تحقيقها ، تنصيب أحد أبنائه رئيس لامبراطورية شرقية جديدة تشمل بيزنطة والأرض المقدسة وسلطة المماليك فى مصر • ويبدو أنه كان يعتبر نفســه الوارث الشرعى للقيادة العالمية لكبار الأساقفة المقدسين • وكانت الصليبية أساسا لسياسته الخارجية • وتبعا لهذا أدى بلاطه كل ما كان يغذى آماله بالوثائق والدعايات للصليبية مما كان يجذب اهتمامه • وممن اشتهر بين هؤلاء اثنان من المستشارين الفرنسيين المشهورين وهما بيير ديبوا ووليم النوجارتى • ولقد جاءه كذلك كثيرون من رجال الأعمال البارزين مثل : جيمس دى مولاى كبير رؤساء الداوية، وفولك دى فيلارت كبير رؤساء فرسان القديس يوحنا فى أورشليم ، وهنرى التانى دى لوزجنان ، وملك قبرص اللاتينى ، وبنيتو زكاريا Benito Zaccharia قائد جنوه للبحرية الفرنســية • كل هؤلاء جاءوا الى الملك ليقدموا مساعدتهم حتى ينفذ خططه •

وخير ما يمثل الأفكار السائدة فى بلاطه حينئذ هو كتاب ديبوا ــ وكان من المؤلفين النادرين فى العصور الوسطى ــ وقد سن ديبوا قوانين تحكم العالم بأجمعه اذ كان سيده الملك هو الشخصية التى تملك زمام

السلطة • وكان الهدف هو القضاء على الخلافات السياسية بين الأمراء فى الغرب عن طريق الاقناع والسياسة ؛ واذا استدعى الأمر فيكون ذلك بالقوة ، فكان لابد أن تقام محكمة أوربية تتألف من ثلاثة من كبار رجال الدين ، وثلاثة من الأهالى من أجل المشكلات الدولية • وبذلك كان من الممكن فرض التشريعات الاقتصادية على الولايات العنيدة المناهضة للملك• وفى هذه القوانين التى وضعها ديبوا فى كتابه ، الابقاء على حق الرجوع الى البابا كما هو ، ولكن على البابوات أن يعيشوا فى فرنسا داخل منطقة نفوذ ملك فرنسا كما كانوا يفعلون منذ بداية الاستيلاء على بابيلونيا فى أفينيون . وكان على الملك أن يحكم أراضى الكنيسة وأن يعود الكهنة الى الوضع الأصلى أى الفقر . وكان على نظامى فرسان أورشليم وكذلك فرسان القديس يوحنا أن ينضموا الى تنظيم واحد ، وأن تصادر مواردهم لتمويل المعارك الشرقية ، وكان على دستور الامبراطورية الرومانية المقدسة أن يتحول الى نظام وراثى على رأسه أمير فرنسى ، وبذلك يتم تتويج ابن فيليب بتاج مصر والأرض المقدسة بعد استردادها • وقد أدلى ديبوا بالتفاصيل عن حكومة الشرق العسكرية الجديدة ، وعن عمل الارساليات بين المسيحيين الشرقيين وبين المسلمين ، وقال ان على من يقوم بهذا العمل أن يتقن اللغات الشرقية • ومما لا شك فيه أن تلك الأفكار الغربية كانت تستخدم كأداة للصليبية حتى تؤكد سيادة فرنسا على بقية أنحاء العالم • وعلى كل حال فان ديبوا الذى قام بتلك الدعاية لم تكن له خبرة شخصية فى هذا المجال • أما مارينو سانودو الأكبر (١٢٧٤ ــ ١٣٤٣) فقد كان من أصحاب الدعاية أيضا ولكن شخصيته كانت تختلف تمام الاختلاف عن شخصية ديبوا • فقد كان سانودو مفكرا عاقلا قضى معظم حياته فى الشرق وكان من سلالة ناكسوس دون البندقية فى الأرخبيل ولقد كان رجلا شديد الذكاء والفطنة ، عظيم المعرفة والخبرة بتلك المنطقة التى جاب أطرافها • وفى أثناء تجواله استطاع أن يجمع كمية عظيمة من المعلومات الصحيحة عن دول الشرق الأدنى مزودة بأوصاف دقيقة واحصائيات • والحقيقة أن سانودو يستحق لقب أول احصائى فى تاريخ أوربا • وكانت مناقشاته مبنية على مستوى عال من الاعتبارات الاقتصادية • وقد ذهب الى أنه اذا أمكن تجريد سلطان مصر من المصدر الأساسى لميزانيته وهو التجارة فانه بلا شك سوف يقع فى افلاس مادى وعسكرى ، ونتيجة لهذه يمكن

للصليبيين أن يتغلبوا على جيوشه ويستردوا الأرض المقدسة بدون مشقة كبيرة • وكانت متاجر امبراطورية المماليك هى الأماكن الوحيدة التى تستقبل عطارة الشرق وتجار الفلفل ؛ وكانت القوى البحرية فى جنوب أوربا تسعى بكل حماس للحصول عليها • ولذا كانوا يدفعون ضرائب كبيرة لأعداء الصليب من أجل الحصول على تلك العطارة • وعلاوة على شراء خزائن السلطان من تلك الضرائب فان جنوة وغيرها من البلاد الايطالية كانت تمده ـ كجزء من تبادل التجارة بينهما ـ بأدوات الحرب والعبيد من أسواق كافا وغيرها من البلاد التي كانت تمد كتائب المماليك بالعبيد •

ولقد سجل مارينو سانودو انفعالاته الشخصية ازاء تلك الأحوال ، كما سجل أفكاره من أجل ايجاد الحل لأحوال الغرب السيئة ، ولقد سجل كل هذا فى كتاب أثرى «سر الصليبية المخلص» Secreta Fidelium Crucis وأهدى الطبعة الأولى منه للبابا كليمنت الخامس فى عام ١٣٠٩ كما أهدى الطبعة الثانية لملك فرنسا شارل الرابع •

وبعد استفسارات دقيقة اقترح حظر التجارة مع حدود المسلمين بالرغم من أن هذا يؤدى الى قطع الصلات بينهما • وعلاوة على ذلك أشار الى أنه لابد من اقامة مناطق حصار ساحلية عسكرية تحت قيادة البابا ، وذلك لمراقبة حظر التجارة مع المسلمين وحتى تمتص كل موارد مصر ويصبح جيشها فى أمس الحاجة الى الجنود والعتاد الحربى • ولقد قدر لهذا العمل ثلاث سنوات ليأتى بالنتائج المنشودة • ولكن بالرغم من أن رئيس الأساقفة المقدس قد دعم هذه الخطة فى الحال فانها فشلت فشلا ذريعا وذلك لسببين رئيسيين أولهما سماح البابا لبعض سفن البندقية بمعاودة التجارة مع العدو • وثانيهما خيانة أهل جنوة الذين أخذوا يهربون عتاد الحرب والصبية الى الأسواق المصرية وذلك مقابل الضروريات القيمة وبعض المزايا التجارية •

وقد يكون من غير جدوى أن نحاول اجراء عرض كامل لجميع من قاموا بالتبشير للحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر • ومع ذلك فعلينا ألا نتجاهل فكرة رئيسية فى ذلك الحين وهى التحالف مع التتار لتكون الحروب الصليبية أشد بأسا ضد المسلمين • ولقد ألهبت هذه الفكرة خيال

الغرب ودفعت الى بعث ارسالية لاتينية الى التتار مما أدى الى نتائج عظيمة من أجل الصليبية • وان أعظم فترة أثناء ارسالية الكاثوليك الى الصين التى بدأت أثناء قيام رئيس الأساقفة اينوسنت الرابع (١٢٤٣ ــ ١٢٥٤) وأثناء حكم ملك فرنسا القديس لويس (١٢٢٦ ــ ١٢٧٠) يمكن أن ترتبط بأسماء جون من دير كورينو John of Monke Corrino ، أودريون من بوردينون Oderio of Por denone ولقد ذهب جون بمحض ارادته وبدون أى ضجة الى مملكة خان بالق ويقال انه قام بتعميد ٥٠٠٠ نفس فى بكين عام ١٣٠٤ ، وأقام كنيستين وترجم المزامير والعهد الجديد الى لغة تلك البلاد • وبعد عشر سنوات لحق به أودريك الذى دار حول آسيا عن طريق ايران والهند وجزر اندونيسيا • وعاد أودريك الى أفينيون عام ١٣٣٠ مجهدا أشد الاجهاد ، وتوفى فى السنة التالية فى يودين Udine • وخلال تلك الفترة قام البابا بتعيين يوحنا رئيسا للأساقفة فى سلطانيا Sultaniya وفى الشرق الأقصى اعترافا بانتصاراته ، كما أرسل البابا سبعة من الأساقفة لمعاونة يوحنا فى عمله الدينى الجديد • ومات يوحنا عام ١٣٢٨ كما قتل آخر خلفائه يوحنا الفلورنسى فى مكان مجهول فى قلب الصين عام ١٣٦٢ • وبذلك دق جرس انتهاء الديانة الكاثوليكية الرومانية فى الصين فى العصور الوسطى • ولكن الجهود المشتركة مع منغوليا قد أحياها كرستوفر كولومبس الذى أراد أن يصل الى الهند بالطريق الغربى واعترض العالم الجديد طريقه وأدى اكتشاف أمريكا الى تغيير وجه التاريخ بأكمله والى التغيير فى الصليبية •

عصر الحروب الصليبية الاخيرة

كان من نتائج الدعاية الصليبية التى استمرت عشرات السنين أن استؤنفت الحروب المقدسة التى انتصرت فيها الصليبية فى سلسلة من المعارك فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر ٠ وكان أول جزء من تلك الحروب هو الحروب الصليبية الأجينية التى تكون فيها القطاع المقدس من البندقية وقبرص وفرسان القديس يوحنا تحت قيادة البابا كليمنت السادس ٠ وقد نجح هذا القطاع فى استرداد أزمير من أيدى الأتراك عام ١٣٤٤ ، واستمرت حماية فرسان القديس يوحنا حتى فك تيمور حصـــار المسيحيين حولها عام ١٤٠٢ ٠ وقد اســتولى الأتراك على الحكم فى كل الأناضول بعد انسحاب المغول من شبه الجزيرة ٠

وبالرغم من أن نزول القوات اللاتينية فى آسيا لم يكن ذا أهمية بالغة فان أوربا قد رحبت به واعتبرته بداية لانهاء الامبراطورية الاســلامية ٠ لذا أقيمت صلوات الشكر والاحتفالات الشعبية فى كثير من مدن الغرب ؛ ودعا بابا أفينيون كليمنت السادس ملك انجلترا ادوارد الثالث وملك فرنسا فيليب السادس ليجنيا ثمار ذلك الانتصار المسيحى فى الشرق ، وذلك بأن يوحدوا جهودهم وأسلحتهم من أجل عمل حاسم ضد عدوهم المشترك بدلا من الاستمرار فى معارك حرب المائة عام ٠ وهكذا بدأ الموقف مناســبا كل المناســبة للاحتمالات العظيمة الحاسمة للصليبيين وعاشت المسيحية فى انتظار شخص آخر مثل جود فرى من بويون لقيادة قواتها الى القتال ٠

وفى تلك الأثناء اعتنق أحد الاقطاعيين التعساء المجهولين فكرة الحرب الصليبية مقتنعا بأسبابها ، وهو من جنوب شرقى فرنسا واسمه همبرت

الثانى ، أكبر أبناء ملك فرنسا من فينوا • وأقنع البابا أن يمنحه لقب «القائد العام للصليبية ضد الأتراك وغير المخلصين لكنيسة روما المقدسة» على شرط أن يزود خمس سفن حربية باثنى عشر علما و ٣٠٠ فارس والف رامى قوس ليحاربوا فى الشرق حيث كان عليه أن يبقى ثلاث سنوات على الأقل • وكان قبل ذلك قد فقد همبرت ابنه ووارثه الوحيد وأصبح فى حالة لا يمكن تعزيته فيها • ثم كان أيضا قد قام بنزاع مع الكنيسة ولم ينقذه من طرده من الكنيسة الا رحمة البابا وعفوه • فلما سنحت فرصة القتال من أجل الصليب وجد فرصة لدفن أحزانه على وفاة ابنه كما هيأت له فرصة التفكير عن خطاياه الماضية ضد الكنيسة المقدسة • ولذلك تنازل عن حقوقه الشرعية باعتباره ولى عهد ملك فرنسا مكرسا نفسه لخدمة كبير الأساقفة المقدس فى الحرب الصليبية •

وكانت الصليبية تحت قيادة همبرت استمرارا لمعركة بحر ايجه ، وقام البابا بتصميم تلك الحملة ليساعد أهل جنوة فى مستعمرتهم كافا فى القرم التى كان يحاصرها التتــار ثم يهاجم الأتراك فى الأناضول • ولقد أبحر ولى عهد فرنسا السابق من مارسيليا فى أغسطس عام ١٣٤٥ ، وعبر سهل لمبارديا بعد أن نزل فى جنوة ليستأنف رحلته مع قواته من البندقية الى نجرو بونتس ولأنه لم يستطع المغامرة والمرور فى الممر الخطر فى مرمره • كان عليه التدخل فى المنازعات والخلافات المحلية فى الامارات اللاتينية ولم يستطع القيام بشىء سوى التدخل فى منازعات بسيطة مع البحارة والأتراك فى بحر ايجه ثم فى أزمير فيما بعد • وقد أدى اذعانه لكل أوامر البابا الصغير منها والكبير الى تردده فى كثير من الأعمال • كما أن نبــأ وفاة زوجته قد ألقى ظــلالا جديدة من اليأس على حياته • وفى صيف عام ١٣٤٧ قرر أن يصبح راهبا دومينيكيا ، فأعفاه البابا من واجباته العسكرية ومنحه لقب « بطريرك الأسكندرية » وعينه رئيس أساقفة باريس فيما بعد عام ١٣٥٤ • ومات فى سن مبكرة اذ كان قد بلغ الثالثة والأربعين حينما كان يمر فى جنوب فرنسا متجها الى عمله الدينى الجديد بعد أن أخفقت حياته الدنيوية •

كانت أول رحلة حقيقية للحج العام محجوزة لملوك قبرص من لوزيجنان تلك الجزيرة التى جعلها موقعها الجغرافى السياسى مقرا لاجتماع جميع

الصليبيين والتجار اللاتينيين • وشجعهم على ذلك الاستيلاء على بعض موانىء الساحل الجنوبى للأناضول ومن بينهـا جوريجوس وأضاليا عام ١٣٦١ • وفى ذلك الحين كان ثلاثة من أبطال فكرة الصليبية مجتمعين فى قبرص وهم : الملك بيير الأول دى لوزجنان (١٣٥٩ ـ ١٣٦٩) وبيتر دى توماس (مات عام ١٣٦٦) البطريرك اللاتينى للقسطنطينية والمبعوث الدينى للشرق منذ عام ١٣٦٢ • أما الثالث فكان فيليب دى ميزيير (مات عام ١٤٠٥) الذى أصبح المستشار الأول لمملكة قبرص وكان من أبعد الدعاة للصليبية صيتا فى ذلك العهد • وقد قضى فيليب سنوات عمره الأخيرة فى الكتابة من أجل الدعوة لخطته الدينية العسكرية والتى أطلق عليها اسم "Militia Passionis Jhesu Christi" وكان يحلم بخلق اخاء عسكرى موحد فى كل أنحاء أوربا تحت لواء جيشه الجديد الذى كان يجب أن يتألف من كل الأنظمة العسكرية ومعها رجال الاقطاع فى أوربا املا فى استرداد الأرض المقدسة •

وفى ذلك الوقت اصطحب ملك قبرص فى جولة لجمع التبرعات والمرتزقة لتنفيذ مشروعاته المستقبلة من أجل الصليبية ، وذلك فى فترة من فترات سلطته الملكية فى أوربا (١٣٦٢ ـ ١٣٦٥) أيام كانت تلك السلطة ممتدة من بولندا الى فرنسا ومن انجلترا الى البندقية • وهكذا تجمعت أطراف أوربا المتباعدة وتلاقت فى مياه رودس • وأبحر بطرس الأول من البندقية فى يونيو عام ١٣٦٥ ليقود أسطولا يتكون من ١٦٥ سفينة ضد هدف مجهول فيما وراء البحار • ولقد حافظ الملك على سر أهدافه كما حافظ مستشاراه الرئيسيان على كتمانها ، وهما بيير دى توماس ، فيليب دى ميزيير خوفا من خديعة البندقية أو جنوه عن طريق تنبيه العدو وايقاظه ••

ولم يذع سر اتجاههم الى الاسكندرية الا حينما أبحرت الكتائب فى وسط البحر وكانت على مرآى من المدينة يوم الخميس ٩ أكتوبر عام ١٣٦٥ ورست على شاطىء مينائها الغربى فى اليوم التالى • وقد دام حصار المدينة سبعة أيام • وأتى ذلك الحصار بنتائج لا يمكن قياسها •

وقد حدث فى أثناء حكم السلطان شعبان (١٣٦٣ ـ ١٣٧٦) ولم يكن الا طفلا لم يتجاوز عمره الحادية عشرة على حين كان حاكم المدينة

ابن عرام يؤدى فريضة الحج فى أرض الحجاز· وكان بلاط المماليك منقسما بسبب ما فيه من شقاق · أما أتابك يلبغا الذى كان يقوم بالوصاية على السلطة ، فلم يستطع أن يسير جيوشا كافية الى الاسكندرية لرد عدوه الا بصعوبة · فكان عليه أن يدور عند حافة الصحراء الغربية بسبب فيضان نهر النيل فى الدلتا · وبمجرد أن ظهر الجيش المصرى فى منطقة مريوط جلت القوات المسيحية عن المدينة فى ١٦ أكتوبر دون أية محاولة جدية المدفاع عن المدينة التى كانوا قد احتلوها معارضين فى ذلك أوامر الملك ونصيحة بيتر دى توماس وفيليب دى ميزيير · فبعد أن سطوا على كنوز المدينة واشعلوا النار فى أبنيتها العامة ومخازنها الرئيسية كان كل همهم وشغلهم الشاغل هو العودة الى قبرص بسلام ومعهم غنائمهم العظيمة التى نهبوها وسلبوها · وهكذا انتهت مأساة أكثر المخاطرات الصليبية نجاحا فى القرن الرابع عشر · ولم ينس المصريون قط ذلك التخريب الذى حدث لمدينتهم بما فيها من فن رائع ، وكان على أهل قبرص أن يدفعوا الثمن غاليا فى القرن التالى جزاء ما ارتكبوه فى الاسكندرية ·

وعلى كل حال فقد أدت نتائج هذا الحادث الى قيام حرب صليبية أخرى ، وسرعان ما انتشرت أخبار ذلك النصر الوقتى فى الاسكندرية فى الغرب كما حدث فى المعارك السابقة فى الشرق · فأمر البابا اربان الخامس جميع المخلصين للصليبية بالقيام بمثل هذه الحملة حتى يصلوا الى نصر محقق فى نهاية الأمر · وكان أكثر الجميع تجاوبا جادا لهذا النداء أميديو السادس كونت سافوى الذى تناول الصليب سابقا من يد البابا نفسه ومعه الملك بيتر دى لوزجنان عند أفينيون ·

وقد أدى الزواج بين أفراد سلالته وبين أسرة بلايولوجى The Palaeologi الى تغيير خطة الاستيلاء على قبرص التى اختطها أول الأمر ، وحول مجرى حملته الى الحرب للحصول على بيزنطة من الغزاة الأتراك وبعض حلفائهم من المسيحيين والمنتفعين من الأراضى فى البلقان · وأبحر أميديو السادس من البندقية فى يونيو عام ١٣٦٦ على رأس جيشه الاقطاعى ولحق به جيش من الجنود المرتزقة من ايطاليا وألمانيا وفرنسا وانجلترا والتقوا به فى كورن فى شبه جزيرة المورة ، حيث قامت خمس عشرة سفينة حربية

وكان هدفها الأول غالبولى • وكانت شبه الجزيرة الصغيرة فى حوزة العثمانيين منذ حكم السلطان أرخان (١٣٢٥ – ١٣٦٠) وهى عظيمة القيمة للأتراك باعتبارها مرسى ينزل فيه الجنود وقاعدة لعمليات التوسع فى شبه جزيرة البلقان • وقد فاجأ الصليبيون حرسها وكان استردادها فى أغسطس لطمة قاسية للأتراك • وفيما بعد ذهب الكونت الى القسطنطينية حيث تبين أن قريبا له وهو الامبراطور جون الخامس البلايولوجى قد أسره شيشمان ملك بلغاريا • ولهذا اضطر الى الهجوم من أجل سراح الامبراطور بدلا من جنى ثمرة كسبه الثمين الجديد من الأتراك • وبعد توغله فى بلغاريا من البحر الأسود حتى فارنه نجح فى مفاوضاته من أجل اطلاق سراح الامبراطور الأسير • وبنهاية عام ١٣٦٦ كانت موارده المادية قد نضبت فاضطر الى الانسحاب الى القسطنطينية حيث دفع له جون مبلغ ١٥ ألف فلورين [من العملة الانجليزية] مقابل تسليم الحدود التى كان قد استولى عليها • وساعده هذا المبلغ على دفع أجور الجند المرتزقة وأعفاهم من عملهم قبل منتصف عام ١٣٦٧ •

أما الحرب الصليبية التالية فقد قامت فى عام ١٣٩٠ ضد مملكة تونس • اذ نظمت حملة مشتركة من أهالى جنوه ومملكة فرنسا من أجل أهداف مختلفة • فبينما كان أهل جنوه يهدفون الى تأديب القراصنة البرابرة الذين كانوا يعترضون سفنهم التجارية فى مياه غربى البحر الأبيض المتوسط ، كان نبلاء فرنسا تحت قيادة الدوق لويس الثانى من عائلة البربون يفكرون فى مناصرة سانت لويس ضد المسلمين فى تونس • وكان المراكشيون المسلمون قد استقروا فى بلدة « المهدية » التى تعرف فى المصادر الفرنسية باسم Cité d'Auffrique وكانوا حينئذ فى مأواهم هذا تحت حماية الملوك الحفصيين فى تونس • واتفق الطرفان المتحالفان فى الحروب الصليبية على أن تمد جنوا الحملة بأسطول كامل مجهز بجيش من البحارة ، وكان على الدوق أن يمدهم بالقوى البرية من النبلاء الاقطاعيين والفرسان والجنود المسلحين • وقد بارك البابا كليمنت السابع المشروع وأعلن رسميا قيام الحرب الصليبية على حين انضم الرجال من فرنسا وانجلترا وهينو (*) والفلاندرز حتى بلغ عددهم ١٥ الفا الى جانب قوى

(*) هينو Hainault فى جنوب غرب بلجيكا •

الدوق . أما أهل جنوه فقد بلغ عددهم ستة آلاف ، وكان منهم ألفان من الرماة الجبابرة الشجعان ، والجنود المسلحين ، وكان الباقون منهم بحارة مهر تحت قيادة الاميرال جيوفاني سنتيوريون دى الترامارينو الذى كان يهدف الى الحصول على جزيرة كونيجليرا ، وكانت على بعد ستة عشر فرسخا من ساحل افريقيا ، وكان يسهل الوصول اليها عن طريق الميناء لساحلى المهدية .

وهناك اجتمعت السفن المسيحية بعد رحلة قاسية . وقرر المجلس الحربى الخطط التاكتيكية قبل حصار المدينة . وحينما وصلوا الى الأراضى الافريقية تعرضوا لهجمات عصابات من الجيوش المشتركة من تونس وبجاية وتلمسان . وكانت تلمسان تتجنب أية معركة منظمة مع أعداء أشد منها قوة . ومن الناحية الأخرى استخدم الأوربيون كل وسائل الحرب الحديثة محاولين فى ذلك تخريب جدران المدينة وأبوابها ، وكان من بين تلك الوسائل المستحدثة استعمال البارود. ومع ذلك لم يستطيعوا بلوغ هدفهم الرئيسى . ولما رأى أهل جنوة العمليون الصعاب التى كانت تحاصرهم بدأوا سرا فى المباحثات والوصول الى اتفاقات من جانب واحد مع العدو الذى كان على وشك الانهيار . واتفق الجانبان على الهدنة مدة عشر سنوات مع ايقاف أعمال القرصنة ، ووافق ملك تونس على أداء ضريبة سنوية مدة خمسة عشر عاما من أجل الاحتفاظ بالمهدية دون حرب وعلى دفع تعويض مباشر قدره ٢٥ ألف قطعة ذهبية (دوكات) تقسم بين الولاية وبين الدوق . واجتمع المجلس الحربى ليعتمد المعاهدة المعروضة بالرغم من معارضة الدوق الذى أعلن غاضبا أنه سيكون آخر الصليبيين الذين يركبون سفينة حربية . وأخيرا عادوا الى وطنهم فى أكتوبر عام ١٣٩٠ بعد أن استخدم تجار البندقية الحاذقون الفرنسيين مخلب قط لهم من أجل حل احدى مشاكلهم الرئيسية .

أما أعظم الغزوات الصليبية التى تعد بلا جدال أكثرها جرا للمصائب فى القرن الرابع عشر فهى ما قام فيما بعد عام ١٣٩٦ لمواجهة الموجة العارمة لتوسع العثمانيين فى أوربا الشرقية . فقد ظهر هذا التهديد الجديد فى المجر وقد أبلغ أخبار هذا التهديد نيكولاس كانيزساى كبير أساقفة جران

ووزير خزانة المجر ، وأبلغ هذه الأخبار بلاط فرنسا عام ١٣٩٥ على لسان الملك سيجمند الذى بعثه ليستنجد بمعونة الغرب • وحوالى ذلك التاريخ كتب فيليب دى ميزير رسالته الهامة ـ التى لم تكن قد نشرت حتى ذلك الحين ـ الى ملك انجلترا ريتشارد الثانى (١٣٧٧ ـ ١٣٩٩) بناء على أمر ملك فرنسا شارل السادس (١٣٨٠ ـ ١٤٢٢) يطلب عودة السلام بين البلدين ويحث على توحيد الجهود فى الشرق •

ولكن الانظار كانت متجهة الى أغنى رجل فى أوربا وهو فيليب الجسور (١) دوق برجندى (١٣٦٣ ـ ١٤٠٤) من أجل البداية المفيدة للحركة ـ وفى الحال قام فيليب بالعمل من أجل الهدف الجديد • فقد كان يود من كل قلبه أن يصبح ابنه ووارثه جون دى نيفير (٢) الملقب فيما بعد بالباسل (٣) وان يأخذ لقب الفارس النبيل أثناء محاربته للخونة • ولذلك عين فيليب ابنه جون لقيادة القوات الفرنسية البرجندية • ولقد أصدر كلّ من بابا أفينون بنديكت الثالث عشر (١٣٩٤ ـ ١٤١٥) وبابا روما بونيفاس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٤) أوامرهما من أجل دعم كل منهما للصليبية فى حدود سلطته القانونية • وقامت أفخر الاستعدادات وأعظمها من أجل الحملة العالمية • وأسرع أشهر الرجال ليقيدوا أسماءهم تحت قيادة نيفير ، كما فعل ذلك مؤيدوهم الاقطاعيون وقوات الجيوش المستأجرة (٤) • وكثيرون غيرهم أسرعوا للانضمام تحت لواء نيفير منضمين بذلك الى أتباع الاقطاعيين وجيوش المرتزقة •

---

(١) Philip the Bold.

(٢) John de Nevers.

(٣) John de Fearlers.

(٤) ومن بين مشاهير الرجال الفرنسيين •

John le Meingre, dit Boucicaut, marshal of the realm.

Admiral John de Vienne	الأدميرال جون من فيينا
Enguerrand de Coucy	انجيراند دى كوسى
Philip and Henry de Bar	فيليب وهنرى دى بار
Guy and Guillame de la Trémouille	جى وجيوم دى لا ترموى

وكان رد الفعل لذلك أكثر تعميما · فلقد أتى الحلفاء والألمان تحت قيادة الكونت بلاتين ، وربرخت بيبان كونت كاتزنلنبوجن ، الكونت هرمان الثانى من سيلى ، بورجراف جون الثالث من نورمبرج ، واشترك كل من جون هولاند ايرل هنتنجدون وجون بوفورت ابن دوق لانكستر فى قيادة قوة منفصلة تبلغ ألف فارس انجليزى · وعلاوة على ذلك تطوع الكثيرون من المرتزقة من اسبانيا وايطاليا وألحقت السفن الحربية التابعة لفرسان القديس يوحنا وهى فى طريقها الى الدانوب بأسطول البندقية وجنوه المشترك · وقد اشترك ملك المجر سيجمند الذى أصبح فيما بعد الامبراطور الرومانى المقدس (١٤١٠ ــ ١٤٣٧) ومعه كثيرون من مملكته وكونوا القوات المسلحة الرئيسية · وجاءت جماعات أخرى من النمسا وبوهيميا وبولندا وبصفة خاصة من ولاشيا (*) · ومنذ قيام الحرب الصليبية الأولى لم تجتمع مثل هذه الجيوش العظيمة · وقد قدرت الجموع بحوالى مائة ألف كان اجتماعهم فى بودا (Buda) حيث اجتمع مجلس الحرب العام لأول مرة فى صيف عام ١٣٩٦ لرسم الخطط وتاكتيكات المعركة ·

وكان سيجسموند بحكمته يحبذ الخطط الدفاعية لأنه كان يعلم من خبرته السابقة أنها أكثر افادة فى محاربة الأتراك · ولكن القادة الغربيين لم يعملوا بنصيحته ويبدو هذا واضحا مما قاله فرواسارت Froissart « لقد جاءوا ليقهروا كل تركيا وليواصلوا سيرهم الى امبراطورية الفرس ··· والى مملكة سوريا · والأرض المقدسة » · فلم يأخذوا محاولتهم هذه مأخذ الجد وكانت خبرتهم بجغرافية الشرق مهوشة ومضللة ·

وسارت القوات المتحدة على محاذاة نهر الدانوب حتى اورسوفا حيث عبروا النهر عند البداية الحديدية المشهورة التى تؤدى الى بلغاريا · وكانت فى نطاق المملكة التركية فى ذلك الحين · وحينما استولى الصليبيون على مدن ودن Widdin وراهوفا لم يميزوا بين قوات الحرس التركية المعادية لهم وبين الأصدقاء من المواطنين المسيحيين الارثوذكس · وفى ١٠ سبتمبر لاقوا لأول مرة مصاعب شديدة ومواقف خطيرة عند

(*) فى جنوب شرق أوربا وتقع الآن فى رومانيا ·

التحصينات القوية فى مدينة نيكوبولس الواقعة على تل يطل على الدانوب شمالا وعلى سهل جنوبا • فاستقر رأيهم على فرض الحصار على نيكوبولس من جهة ، وحاصرت السفن الحربية التابعة للبندقية وجنوا وفرسان القديس يوحنا المدينة من النهر • واستمر الحصار خمسة عشر يوما • وفى أثناء تلك المدة لم يحققوا الا القليل وقد أضاعوا الوقت فى القمار والسكر والعربدة •

أما فى المعسكر التركى فقد كانت الحال عكس ذلك • فبمجرد سماع أخبار وصول المسيحيين أمر السلطان بايزيد الأول بفك الحصار الذى سبق أن أمر بفرضه حول القسطنطينية • وجمع كل قواته الآسيوية والأوربية وسار لنجدة نيكوبولس ومعه ١٠٠ر٠٠٠ من الرجال تحت قيادة المنظمة • ووصل الى التلال الواقعة على جنوب السهل بالقرب من نيكوبولس فى ٢٤ سبتمبر • ونظم جيشه بطريقة عسكرية ماكرة فى موقع محصن بالقرب من قمة التل • وانتظر وقوع المعركة الهائلة المنظمة التى وقعت فى اليوم التالى • ودعا سيجمند الى وضع المجريين — الذين كانت لهم معرفة ودراية بطرق الأتراك الحربية — فى مواجهة العدو كما دعا الى وضع الولشيين معهم اذ كان يشك فى اخلاصهم ، على أن تبقى القوات الفرنسية والأجنبية فى المؤخرة من أجل الضربة الحاسمة • ولكن الفرنسيين الأقوياء أبوا تنفيذ هذا الرجاء الذى طلبه سيجمند ، واتهموه بأنه يحاول أن يسلبهم حق الفخر بيوم عظيم مشهود • وكون فرسان بايزيد غير المنظمين أول خط عثمانى متحرك فى المعركة ، وكانوا يخفون خلفهم حقلا من أعمدة مسنونة كانت تفصلهم عن الخط الثانى من المشاة الذين يستخدمون الأقواس والسهام • وحينما واجهت حواجز الأعمدة المسيحيين نزل كثيرون منهم عن جيادهم — تحت وابل من السهام — لانتزاع الأعمدة من الأرض وذلك ليفسحوا الطريق لغيرهم من المهاجمين • وسرعان ما نجحوا فى ذلك وقاموا بذبح الكثيرين من الأتراك بعد حرب متوحشة احتدم فيها القتال وجها لوجه • ثم اقتفوا أثر الهاربين منهم فوق قمة التل وقد وصلوا اليها وهم فى حالة من الاعياء الشديد معتقدين أن ذلك هو نهاية يوم عظيم •

وقد فزعوا حينما أدركوا أن ذلك لم يكن الا بداية النهاية ، اذ رأوا خلف خط الأفق فرسان بايزيد وقواته الموالية من جنود العرب تحت قيادة ستيفن لازاروفتش ، وكان عددهم حوالى ٤٠٫٠٠٠ وكان مظهرهم يدل على أنهم على استعداد لبداية مرحلة جديدة من المعركة . وانعكست المذبحة وولى المهاجمون الأدبار واقتفى أثرهم من كانوا يقتفون أثره وأسر من بقى منهم على قيد الحياة . وفى هذه الأثناء اندفعت الجياد التى لم يكن يركبها أحد والتى أهملها الفرنسيون فى بدء المعركة فى حالة من الفوضى - الى المؤخرة عبر السهول وقد أصابتها سهام الاتراك . وعندما رآها المجريون والولشيون اعتبروها رمزا أكيدا لهزيمة أصحابها حلفائهم - وكان هؤلاء قد ولوا الأدبار هاربين . ونجح سيجسموند وهو حاكم رودس ووالى نورمبرج فى انقاذهم بصعوبة على ظهر سفينة من البندقية أبحرت منحدرة مع التيار وبدأ العثمانيون فى الظهور بين المسيحيين الباقين .

وحينما سكتت أصوات المعركة وأصبح للسلطان وقت كاف لتفقد مكانها ، انزعج أشد الانزعاج لما أصابه من خسائر ، قدرت بثلاثين ألف مقاتل . ولذلك أظهر سخطه فى اليوم التالى بشنق ثلاثة آلاف من أسرى الحرب . وتبين بايزيد أن من بين الأسرى جاك دى هلى الذى كان قد استخدمه سابقا فى معاركه فى الشرق والذى كان يعرف اللغة التركية. ونتيجة لمحادثات « جاك » واتفاقاته مع الاتراك نجا النبلاء الفرنسيون من الشنق ومن بينهم : جون دى نيفير ، وانجوبراند دى كوسى ، وفيليب دى ارتوا ، وجى دى لايرموى وغيرهم . ولكنهم ظلوا رهائن تنتظر دفع جزية قدرها ٢٠٠٫٠٠٠ فلورين من العملة الذهبية . وازعجت أنباء تلك المصائب أوربا التى انتشر فيها الحزن والأسى . وحدد حظ الفرسان الغربيين العاثر فى نيكوبولس نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى فى العلاقات بين الشرق والغرب . وأخذ الأمل فى حرب صليبية ناجحة يضعف رويدا رويدا الى أن اضطر الغربيون الى قبول الأتراك عضوا فى أمم الكومنولث الأوربية بالرغم من اختلاف دينهم وعنصرهم .

وبعد الكارثة التى حلت بالفرسان المسيحيين فى نيكوبولس لم يبق

لدى الأمم أى استعداد للدخول فى مغامرات خطيرة لهزيمة قوة الاسلام أو لوضع نهاية لسيطرة الأتراك • وبدأت تخمد ثورة الدعـاية العظيمة التى ظهرت فى أوائل القرن بالرغم من وجود بعض الكتاب الذين كانوا ينادون باستئناف الحروب الصليبية• وأكثر هؤلاء شهرة فيليب دىميزيير الذى قضى سنواته الآخيرة فى عزلة فى دير بندكتينى فى باريس ، يقوم فيها بتحرير كتب متعددة ضخمة دفاعا عن الصليبية • وبعد الهزيمة فى ١٣٩٦ فى بلغاريا تناول قلمه ليؤلف رسالة هامة عنوانها « رسالةحزينة ومعزية » Epistle lamentable et consolatoire أهداهـا الى دون برجنديا •

ولقد حاول دى ميزيير أن يحلل أسباب فشل المسيحيين فى الشرق كما أخذ يصف العلاج لهذا الفشل • وقال ان سببعجز المسيحيين راجع الى نقص الفضائل الأربع اللازمة : الترتيب والنظام والطاعة والعدل • فبدلا من هذه الفضائل كان المجتمع يحكمه ثلاث رذائل من بنات ابليس وهى الغرور والطمع والرفاهية • وأعلن ميزيير أنه يمكن الوصول الىقمة الكمال Summa Ferfectio عن طريق تبنى أفكاره الدينية الجديدة التى يمكن بها انقاذ مكان مولد المسيح • وكان هذا التنظيم أو طريق الدين ذو الطابع العسكرى هو الطريق الوحيد للوصول الى حرب صليبيةناجحة وذلك اذا أمكن احياء الرغبة القديمة فى الصليبية • وعلينا أن نلاحظ أن ميزيير وصف نفسه وصفا يليق به • فقد صور نفسه حاجا عجوزا وحالما مسنا ليس فى نفسه الا صدى للأيام الغابرة •

القرن الخامس عشر

ان الهزيمة المنكرة لجيوش أوربا ومحقها واعمال السيف في خلاصة الفروسية الغربية في البلقان أيقظت الملوك المسيحيين الأقوياء على حقيقة الصليبية وزوال قيمتها كأداة لحل مشكلات الروابط بين الشرق والغرب. وعلاوة على هذا أتى القرن الخامس عشر بمشاكل وقتية جرت الى نتائج سريعة مما حول اهتمام الشعوب بعيدا عن الهدف القديم [الصليبية] فاستئناف حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا بما فيها من تخريب متوحش قاس – من ناحية – وحركة الصلح لانهاء الانقسام الكبير في الكنيسة الغربية – من جانب آخر – كل هذا قد استحوذ على اهتمام الشعوب في كل أنحاء أوربا الغربية .

وبالرغم من ذلك فمن الخطأ الاعتقاد بأن الصليبية – فكرة وعملا – قد خمدت . فمع أن الحركة الصليبية قد بدأت تفقد مميزاتها وطابعها يمكن اقتفاء آثارها في سلسلة من النضال المحلي لايقاف التوسع العثماني في أوربا الشرقية وفي الشرق :

فأولا : أصبحت برجنديا – التي كانت تتحمل النصيب الأكبر من الجزية الكبيرة التي تدفع للسلطان بايزيد الأول لاطلاق سراح أسرى الحرب – مركزا للتدبير من أجل الانتقام . وقد أدى هذا الى انتاج أدبي للدعاية للصليبية بقي محصورا في النطاق النظري .

وثانيا : أصبحت امارات شرقي أوربا الوسطى تحت قيادة مملكة المجر حصنا قويا للمسيحية . وكثيرا ما كانت تسمى أية مقاومة في تلك المنطقة باسم الصليبية المجرية .

وثالثا : كان يتميز منتصف ذلك القرن بأماني البطولة اليائسة من أجل الدفاع عن مدينة القسطنطينية التي كان الأتراك يحاصرونها بصفة تكاد تكون مستمرة حتى انتهاء الامبراطورية البيزنطية . ومجمل القول

ان كل ما قام من حروب دفاعية.ضد العثمانيين بعد ذلك كان يقوم تحت اسم « الصليبية » وهو اسم على غير مسمى ٠

وحتى ذلك الحين كان فيليب الصالح دوق برجنديا تراوده فكرة قيادة الحرب المقدسة ، ولكنه كان يفضل أن يتقدم بكل حذر حتى يتجنب أية كارثة أخرى ٠ وحتى يفهم مركز عدوه فهما كاملا أرسل اثنين من سفرائه واحدا بعد الآخر الى البلاد فيما وراء البحار لمحاولة جمع المعلومات الحقيقية عن سياسة الاســلام ، ولكى يكتبا تقريرا ومعه كل توصياتهما ٠ وكان أول المبعوثين الاثنين جلبرت دى لانوى الذى قضى السنوات من ١٤٢٠ الى ١٤٢٣ فى الشرق الأدنى أما الثانى فكان برتراند دى لابروكيير الذى دامت سفارته من عام ١٤٣٢ الى ١٤٣٩ ٠ وبينما كرس لاتوى معظم وقته واهتمامه لمصر والأرض المقدسة قام دى لابروكيير بالحج الى أورشليم وكل الأماكن المقدسة حتى سيناء ثم اتجه شمالا حيث بدأ بحوثه عن أرمينيا والأناضول وبيزنطة وفوق كل هذا حدود البلقان التى كانت فى حوزة العاهل التركى العظيم ٠ وزار بلاط السلطان مراد الثانى (١٤٢١ — ١٤٥١) فى أدرنة وكان تعليقه أن الأتراك أكثر صداقة للاتينيين مما كان اليونانيون للاتينيين أنفسهم ٠ ووصف الجيوش التركية وأسلحتها وكل أنظمة العثمانيين العسكرية ، حتى يحيط الدوق علما بكل ما يتصــل بالعثمانيين من أمور ٠

ومن أصحاب الدعاية للصليبية التابعين للبلاط البرجندى الأسقف جان جرمين الذى كان مستشارا لجماعة « الصوت الذهبى » Golden Fleece وكان هذا مختلفا فى شخصيته عن غيره من الدعاة الصليبيين ولقد أعد خطابا سياسيا يبرهن فيه على أن الموقف العام لا يزال فى خدمة المسيحيين أكثر مما هو فى جانب المسلمين وأن الوقت لم يفت بعد لاستئناف الحركة الصليبية ٠ وقد كتب جان جرمين ذلك ليلة سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٢ ٠ ويبدو انه كان مهتما بموضوع الاتحاد الدينى بين المسيحيين الشرقيين مع روما . ذلك الاتحاد الذى تقرر فى مجلس فلورنسا عام ١٣٤٩ وكان حسب تقديره سوف يضم لصفوف الصليبية ٢٠٠ر٠٠٠ محارب من أرمينيا ، و ٥٠ر٠٠٠ من جورجيا ، وبعض المرتزقة من الامبراطوريات

اليونانية للقسطنطينية وطرابيزون ، واليعاقبة الأحباش ، وروسيا ، والقديس جون من الهند • وكانت الصورة المزدهرة التى رسمها للقادة المسيحيين ذات قيمة ثانوية لأن كاتبها قد أقام مناقشـاته على أسـاس الأمانى التى يريدها وعلى أساس خياله ورغباته لا على أساس المعرفة الحقيقية • فهو لم يكن له اتصال مباشر أو معرفة مباشرة عن الشرق ؛ وقد استقى معلوماته من مصادر متعددة • [فوز جديد] وقد برق وميض الأمل فى الدفاع عن المسيحية من الشعوب التى تعانى الطغيان فى شرقى أواسط أوربا ، وبدأ هذا فيما أطلق عليه اسم الصليبية المجرية على حين أخذت التعزيزات الآتية من الغرب تقل تدريجيا وكان محور الشخصيات فى هذا الصراع جون هنيادى (١٤٤٤ ـ ١٤٥٦) نائب ملك المجر ، وأمير ترانسلفانيا وقد ذكر تاريخه البطولى فى القصص المعاصرة فى تاريخ البلقان الذى تضاف اليه الأحداث التاريخية كل عام • وكان لهجومه الحماسى على الأتراك الأثر الذى كاد يؤده الى النهاية الفاجعة لحكم مراد الثانى (١٤٢١ ـ ١٤٥١) وقد بدأت القصة بهجوم السلطان المفاجىء عام ١٤٣٨ على ترانسلفانيا عبر الدانوب حتى مدينة هرمانستد شمالا وحتى أبواب بلغراد فى صربيا غربا ، وفى هذا الموقف الخطير الدقيق ظهر على المسرح هنيادى مع لاديسلالس الذى كان ملكا على بولندا (١٤٣٤ ـ ١٤٤٤) والمجر منذ ١٤٤٠ كما ظهر جورج برانكوفتش طاغية صربيا (١٤٢٧ ـ ١٤٥٦) •

وفى بادىء الأمر قاد كل من القادة الثلاثة قوات ضد قوات الأتراك ، وكان كل منهم مسـتقلا فى نطاق مملـكته • وحينما عاود مراد غـزو ترانسيلفانيا فى عام ١٤٤٢ هزم فى هرمانستد وخسر عشرين ألفا من القتلى • وفى غضبه قام بمحاولة ثالثة يائسة للاغارة على المدينة ولكنه قاسى مثل النتائج السابقة • ولقد أسر هنيادى خمسة آلاف من المحاربين الأتراك ومائتى غـلام عثمانى • وذهبت أدراج الريـاح تلك القصـة التى كانت تؤكد أن قوة الأتراك لا يمكن قهرها ، وتشجع هنيادى فى أن يتخذ موقف الهجوم جنوب الدانوب بدلا من موقف الدفاع الذى كان يلتزمه من قبل . شجعه على ذلك وصول عدد من القوات الصليبية اللاتينية المتفرقة

(١) Voyavode لقب يوجوسلافى بمعنى «أمير» (المترجم)

تحت قيادة الكاردينال جوليانَ سيسارين عام ١٤٤٣ على اتخاذ موقف العدوان جنوب الدانوب • وقد سار جون هينيادى ثانية ومعه الملك لاديسلاس ، وجون برانكوفتش الى داخل صربيا وحقق نصرا جديدا اذ هزم الأتراك فى نيش (Nish) قبل أن يستولى على صوفيا العاصمة البلغارية • وحتى الألبانيون الذين كانوا جنود مراد المأجورين قد شجعتهم تلك الانتصارات المؤقتة على الجرأة حتى انهم توقفوا عن خدمة الحكومة التركية وأعلنوا الثورة الصريحة المكشوفة تحت قيادة كاستريوتا الذى كان مشهورا باسم سكاندربرج • وفى ١٥ يوليو عام ١٤٤٤ اضطر مراد الى توقيع اتفاقية سجدين Szegedin مع انفراد المتحالفين ضده • ومن شروط تلك المعاهدة عودة جورج برانكوفتش الى صربيا وأن يدفع السلطان جزية قدرها ٦٠٫٠٠٠ دوكات ذهبية من أجل الافراج عن أزواج بناته المعتقلين، كما وافق الجميع على عقد هدنة مدة عشر سنوات • ولكن هذه الهدنة قد خرقت فيما بعد تحت ضغط الكاردينال سيسارينى ؛ وفى النهاية اضطر السلطان البائس الى التخلى عن سلطانه واختفى من مسرح المعارك متوغلا فى الأناضول •

وانتعشت الآمال ثانية فى الغرب بمجرد سماع أخبار الانتصارات الجديدة ، فتسلم فيليب الصالح دون برجنديا (١٤١٩ — ١٤٦٧) منصب سفير من قبل الامبراطور البيزنطى جون الثامن (١٤٢٥ — ١٤٤٨) طالبا التأييد من بلاط شالون سير ساوون Chalons-sur Saône ، ولذا جهز أربع سفن حربية تحت قيادة جوفروى دى توازى ، ومارتن الفونس ؛ وقدم البابا ايوجينيوس الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) بعض السفن تحت قيادة ابن أخيه فرانسسكو كوند ولميرى لمحاربة الأتراك • فاشتعلت نيران الصليبية مرة أخرى وقوى مركز الكاردينال سساروني عندما حث هنيادى على خرق الهدنة التى لم يكن لها قوة من حيث المبدأ اذ أنها عقدت مع شخص اعتبروه كافرا • وعلاوة على ذلك وعد أمير ترنسلفانيا بتاج بلغاريا بمجرد تحريرها نهائيا من نير الأتراك •

وكان الهدف الأول للقوات المتحالفة هو الحصول على بلدة فارنة الواقعة على ساحل البحر الأسود • وفى طريقهم اليها ساعد الأسطول

المسيحى الآتى من الغرب فرسان القديس يوحنا الذين كان يحاصرهم المصريون وهم فى قلعتهم فى جزيرة رودس خلال عام ١٤٤٤ • وتقدم رجال الحرب ــ فيما بعد ــ الى البحر الأسود مباشرة يشتركون فى حصار فارنا المدينة القوية التى كانت محاصرة من قبل من جهة البر والتى كانت الحشود المعادية تضربها بشدة تحت قيادة هنيادى الجرىء • وبدأ للعيان أن هذا النصر التانى سوف يتحطم حينما عاد السلطان فجأة على رأس قوة قوامها ٤٠٫٠٠٠ ممن قد نقلهم أهل جنوه من آسيا الى أوربا من أجل الكسب والوعود بمميزات التجارة • وأثناء حدوث القتال المميت خارج فارنا سـقط كل من لاديسلاس والكاردينال سيسـارينى تاركين عبء العمليات الدفاعية على أكتاف هنيادى وحده ، وانهارت معنويات البولنديين واللاتينيين بسبب اختفـاء قوادهم المفاجىء من أرض المعـركة ، وواجه المجريون الاستئصال الكامل من عدد لم يمكنهم قهره • ولم يجد هنيادى بدا من الهرب فى ١٠ نوفمبر عام ١٤٤٤ وذلك لانقاذ البقية الباقية من جيشه المنهار •

ومع ذلك استمرت الثورة الألبانية تحت قيادة سكاندربرج الشجاع حتى عام ١٤٤٨ ، حينما جمع هنيادى من جديد جيشا آخر يبلغ ٢٤٫٠٠٠ وعبر الدانوب عند البوابة الحديدية لغزو صربيا • وكان مراد ينتظره على رأس جيش ممتـاز يبلغ ١٥٠٫٠٠٠ • وتقابلوا فى الموقع القـديم كوسوفو بولاى Kossovo-Polye فلم تنقذ بطولة هنيادى وشجاعة أتباعه وقوع الكارثة بجيشه • فان قلة عددهم عن أعدائهم ، واضطراب نظامهم ، وعدم احكام الخطط من الألبانيين والمجريين ، ونفاذ البارود من أيدى مشاة الألمان والبوهيميين مما جعل بنادقهم غير ذات قيمة ، والشك فى ولاء الولشيين • كل هذه كانت العوامل التى ساهمت فى مأساة المعركة الثانية فى كوسوفو (١٧ ــ ١٩ أكتوبر عام ١٤٤٨) والتى أنهت الصليبية المجرية بابادة كاملة لم تستطيع مقاومتها • وربما كانت النتيجة الوحيدة الأكيدة لهذا الفصل المؤلم فى تاريخ الصليبية اطالة عذاب الامبراطورية البيزنطية المتعثرة سنوات قليلة أخرى • فحتى قبل سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ كان معظم أفراد الأسرة الحاكمة معترفين وراضين عن حكم السلطان لتلك المدينة الرئيسية • وبعد موت جون الثامن عام ١٤٤٨

رجا اخوته الثلاثة السلطان مراد الثانى الموافقة على حقوقهم فى الخلافة على العرش الامبراطورى. ووقع اختيار السلطان على قسطنطين دراجاسس آخر امبراطور قـدر له الدفاع عن المدينة بحياته • وقـد وصف بعض المعاصرين الدفاع عن هذه الدعامة الأخيرة فى المسيحية الشرقية بالصليبية، واشترك فيها بعض القرى المنفصلة من الغرب المسيحى • ومع ذلك فان قصـة النصر بدخول السلطان محمد الثانى (١٤٥١ ـ ١٤٨١) الى القسطنطينية فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣ يجب اعتبارها سببا لانهاء نضال الأتراك ضد الصليبية وسوف يعالج هذا الموضوع فى موقع آخر من هذا الكتاب •

وبالرغم من أن سقوط القسطنطينية النهائى على أيدى العثمانيين عام ١٤٥٣ كان متوقعا منذ زمن بعيد فان وقعه على أوربا المسيحية طولا وعرضا كان شديد المرارة والألم ، وأصبح هرب كثير من الشخصيات اليونانية للالتجاء الى الغرب تذكرة حية للحوادث القائمة فى أوربا الشرقية. وقد استقر توماس آخر البلايلوجيين وأخو قسطنطين دراجاسس نهائيا فى البلاط البابوى (*) الرومانية عام ١٤٦١ وأخذ معه رأس الرسـول اندراوس احدى البقايا المقدسة التى لا تقدر بثمن وكان قد أنقذها من التدمير • أمـا البابا بيوس الثـانى (أنياس سيلفياس بيكولومينى) (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤) وكان مرتبطا فى الماضى بفكرة الصليبية التى كانت تموت رويدا رويدا باعتباره مبشرا مخلصا للحرب المقدسة ، فقد أدعى أنه الامبراطور المنتظر وأخذ الصليب بنفسه ودعا جميع الملوك الأوربيين للاشتراك فى حرب صليبية عالمية من أجل استرداد بيزنطة ، والاستيلاء ثانية على الأرض المقدسة • وجاءت الاستجابة الوحيدة لدعوته من فيليب الصالح الذى وعد باتباع البابا المقدس ومعه ستة آلاف رجل• وبعد ذلك بقليل طلب دوق برجند فترة استراحة مدتها سنة ، وألقى اللوم على لويس الحادى عشر الذى كان ينوى الشر لدوقيته • وفى الحقيقة كان بيوس الثانى نفسه يعانى المرض الشديد فى ذلك الحين ، وبموته فى عام ١٤٦٤ دفن معه المشروع بأكمله • أما بول الثانى (١٤٦٤ ـ ١٤٧١) وارثه

(*) Curia Romana.

وخليفته على العرش فقد كان أقل طموحا ولكنه كان عمليا أكثر منه . فأصر على ارسال النقود التى جمعت من أجل الصليبية الى المجر والبندقية مشاركة منه فى تكاليف حروبهم المتقطعة مع الأتراك . ولقد تلاشى النداء الى الحرب الصليبية تدريجيا بالرغم من أن صدى هذا النداء ظل يرن فى عقول الأمراء الغربيين حتى القرن السابع عشر . وحاول البابا اينوسنت الثامن (١٤٨٤ – ١٤٩٢) بلا فائدة أن يجدد فكرة لارسال حملة ضد الأتراك . وشجعه على ذلك أن أخا بايزيد الثانى وغريمه فى نفس الوقت جم وصل الى روما هاربا من عدالة أخيه . ورأى أنوسنت الثامن أن يشعل ثورة فى تركيا لمصلحة من أتى ليحتمى به ، ولكن يقال ان رسل السلطان أقنعـوه بالتوقف عن تنفيـذ ذلك المشروع وذلك بمنحـه جائزة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ من الدوكات الذهبية مقابل تسليم جثة جم .

وجاء الاسكندر السادس (١٤٩٢ – ١٥٠٣) بعد البابا انوسنت وأصبح البطل الحقيقى فى تلك المأساة الغامضة بالاشتراك مع ملك فرنسا شارل الثامن (١٤٨٣ – ١٤٩٨) وسلم البابا المقدس أسيره للملك . وبعد ذلك نسمع عن وفاة جم غير الطبيعية خلال عام ١٤٩٥ ، وبذلك تخلص السلطان من هذا التهديد . وفى الحال بدأ من جديد توغله المفاجىء فى المجر وكرواتيا [حاليا يوغوسلافيا] ومولدافيا حتى وصل الى بولنده البعيدة . وحل السلام بعد معاهدة عام ١٥٠٣ التى منحت أوربا فترة من الزمن قدرها سبعة عشر عاما تسترد فيها أنفاسها . واتخذ كل من البابوات وملوك الغرب موقفا محايدا ، ولكنهم ظلوا مستعدين للدفاع عن أنفسهم ، وأخذوا ينتظرون خائفين من الخطوة التالية التى يتخذها الباب العالى . وفى عام ١٥١٥ فكر البابا ليو العاشر (١٥١٣ – ١٥٢١) جديا فى تجديد العداء ضـد الامبراطورية العثمانية بالاشتراك مع فرانسيس الأول ملك فرنسا (١٥١٥ – ١٥٤٧) ومكسميليان الأول (١٤٩٣ – ١٥١٩) امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولكن خطتهم بقيت فى نطاق النقاش ولم تخرج الى حيز التنفيذ . وربما كان العمل الايجابى الوحيد الذى تم فى تلك الفترة هو أن الامبراطور شارل الخامس (١٥١٩ – ١٥٥٦) قد أعطى فرسان القديس يوحنا مأوى جديدا فى جزيرة مالطة عام ١٥٣٠ بعد أن طردهم السلطان سليمان العظيم (١٥٢٠ – ١٥٦٦)

من رودس • وبعد ذلك نزل عدد من الانفصاليين عن الامبراطورية في الجزائر خلال عام ١٥٤١ وعلى شواطيء المهدية مرة ثانية في علم ١٥٥٠ ، وذلك لكي يؤدبوا القراصنة المتوجشين • ومن ناحية أخرى حفزت تلك الانتصارات الثانوية التي حققها الامبراطور عدوه فرانسس الأول أن يغير سياسة فرنسا تجاه انهاء التحالف الذى تم عام ١٥٣٦ مع الباب العالى وتحددت به البداية المشهورة للتسليم للعدو • ولم تستطع أوربا أن تقف تقدم الغزوات التركية الا عند أبواب فينا عام ١٥٢٩ وفى مياه لبانتو (*) عام ١٥٧١ •

وبعد ذلك انتقلت الحروب التركية الى أوربا الوسطى لتصبح حروبا محلية • وفي القرن التالى لا نسمع عن تحرير أورشليم من حين الى حين الا كحلم من الأحلام • وقد تحدث الكاردينال ريشلييه (١٥٨٥ – ١٦٤٢) والدبلوماسى الفرنسى المشهور الأب يوسف (١٥٧٧ – ١٦٣٨) عن الأرض المقدسة وعن كيفية انقاذها • وحينما نزل فرديناند الأول ملك توسكانى الى جزيرة قبرص خلال (١٦٠٧ – ١٦٠٨) حاول أن يثير رعايا الأتراك الغاضبين ليشتركوا فى عمل ايجابى ضد سيدهم السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ – ١٦١٧) ولم تؤد المحاولة الى أية نتائج عملية ، وذلك لأن فرديناند نفسه مات بعد ذلك بقليل عام ١٦٠٩ • وفى تلك السنوات كتب أب اسـمه جيوفانى دومنيلى أحد الـكهنة الايطاليين وكان يعيش فى القاهرة فى ذلك الحين ، ما يعتبر آخر وثيقة للتبشير تلخص مشروعا لانقاذ أورشليم والأماكن المقدسة • وفيها يقول ان الوقت كان مناسبا للغاية للنزول فى فلسطين حيث أن السلطان مشغول بالحرب فى جبهات متعددة فى آسيا وأربا على حين كان رجاله تملأهم روح التمرد ، وفى الوقت نفسه كان رعاياه المسيحيون ينتظرون الوقت المناسب ويهيئون الفرص لثورة ضد الحكومة وذلك لانهاء نير الاستعباد الثقيل • ولم يسمع صوت الأب دومينلى الخافت فى ذلك العالم المتغير وأصبحت أيام الصليبية مجرد ذكريات •

(*) بالقرب من كورنثوس باليونان •

الفصل الرابع

النتائج : مناهضة الصليبية

نتائج الحروب الصليبية

عند مناقشة نتائج الحروب الصليبية يجب التمييز بين نتائج تاريخ العالم من جهة ، والتأثيرات المحلية المنفصلة ذات الطابع الخاص بناحية معينة أو مؤسسة أو مجتمع من جهة أخرى • فالقسم الأول يتضمن مناهضة تجارة الصليبية وثقافتها ، وسنتناولها هنا بشيء من التفصيل • فقد صارت مناهضة الصليبية رد الفعل المباشر من العالم الاسلامي لمضايقات الصليبية في الشرق الأدنى • فان ظاهرة التطور في تجارة الشرق في أواخر الفترة الوسطى جاءت نتيجة طبيعية منطقية لمعرفة الأوربيين لامكانيات الأسواق الشرقية الواقعة على نهاية الطرق التجارية البرية للقوافل والبحرية في آسيا ؛ أما موضوع الثقافة فان مناطق الاتصال بين المسلمين والمسيحيين يجب أن تمتد فيما وراء فلسطين الى صقلية واسبانيا في أواسط البحر الأبيض وغربيه • وفي الحقيقة ان تأثير حضارة العرب وأفكارهم كان قويا في كل من صقليه واسبانيا ، ولكنه أخذ يتلاشى في الشرق الأدنى • وسوف يحدد مدى الدور الذى قامت به المسيحية في كل من هاتين الجبهتين في الصفحات التاليه •

كان الباحثون ــ يوما ما ــ يبالغون في تقدير آثار الحروب الصليبية ، وكان كل تغيير في المجتمع الأوربي في نهاية العصور الوسطى يعزى الى

حد ما الى تأثير ذلك الانقلاب التاريخى ؛ ولكن ذلك انقلب فجأة وعالجت مدرسة حديثة موضوع الصليبية باعتبارها حوادث مركزية وغير مترابطة لا أثر لها على الاطلاق فى المجرى العام للتاريخ • هناك اعتراض على كل من الاتجاهين لأن كليهما لا يمثـل الحقيقة كاملة • فليست نتائج الصليبية متماثلة فى كل الأحيان وفى كل المجالات • وسوف تقدر كل حالة أو كل مجال حدث فيه هذا الأثر ككيان منفصل حتى يمكننا تقدير حقيقة ارتباطه بالحركة كلها •

ولنبدأ بذكر آثار الصليبية التى كان لها تأثيرها فى الكنيسة وادارتها المركزية فى البلاط البابوى • فقد حققت البابوية انتصارات عديدة حاسمة على الكنيسة الرومانية المقدسة فى المنافسة على منح الألقاب ، وأصبح الأباطرة أذلاء وانحدروا الى مركز ثانوى فى السياسة العالمية • وكان البابا المقدس قد خطا خطوات ضخمة فى طريقه الى السيطرة الدولية وبدمت الصليبية لاربان الثانى وخلفائه قاعدة دستور جديدة قوية ذات مظهر عالمى من أجل سياسـه بابوية خارجية أجنبية • وهكذا سارت الكنيسة فى طريق حرب الصليب • وكان يصاحب كل حرب صليبية رسول البابا ليكون « وكيل » الله فى حقل العمل يصدر الأوامر العليا للقوى المسـلحة • ولكن علينا أن نتذكر أنه فى داخل حدود جمهورية أورشليم اللاتينية ، كانت السلطات المدنية تعارض الاتجاه الى جعل الحكومة خاضعة للكهنة ، ونجحوا الى حد ما فى كبح جماح البابا فى الحكومة الجديدة • وبالرغم من أن الجميع كانوا يعترفون بقوة البابوات على الحكم وفى الدعاية للصليبية ، فانه لم تعط لهم الحرية فى قيادة الحرب الحقيقية الا فى أحوال نادرة مثل المرحلة الأخيرة فى الحرب الصليبية الخامسة • وان تحول الصليبية من الحرب ضد المسلمين فى الشرق من أجل تحرير الأماكن المقدسة الى اكراه المسيحيين فى أوربا الغربية سواء أكانوا كفرة مثلما حدث فى صليبية ألبى [مدينة فى جنوب فرنسا] أم كانوا أعداء شخصيين للبابوية مثل فوردريك الثانى • كل هذا أصبح عاملا

فى اضعاف سلطة البابا واثارة التشكك فى الروح والمغزى للحركة بأكملها • وقد ظهر نوع من التحرر من القيود قلل من شأن البابوية نتيجة ذهاب المتدينين من الناس بالذهاب الى الحروب الصليبية بدلا من دفع العشور •

ومن النتائج الهامة للصليبية ابتداع النظم العسكرية للدين • ومن أبرز هذه القوات الدينية المحاربة : الداوية ، والفرسان البيض • ومع أن اشتراكهم فى الحرب الصليبية كان مستمرا ، فقد بدأوا فى الحال يساعدون الاتجاهات المستقلة مثل التنظيمات نصف الدنيوية بسياستهم الخاصة التى كانت تتعارض معهم وتؤدى الى احتكاكات مكشوفة بينهم ؛ وأصبح الداوية — علاوة على ذلك — الرواد الأوائل فى نظام البنوك الدولية فى أوربا خلال العصور الوسطى • وبهذه الطريقة انحرفوا باخوتهم عن العهد الذى أخذوه على أنفسهم عند مبدأ تكوينهم مما عجل بسقوطهم وتدمرهم الكامل على يد المملكة الفرنسية عام ١٣١٠ • وقد صدر التأييد البابوى لذلك عام ١٣١٢ بعد أكثر المحاكمات افتراء وبشاعة فى أى عهد • ومن جهة أخرى فان الفرسان البيض ظلوا أقوياء قرونا عدة • وحينما طردوا من الأرض المقدسة بعد سقوط عكا عام ١٢٩١ التجأوا الى مملكة جزيرة قبرص بضع سنين وبعد ذلك استولوا على رودس التى أصبحت مقرا لهم حتى طردهم منها السلطان سليمان العظيم وضم الجزيرة لتركيا عام ١٥٢٢ وفى هذه المناسبة اعطاهم الامبراطور شارل (١٥١٩ — ١٥٦٦) مالطة حيث استقروا الى أن هزمهم نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ وهو فى طريقه الى مصر •

وقد برزت أنظمة عسكرية أخرى أثناء تلك الفترة خارج الأرض المقدسة ؛ فقد أسس انوسنت الثالث عام ١٢٠٤ نظام السيف The order of the Sword ، وخلقت الفروسية التيوتونية أثناء الحرب الصليبية الثالثة ، وتحالف الاثنان فيما بعد من أجل القضاء على الالحاد فى بروسيا.

وهذه الحالة هي التي أدت الى قيام جهودهم العظيمة • وربما كانت أكثر ردود الفعل لتحويل الأنظمة الدينية بصفة مستقرة الى دنيوية قيام الأنظمة الجديدة للاستجداء وأولها وأهمها نظام الفرنسسكان او الأخوة الصغار (١) ويرجع انشاؤها الى القديس العظيم فرنسيس الأسيسى (١١٨٢ ـ ١٢٢٦) بعد عودته الى ايطاليا من الحروب الصليبية المصرية (١٢١٨ ـ ١٢٢٠) • ويلى هذا النظام في الأهمية نظام الدومنيكان الذى كرس أعضاؤه أنفسهم لمعارضة كل ما يناهض الكهنوتيه والى محاربة التهديد الجديد للبدع الألبيجينية وكان مؤسس هذا النظام القديس دومنيك وهو اسبانى متحمس كان يهتم بواجبات الوعظ في النظام الدومنيكى (٢) • وقد أدت خدماتهم الى حصولهم على الموافقة البابوية من انوسنت الثالث عام ١٢١٥ •

وفى الحقيقة ان أحكام هذين النظامين قد صمما على طراز واحد • فكلاهما كان شديد الاهتمام بعوامل الفقر ، ويهدف الى الايعاز بالتأجيل تجاه مناطق نفوذ البابا وخاصة في المناطق المتحضرة المتمدنة حيث ربطوا الدعوة الدينية بالتعليم العام • وانه لمن سوء الحظ أن يتورط الدومنيكان في عنيف محاكم التفتيش ضد الكفر • ومن جهة أخرى وسع الفرنسسكان نشاطهم في معركة التبشير خارج البلاد • وكثيرا ما كان يطلق على عملهم في آسيا اسم الصليبية المنغولية لأنهم خطوا الخطوة الأولى اذ عبروا قارة آسيا بأكملها محاولين ادخال التتار في المسيحيه • وكان هدفهم من ذلك أن يتحد الشرق الأقصى مع الغرب المسيحى في هجوم شامل على الامبراطورية المسلحة في الشرق الأدنى • ومن الضرورى ربط كل تلك التطورات التاريخية الى حد ما بعصر الصليبية •

أما من ناحية السياسة فقد ساعدت الصليبية على تطور القوة المركزية

---

(١) كان يطلق عليهم أيضا اسم الرهبان الرماديون نسبة الى اللون الرمادى لملابسهم •

(٢) وكانوا يسمون أيضا الرهبان السود •

للملكية على حساب نبلاء الاقطاع • فان فقر الاقطاع نتيجة للاشتراك فى حرب مرتفعة التكاليف فيما وراء البحار قد قلل من نفوذ الارستقراطية فى موطنها الأصلى • وقد رهن بعض النبلاء أراضيهم ومقاطعاتهم • وباع البعض حقوقهم الشرعية فى الارث ، ومات بعضهم دون أنجاب أطفال وتنازلوا عن ولاياتهم لصاحب التاج • وفى تلك الأثناء فرضت ضرائب ملكية من أجل الابقاء على الأرض المقدسة وقد فرض تلك الضرائب لويس السابع ملك فرنسا عامى ١١٤٦ ، ١١٦٥ ، وهنرى الثامن ملك انجلترا عامى ١١٦٦ ، ١١٨٤ ، وفيليب أوغسطس عام ١١٨٤ مدة ثلاث سنوات • وفرضت « عشور » صلاح الدين فى كل من انجلترا وفرنسا عام ١١٨٨ بعد سقوط أورشليم • ويمكن ــ الى حد ما ــ ارجاع البداية المتواضعة لنظام الضرائب الحديث الى حالات فرض الضرائب والواجبات من أجل الصليبية • وعلاوة على ذلك ما ان بدأ الاقطاع يأخذ طريقه الطويل للتلاشى حتى بدأت الطبقة الوسطى الجديدة تخرج وئيدا الى حيز الوجود • وكان أهل المدن يشترون حريتهم من النبلاء المجندين المشتركين فى الصليبية ويتحالفون مع الملكية ضد أى اعتداء قد يقوم به مستقبلا سادة الأرض من أمراء الاقطاع هؤلاء • وكان هذا التحالف بين البرجوازيين والتاج هو ما أبرز الوطنية الحديثة أولا فى صورة الملكية التى كانت موجودة حينما تفتت الاقطاع عاجلا بعد الحروب الصليبية • وبهذه الطريقة بدأت نواة الولايات الحديثة فى الظهور تدريجيا حول شخصيات الملوك • وبرهن هذا على قيام ثورة اقتصادية اجتماعيه كان مقدرا لها أن تغير وجه أوربا فى أواخر العصور الوسطى •

وقد تأثر فى النظام العسكرى فى أوربا فى العصور الوسطى تأثرا شديدا باتصال أوربا المباشر باليونانيين والعرب • ومن الطبيعى أن يكون اللاتينيون مهيئين لتحسين فنونهم الحربيـة فى مواجهة الخطـر الدائم ، وقد ساعدهم على ذلك استقرارهم مسلحين على أرض خليفة • وان تحقيق ذلك فى بناء القلاع والحصون بجدران مزدوجة ومركز محصن يرجع الى

أصل شرقي بالرغم من أنه كثيرا ما يناقش على أنه تطور ونتيجة طبيعية أملتها الرغبة في زيادة العقبات في طريق القوى المعادية التي تضرب الحصن • وعلى كل حال فالحق ان أول مثال لقلعة أوربية بنيت على الطريقة الحديثة هي قلعة جيلارد التي شيدها ريتشارد الأول في نورمانديا بعد عودته من الحروب الصليبية الثالثة •

وانعا نستطيع رد بعض الخواص الأخرى الى تأثير الشرق • ومن بينها دخول الآلة في الوسائل العسكرية وكان المزغل [آلة لالقاء القاذورات على العدو] فتحة بين افاريز الجدار الخارجي أو على أرض الممرات أو على سطح بوابة القلعة — من أجل اسقاط سوائل في حالة غليان أو رمي بعض القذائف على المغيرين من الخارج — وقد عرفت تلك الطريقة منذ أمد طويل في الشرق • وتظهر أمثلة من المزاغل في الأبنية المحصنة والقلاع ، وفي أسوار المدن في مصر والأرض المقدسة قبل أن يتبناها مهندسو المباني العسكريون في غرب أوربا • واصبحت طرق الحصار وخاصة حفر الخنادق والمناجم واستخدام النيران اليونانية والمنجنيقات من الاختراعات التي كانت الصليبية مسئولة عنها في أوربا • وكان القوس ذو الزناد أيضا سلاحا شرقيا • وقد أخذت فكرة العباءة من المحاربين المسلمين الذين كانوا يستخدمونها للوقاية من وهج الشمس الواقعة على الأسلحة المعدنية • وقد نقلت فكرة الحشو بالقطن تحت الدروع المصنوعة من الصلب الى أوربا تقليدا لاستخدام العرب لها في المعركة • والغطاء الذي يستخدم لحماية الرأس من شمس الشرق القاسية ما هو الا الكوفية العربية بمعناها الحرفي • والبوجاس تشبه الى حد بعيد لعبة التحطيب وهي من الألعاب المشهورة في الشرق • واستخدام الحمام لنقل الرسائل الحربية كان قديما من الشرق وقد قلده الصليبيون • ومن ناحية استخدام الرسوم والرموز على الدروع كان هذا منتشرا في عصر الصليبية ويمكن ارجاع كثير من الرموز الغربية الى أصل شركسي • وزهرة الزنبق والصقر ذو الرأسين ، والأسد والكأس ومضارب البولو : كلها جاءت من بين أمثلة عديدة لرموز كانت معروفة في الشرق قبل الصليبية •

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن الكتابة الفرنسية العامية كانت تلقى دفعا عظيما خلال فترة الصليبية • فى « تاريخ الحرب المقدسة » الذى كتبه أمبرواز • و « انهزام القسطنطينية » الذى كتبه فلهاردون • و « تاريخ القديس لويس » الذى كتبه جوانفيل • و « تاريخ هرقل » الذى كتبه وليم الصورى • و « حركات القبارصة » ، و « أنشودة انطاكية » ، و « الاستيلاء على الاسكندرية » الذى كتبه جيوم دى ماشوه ، و«انشودة الصليبيين الألبانيين » كل هذه وغيرها تكون جزءا من الدورة الأدبية للصليبية باللغة الفرنسية ذات اللهجة القديمة • وبالرغم من العداء بين الجانبين فاننا نستطيع قراءة ما بين السطور وهو يبين اتجاها ناميا نحو الفهم والدين فى أدب ذلك العصر • فمثلا حينما كتب رئيس الأساقفة وليم الصورى ــ عن العرب فى ذلك العصر ، كتب عن استيلاء المسلمين الأول على الأرض المقدسة قائلا : لقد سمحوا للمهزومين على كل حال بالابقاء على الكنائس المخربة وأن يكون لهم قسيسهم وان يتبعوا الدين المسيحى بلا أية قيود • وكان وليم نفسه يتحدث اللغة العربية ويقدر العالم الشرقى الذى كان يعيش فيه منذ طفولته المبكرة •

وكان من الواضح أن الصليبيين قد عادوا الى بلادهم ومعهم الكثيرمن الأدوات الجديدة ذات القيمة الهندسية ، ويشير جيبون Gibbon الى أن استيراد الطواحين الهوائية من آسيا الصغرى يعد من أعظم الفوائد لدول أوربا • وقد أدى اختلاط المحاربين الأجلاف بالحضارة العظيمة الىاستخدام الحمامات العامة والخاصة • ومن هذا الطريق نفسه عرفت أوربا لأول مرة السماد وبدأت فى استخدامه ، كما راقب الفنيون والبناءون منالصليبيين بكل دهشة أعمال النحت والصب الهائلة التى امتاز بها السوريون من قديم الزمان ، فرجعوا الى بلادهم يحملون مثلا فنية جديدة ليضعوا أساس الطراز القوطى فى أوربا • كما أن طريقة صنع الزجاج المنقوش وطريقة صنع الأسلحة من الصلب فى دمشق وهى التى بقيت سرا حتى ذلك الحين ، نقلها الصليبيون الى المصانع الأوربية أثناء الصليبية • أما عن

الحرير والسكر والكثير من الكماليات فقد جاء بها الصليبيون أيضا • على أننا سنعالج هذا الموضوع عندما نتحدث عن التجارة فى العصور الوسطى •

وجاءت روح المخاطرة التى يتميز بها حملة الصليب بعصر الكشف والاستكشاف فقد أدى الاهتمام بالمغول الى فتح الطريق الى الصين البعيدة عبر الطرق التى لم تكن قد طرقت بعد فى آسيا الوسطى • وكان نشاط ارسالية الكنيسة الرومانية التى بعث بها لويس التاسع وتولى أمرها البابوات ، من المميزات الهامة البارزة فى ذلك العصر • ومهما يكن من شىء فمن الواجب أن تذكر أنه بموت جياكومو الفلورنسى آخر البطاركة اليونانيين فى مملكة خان بالق عام ١٣٦٢ انتهى فجأة أى تطلع الى الاتحاد مع المغول • ومع ذلك فان حلم الصليبية المغولية ظل يراود خيال بابوات أوربا الغربية وأمراءها مدة طويلة ، وبين حين وحين قامت المحاولات لاحياء قضية الصيلبية التى كانت فى طريقها الى الاندثار •

وقرب نهاية القرن الخامس عشر قام فرديناند وايزابلا على رأس حروبهم الصليبية الأخيرة ضد العرب المغاربه فى الأندلس واستسلمت غرناطة للاسبان المسيحيين فى يناير عام ١٤٩٢ • وباتمام ذلك الانتصار الثانى بدأ الملكان الكاثوليكيان يتطلعان الى جبهات جديدة للانتصار للمسيحية فيما وراء شبه جزيرة ايبيريا ـ ومن أجل ذلك الغرض اقتنعا باعطاء الاذن لكروستوفر كولمبس ـ وكان بحارا مغمورا مغامرا من أهل جنوه ـ لمحاولة الوصول الى الهند ومقاطعات أمراء الصين عن طريق البحر الغربى • وقد دون هدف تلك البعثة بدقة بالغة فى الجريدة التى كتبها كولومبس والتى حفظت ضمن التاريخ السنوى الذى كتبه لاس كاساس ويوجه ذلك المكتشف كلماته الى الملوك الذين ساعدوه بتلك الكلمات :

« ان جلالتكم بوصفكم من المسيحيين الطيبين ، والأمراء الكاثوليك المتدينين ، والناشرين للعقيدة المسيحية • وانكم فوق ذلك باعتباركم عدوا لمذهب محمد وكل الوثنيين والكفرة قد اعتنقتم فكرة ارسالى أنا

كريستوفر كولومبس الى بلاد الهند لأرى الأمراء والشعوب والحدود ومواقعها وكل شيء آخر . والطريق الذى نستطيع أن نتقدم به لتحويل تلك المناطق الى ايماننا المقدس » .

وعلى كل حال فان الطموح للوصول الى الهند غلبه الكشف المنتظر لأمريكا وقد سد الطريق الغربى الى الهند والى الشرق الأقصى . وفاقت الآمال العظيمة فى عالم جديد بأكمله كل اهتمام بالصين . وفى الحقيقة ليس من فساد الرأى فى شيء القول بأن اكتشاف أمريكا كان نتيجة جانبية غير مباشرة للحركة الصليبية . الا أنها نتيجة جانبية لها مظاهر التحول الجديد فى تاريخ العالم .

وان التوسع فى الآفاق الانسانية فيما وراء ما قد تم فى الماضى وجمع الثروة وازدياد الفراغ المترتب على ذلك فى المجتمعات التجارية فى جنوب أوربا ، قد أدى الى ثروة فى الأعمال الفنية والأدبية التى تشير الى مولد جديد لعالم متغير . وعصر النهضة وفجر العصور الجديدة هو - الى حد ما - نتيجة للحروب الصليبيه وآثارها البعيدة المدى فى الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وكانت الاتجاهات للتقدم الطبيعى فى الداخل علاوة على اتصال الأوربيين بحضارة العرب المتقدمة فى صقلية واسبانيا عوامل متوازية لا يجب نسيانها فى أية بداية للتحول القريب فى المسرح الأوربى . أما فى الشرق حيث بدأت الصليبية لحماية المواطنين المسيحيين وتقويتهم فمن الضرورى ملاحظة أن الحركة انتهت بمأساة تامة . وبالرغم من أن آسيا الصغرى قد عادت فى فترات متفرقة الى اليونانيين فان الأتراك بدأوا من جديد وبلا رحمة فى الهجوم على الحدود البيزنطية كلما عادت حركة المد والجزر للصليبية . ولكن الكارثة الحقيقية التى لحقت بالامبراطورية الرومانية الشرقية جاءت خلال الحرب الصليبية الرابعة بكل ما لا يمكن اصلاحه ممهدة الطريق لسقوط بيزنطة النهائى فى يد الأتراك فى عام ١٤٥٣ وقوت العداء التقليدى بين الشعوب والكنائس فى الشرق المسيحى وبين الغرب المسيحى .

وبالمثل أتت الصليبية بالمصائب على الأقليات المسيحية فى الامبراطورية العربية • وكان قد تعلم هؤلاء المسيحيون الذين يتبعون القانون كيف يعيشون فى سلام مع جيرانهم المسلمين وان يعالجوا أى خلاف ينشأ بين مجتمعاتهم علاجا وديا • وفى ذلك الحين كان الصليبيون يعاملونهم معاملتهم للخوارج ويكنون لهم من العداء أكثر مما يكنون للملحدين • ولذا حرموهم من حقوقهم المحلية التى كانوا يتمتعون بها فى ظلال الحكم الاسلامى • وفى تلك الأثناء أدت الحالة الجديدة للعدوان المسيحى من جهة الغرب الى غضب الخلفاء على جميع المسيحيين شرقيين وغربيين دون أى تمييز بينهم • ونتيجة ليأس المسيحيين من حياة مسالمة ـ تحول بعض المسيحيين الى الاسلام ، كما أن بعضهم تجنس بالجنسية الرومانية بحثا عن حياة مسالمة • وكان تحول الموارنة فى لبنان وبعض الأرمن فى صقلية الى المذهب الكاثوليكى ، يرجع الى حد كبير الى الصليبية • وهكذا ضعف اتحاد الكنائس الشرقية القديمة • وكان على المواطنين المسيحيين أن يبدأوا من جديد فى اصلاح مركزهم المتزعزع فى بلادهم فى نطاق نظام الحكومة الاسلامية بعد انتهاء الحرب المقدسة • وكانت تلك العملية بطيئة ومؤلمة ولكنها كانت ضرورية •

مناهضة الصليبية (*)

مهما كانت نتائج الصليبية فهناك شيء واحد يبدو واضحا من بحث الحوادث المترتبة عليهـا • فالعنف قد أدى الى العنف وايقظت حـروب الصليبية الآتية من الغرب روح « الجهاد » النائمة أو النضال الاسلامى المقدس ضد جميع المسيحيين • وبمعنى آخر أدت الصليبية الى نتيجـة سريعة ومدمرة ألا وهى مناهضة الصليبية • فبالرغم من أن هذه الفترة كانت طويلة ومهملة بلا داع • أو انهـا قد درست فى بعض المؤلفـات الشائعة فى ذلك الحين ، فانه من المستحيل تقليل مركزها فى تطـور خريطة الشرق الأدنى والأوسـط • ويؤدى البحث الدقيـق الى كشف مناهضة الصليبية كتاريخ مسـجل ، وفى نفس مرتبة الصليبية ، ما عدا اختلاف رئيسى واحد هو أن مناهضه الصـليبية ومقاومتها خلفت آثارها الدائمة فى مجرى التاريخ على حين أدت الصليبية نفسها الى الافلاس الأكيد •

وان الفجـوة الظاهرة فى معلوماتنا وفيمـا ألف عن هذا الموضوع الشائق يرجع الى ندرة ما طبع من المواد الأصلية • فبالرغم من العدد الضخم للاتفاقات والمعاهدات التى تركها الكتاب المسلمون فى هذا الموضوع فان أغلب هذه المؤلفات بقيت مكتوبة بخط اليد ومدفونة أو مبعثرة فى المخازن • ومن النظرة الأولى لمئات تلك المخطوطات تصبح المواد الرئيسية المكونة لهذا الموضوع واضحة تمام الوضوح • ولنحاول تحليلا مختصرا كمقدمة لما ينبغى أن يؤلف فيما بعد تاركين مهمة التحليل الدقيق للعقول الباحثة من بين الدارسين والمستشرقين فى المستقبل •

(*) ترجمة لكلمتى Counter — Crusade وهى الحركات الاسلامية التى قامت لمقاومة الصليبيين — المراجع •

ويجب أن نفهم ـ فوق كل الاعتبارات ـ أن مصادر مناهضة الصليبية ومراحلها توازى مصادر الصليبيه ومراحلها • فالدعوة للمسـيحية فى الغرب كانت تقابلها دعوة مضادة من المسلمين للجهاد فى الشرق • وأدت انهجمات على فلسطين وغيرها من بلاد المسلمين الى عداء المسلمين التلقائى • وكان من نتيجتها غزو منظم للولايات المسـيحية فى نطاقهم بمجرد أن استراح المسلمون من التهديد الغربى • وهناك برزت السياسة الجديدة للغزو الاسلامى من مصدرين رئيسيين أولهما سلطنة المماليك فى مصر وثانيهما الأتراك العثمانيون الذين هجموا على أوربا الشرقية وشرق أوربا الوسطى •

وقد جاءت الدعوة للاسلام أولا من الاعتبارات لمبدأ « الجهاد » أو الحرب المقدسة التى يجب اقتفاء آثارها حتى الأيام الأولى لقيام الاسلام اثناء حياة النبى محمد (٥٧٠ ـ ٦٣٢) وأربعه الخلفاء الراشدين • وقد قام مبدأ « الجهاد » هذا منذ البداية تاسيسا على عدد غير قليل من آيات السور المدنية التى نزلت فى القرآن • وفى الحال اعترف به عظماء رجال الشريعة المسلمين واعتبروه دعامة سادسة من دعائم الاسلام • وكلمة الجهاد معناها النضـال سرا وعلانية (*) • ويميز أئمة الدين بين أربعة أشكال للجهاد : جهاد النفس لمحاربة الخطيئة المستترة ويعتبر هذا أصعب

(*) ان الأركان الخمسة أو العقائد الأساسية هى : أولا ـ « الشهادة » وهى اعلان عبارة منطوقها « لا اله الا الله ومحمد رسول الله » وعندما يعلن أى شخص هذه الشهادة فانه يصير مسلما ، اذ يخضع نفسه لله • والكلمة « اسـلام » تعنى الاخضاع للمشيئة الالهية • ثانيا ـ الصلاة وهى السجود والركوع وآيات وابتهالات تكور خمس مرات يوميا عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء • ثالثا ـ الزكاة وهى ما يدفعه الفرد للدولة عينا وبنسب مختلفة طبقا للنوع سواء أكانت ١/١٠ أو ١/٣٠ او طبقا لما يراه أهل الرأى • رابعا ـ صوم شهر رمضان • وهو الامتناع عن الطعام والشراب تماما أو أية مادة تدخل الفم أو الأنف بما فى ذلك العطور والدخان • وكذلك المضاجعة الجنسـية وذلك من الفجر وحتى غروب الشمس • خامسا ـ الحج الى مـكة لمن استطاع الى ذلك سبيلا •

أنواع الجهاد وأكثرها امتداحا • وجهاد اليد في الأعمال الظاهرة • وجهاد السيف ضد المشركين وأعداء الاسلام (وهذا ما يوصف بالجهاد الأصغر) وقد صار معنى الجهاد الحرب المقدسة • وأخيرا الجهاد باعتباره فرضا على كل المسلمين القادرين (فرض الكفاية) أن يحاربوا كل من هم من غير المسلمين حتى يخضع كل العالم للاسلام ويستسلم لله •

وقد اعتمد الاسلام نظريا في توسعه على « الرسالة » أى على كسب الآخرين بالكلمة الطيبة • ولما لم تسرع كلمة الاسلام النابعة من صدر الاسلام بالنتيجة المطلوبة اعترف رجال الشريعة فيما بعد بأن الجهاد وسيلة مقبولة لنشر الدعوة الاسلامية • واذا اعتبرنا الحروب التى قامت في حياة النبى محمد ذات صبغة دفاعية أصلا ، فاننا سوف نجد في الحال أن الحكم الجديد قد أصبح نافذا خلال سنوات قليلة بعد وفاته كما في حالة « أهل الردة » الذين تحولوا عن الاسلام الى العبادات الوثنية او اتبعوا أنبياء كاذبين • ولم يظهر الاسلام أية رحمة تجاه المرتدين فكانوا يقتلون بالسيف وكان هذا العمل سابقة اتبعت في الأجيال اللاحقة • ونتيجة لهذا انقسم العالم الى معسكرين المؤمنون في « دار الاسلام » وغير المؤمنين في « دار الحرب » وبذا أصبح الجهاد واجبا تحت قيادة الخليفة حتى يتحد العالم أجمعه في دار الاسلام • وهذا النظام هو نقطة البداية التى بدأ بها جميع من يقومون بالدعوة للاسلام في كتبهم عن موضوع الحرب المقدسة • وكان كل ما كتبوه يهدف الى دفع المؤمنين الى الحرب دفاعا عن الأماكن المقدسة وعن أماكن حج المسلمين • ويمكن تقسيم ما كتبوه الى ثلاثة أقسام :

أولا : كتب الزيارات وفيها يفسر المؤلفون لمجتمع المسلمين أن مناسك الحج ليست مقصورة على الأرض المقدسة وهى مكة والمدينة في بلاد الحجاز • وقالوا بأنه كى يؤدى المسلم الحج كاملا عليه أن يواصل الزيارة الى الأضرحة والقبور الرئيسية لأنبياء الدين اليهودى والدين المسيحى •

ولم يتحدث النبى ضـــد الأنبيـاء القدامى ، ولا أنـكر الاســـلام تعاليمهم ولا كتبهم المقدسة • ففى هذين الدينين لم يعترض الاســـلام الا على مــا كان يسمى « عنصر الفســـاد » أو التزييف • ومــا أدخل نتيجة لهذا على التوراة والأناجيل • وكانت زيارة الأماكن القديمة التى يحتمى بها الأنبياء تعد واجبا ثانويا يدعم ايمان المسلم • ويؤكد أحـد المؤلفين أن صلاة واحدة تقام فى بيت المقدس تعادل ألف صلاة تقام فى مكان آخر • واذا لم يستطع المسلم أن يؤدى هذا الواجب فعليه أن يرسل زيتا الى القبور المقدســة فى المدينة المقدســة • ويزيد بعض الـكتاب فيزعمون (*) ان الحج بمعناه الكامل يجب أن يشمل زيارة أصحاب النبى أينما كانت أضرحتهم حتى خارج شبه الجزيرة العربية ، علاوة على زيارة قبور الشيوخ الصالحين الآخرين التى أصبحت الأجيال المتعاقبة تحترمهم وتقدسهم • ومما كتبه أبو بكر الهروى (سنة ٦٤١ هـ أى ١٢١٤ م) وشهاب الدين المقدسى (٧٦٥ هـ أى ١٣٦٣ م) وموفق الدين الخزرجى (٧٨٠ هـ أى ١٣٧٨ م) يصل القارىء الى النتيجة بأن المسلم لا يفرض عليه دينه زيارة تلك الأماكن فحسب بل المحافظة عليها وابقاءها فى نطاق الامبراطورية الاسلامية • وعليه أن يدافع عنها ضـد الصليبيين الذين كانوا يعتبرون مسيحيين غير مخلصين وملحدين حقيقيين ومشركين ، وان مجرد وجودهم ينجس القبور المقدسة •

ثانيا : « كتب الفضائل » وفيها يعدد المؤلفون فضائل الأقطـار الاسلامية والمدن الاسلامية وأماكن المسلمين البارزة • وكان يجب حماية الحدود الحرة تحت الحكم الاسلامى من أى اعتداء مسيحى ، ويجب تخليص الأماكن التى يستولى عليها الصليبيين من نيرهم • ان فلسطين هى ارث المسلمين المؤمنين وحدهم • وان المدعين وعبدة الصليب يجب ألا يسمح لهم بالبقاء فى أورشليم • ويقدم أحد الكتب الشهيرة المجهولة المؤلف فى

(*) ترجمت هذه العبارة بتصرف من المراجع •

القرن الرابع عشر وعنوانه « فضائل الشام » مقالا غريبا يؤكد أن سوريا (التى تشمل فلسطين طبعا) فيها تسعة أعشار ثروة العالم . وهى علاوة على هذا أرض البعث . وعلى هذا فان ساكن سوريا واثق من قبوله فى الجنة مستقبلا ومن تمتعه بالثراء فى العالم الدنيوى . ولم يقف كتاب هذا القسم من الكتب عند حد امتداح مراكز الحج وحدها ولكنهم كانوا يمتدحون كل الأماكن حتى يثيروا اهتمام الناس بكل مدينة هامة تحت الحكم الاسلامى . وقد وجد السيوطى أنه من الأهمية بمكان أن يكتب « رسالة فى فضائل الاسكندرية » وهى ماتزال مخطوطة بخط يده .

وكان جلال الدين السيوطى (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥) أبرز هؤلاء الكتاب وأكثرهم تفوقا وكانت كتاباته أكثر انتاجا وأخلد آثارا وأقرب الى الموسوعات وتمثل كتابته عن الاسكندرية أسلوب الكتابة الخاص به . فهو يبدأ باقتباس حديث من الأحاديث النبوية عن الاسكندرية ، ثم يصف حياتها الدينية ومراكزها الدينية (*) ويقول ان ثلاثة أيام تقضى فى أحدها تساوى سبعين عاما فى البلاد الواقعة بين الروم والعرب . وان قضاء شهر على شاطئها يساوى ستين زيارة للحج فى مكان آخر . ويقول ان للاسكندرية بوابتين تؤديان الى الجنة وتعرف احداهما باسم «بوابة محمد» والثانية باسم « بوابة الرحمة » ، وسوف تضمن أربع صلوات مدة أربعين يوما فى عسقلان أو قيصرية أو الاسكندرية لصاحبها مكانا فى الجنة ، وتحكى قصص الذين يرتحلون من أماكن بعيدة مثل ابن خديمه الذى جاء فى عام ١١٦٤م من خراسان البعيدة للاستجمام والتعبد فى الاسكندرية .

ثالثا : « كتب الجهاد » وهى الكتب التى تتناول موضوع الحرب المقدسة . وهى أكثر فى عددها من القسمين السابقين . فالحرب المقدسة كانت اتمام عهد المسلم . وتظهر مناقشة مبدأ الحرب المقدسة بارزة فى الأدب المتسع للفقه الاسلامى مما كتبه البخارى (٨١٠ ـ ٨٧٠) ثم

(*) كان يطلق على المركز الدينى اسم « الرباط » .

السيوطى الذى اقتبسنا منه القليل فيما سلف ، ثم ما جاء فى كل من كتب السنية ومذاهبها الأربعة (الشافعى ـ المالكى ـ الحنفى ـ الحنبلى)، وفى كتب التسيعة • وليس هناك اختلاف جوهرى فى الرأى بين المعلقين على المذاهب أو العقائد المختلفة فى الاسلام حول موضوع « الجهاد » •

وقبل قيام الصليبية بأكثر من قرن ، ألف القاضى النعمان بن محمد (٩٧٤ م) كتابا فى الفقه الاسلامى عنوانه « دعائم الاسلام » يمثله كتاب الجهاد الذى نشر فى السنوات الأخيرة • وبما أنه قد بقى المرجع الأساسى للفاطميين فى شئون الفقه ، وبما أن الصليبيين هبوا أيام الفاطميين فان المحاولة السريعة لتحليل محتويات ذلك المرجع العظيم تكون شائقة للغاية • يبدأ النعمان بسلسلة الاقتباسات من القرآن التى تدعو الى القتال فى سبيل الاسلام • ويلى ذلك مقتطفات من حديث النبى محمد • وبعد ذلك يقسم تلك الأوامر المقدسة تحت سلسلة من العناوين المختلفة التى تشمل الدعوة للحرب المقدسة ، ومكان الحيل فى المعركة ، وسلوك المشتركين فيها ، وواجبات القادة أو الأمراء • ثم يتبع هذا كله تعليقه الخاص على بعض الموضوعات مثل النداء لقائد الجيش ، ونظام العدل ، ودراسة الطبقات الاجتماعية ، وصلاتها بالحكام والضرائب وخطط الأعداء للحرب ، وهزيمة الكافرين ، ومركز الأسرى والسلوك المسالم ، والهدنة ومعاهدة السلام والجزية والغنائم وتقسيمها ، ومحاربة الخارجين عن الدين والحكم بالنسبة لغنائمهم • وقد لقيت التفاصيل الدقيقة عن الحرب المقدسة اهتماما بالغا فى الشريعة الاسلامية •

ولكن هذا وجه واحد من الكتب التى كتبت عن الجهاد والتى خصصت للمعالجة النظرية للموضوع • أما الوجه الآخر فقد تناوله الكتاب أكثر مما تناولوا الوجه الأول • والحق لقد نشأ أدب بأكمله ليعالج النواحى العملية لفنون الحرب فى الشرق وخاصة فى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى • وكان المحاربون والقادة ذوو الخبرات العظيمة والمعرفة الدقيقة بفنون

الحرب ينظمون المقالات ويجمعونها ، وكانت تلك المقالات تعالجموضوعات فنون الفروسية والأسلحة والطريقة الصحيحة لاستخدام كل سلاح وطريقة الحرب والخطط ونظام المعارك • وان الانتاج الكبير للكتاب المسلمين فى هذا المجال الهام يبرر الدراسة الأثرية لتاريخ الفنون الشرقية للحروب كما بحثت أعمال كويلر ، ولبروك ، وأومان عن شئون الحرب فى الغرب•

ولنراجع باختصار ما كتبه كاتب عسكرى فى القرن الرابع عشر اسمه ابن منكالى (١٣٧١) وهو مخطوط فى برلين ويعتبر نموذجا مصورا لما نتوقع أن نجده فى مؤلفات عن موضوعات لم تكن قد طرقت من قبل حتى ذلك الحين • فقد كتب رسالة موجهة الى السلطان قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٦) تعد عملا فنيا حقيقيا • وتنقسم الى قسمين رئيسيين: أحدهما فنون الفروسية والثانى الخطط الاستراتيجية • فبعد المقدمة المعتادة المقتبسة من القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين يعتبران أساس كل المعرفة فى الاسلام ، يخصص الكاتب سلسلة من الأبواب لفن الفروسية والمواقع العديدة للهجوم والدفاع فى ميدان المعركة ، والطريقة الناجحة لاستعمال كل أدوات الحرب مثل السيف والرمح والقوس والسهم والصولجان والدرع والمنجنيق • وأبحاثه الدقيقة لكل التفاصيل ترمى الى افادة الجندى كمرشد عملى للتدريب الأساسى فى فن الحرب• ثم يتحول الكاتب الى دراسة الخطط العريضة ونظام المعركة ويسجل عددا من الخطط المحددة للعمل على مواجهة أى خطر • ولذا يذكر فى كتابه ستة وعشرين رسما تبين المواقع المختلفة فى ميدان القتال ويملأ صفحاته بعديد من الأشكال والنماذج • ويبدو أن الجزء الأول من كتابه قد أعد لتثبيت الرتب والسجلات ، وأدت الأبواب الباقية لدور الكتيب المرشد للقادة الذين يقودون المسلمين الى النصر • ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب وغيره من الكتب المماثلة برهان على أن الشرق الاسلامى كان فى حوزته نظام علمى مستفيض فى طرق الحرب مما يبرر الانتصارات الساحقة للجيوش الاسلامية عند التقائهم بالفروسية الغربية فى الامبراطورية المصرية أولا ثم فى تركيا فيما بعد •

مناهضة المصريين للصليبية

يرجع تأصل جذور مناهضة الصليبية (*) ومقاومتها الى بداية حربها الأولى منذ أن بدأت أسرة «زنكى» فى المقاومة القوية للفرنجة، حينما بدأوا سياسة وضع العراقيل والعقبات أمام الحدود الشمالية الشرقية لمملكة بيت المقدس اللاتينية • وبعد اتحاد شمال سوريا مع مصر فى مملكة واحدة تحت حكم صلاح الدين القوى دخلت مناهضة الصليبية فى مرحلة هددت فيها الغرب وبلغت ذروتها عند سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧ • ومنذ ذلك الحين بدأ الاستيلاء ثانية على سوريا تدريجيا وبدرجات متغيرة من القوة لفترة تقرب من قرن ، وقد توجها فى النهاية استيلاء المملوك السلطان على عكا عام ١٢٩١ • وهذه هى المرحلة الحيوية الأولى فى قصة مناهضة المصريين للصليبية • وقد ساعدت الانتصارات التى أحرزها المماليك المحاربون فى عملية استرداد الحدود الضائعة قواتهم المسلحة على التوغل داخل سوريا فى الولايات المسيحية المنتشرة فى آسيا والشرق كله •

وبسبب قرب حدود الامبراطورية المصرية الشمالية أصبحت مملكة أرمينيا الصغرى المسيحية هدفا لانتقام المماليك • وتشير السجلات العربية الى الطرق الداخلية المنتشرة التى استخدمها المصريون فى انتظامهم داخل أرمينيا ؛ وكثيرا ما كانت تقاسى من السلب بعد انتهاء الحكم المسيحى فى سوريا حتى قبل سقوط عكا • وفى عام ١٢٦٧ توغل السلطان بيبرس فى البلاد حتى طرسوس • وتكرر هذا فى عام ١٢٧٥ • وأشعلت النيران فى مدينتى ماسيسا ، سيس الأرمينيتين • وفى عام ١٢٨٧ اضطر الأرمن الى شراء السلام غير المستقر وذلك بدفع جزية قدرها مليون درهم فى أثناء هدنة بلغ مداها عشر سنوات •

(*) نذكر القارىء بأن كلمتى Counter — Crusade فى هذا المؤلف ترجمتا بكلمتى « مناهضة الصليبية » وتشمل الحركات الاسلامية التى قامت لمقاومة الصليبيين •

كان القرن الثالث عشر من أعصف الفترات فى تاريخ أرمينيا • فقد أصبحت البلاد مسرحا مفتوحا لحرب مستعرة مستمرة بين جحافل المغول وجيوش المماليك . وعلاوة على ذلك فان العطف الذى كان يكنه آل‌هوثوميان Hetheumian فى سيليسيا [فى جنوب شرق آسيا الصغرى] لأمراء المغول أوغر صدور السلاطين المماليك فأكثروا من اغاراتهم المفاجئة على أرمينيا ؛ ثم برز عامل آخر ساعد على انتقام السلاطين المتزايد ضد أرمينيا • ففى هذه الأثناء أدى الحصار الشديد على شواطىء مصر الى تحول القوافل التجارية الى المراكز التجارية فى أرمينيا وخاصة لاجزو (اياس) وقرر المماليك أن ينتقموا من سكان الأرض المساكين بتخريب تلك المدينة الساحلية تخريبا كاملا فى غارتين متتاليتين فى عامى ١٣٢٢ ، ١٣٣٧ • وبعد الهجوم الثانى اضطر الملك ليو الخامس نفسه أن يهدم حصون المدينة ويسويها بالأرض • وهرب الكثيرون من سكان أرمينيا الى قبرص• ويقال ان المماليك عادوا الى قاعدتهم فى امارة حلب ومعهم ١٢٫٠٠٠ من أسرى الحرب الأرمن • وفى عام ١٣٤٧ عادوا ليحتلوا بصفة دائمة ما تبقى من المدينة • وفى عام ١٣٥٩ أنضمت كل من أضنه وطرسوس الى الامبراطورية المصرية ولم يبق من مملكة أرمينيا سوى مدينتى سيس ، أنازارب [عين زربة] فى منطقة طرسوس الجبلية • وفيما بعد سلمت هاتان المدينتان بعد ضغط عسكرى قام به أمير حلب • وأخيرا فى عام ١٣٧٥ سقطت العاصمة سيس بعد الهجوم عليها وخربت كل البلاد •

وبأمل يائس ، احتمى الملك ليو السادس فى آخر الحصون الأرمنية وهى قلعة جابان Gaban ؛ وبعد دفاع مستميت سقطت القلعة فى أيدى المصريين وأخذ الملك ورجال بلاطه أسرى فى قلعة القاهرة • وبعد أن قضوا سبع سنين مسجونين فى القاهرة وقعت فينيسيا والبابوية جزية من أجل ليو السادس فنال حريته الشخصية عام ١٣٨٢ على شرط ألا تطأ قدماه أرض أرمينيا طول حياته • وقضى الملك غير المتوج بقية عمره مستجديا جوالا بين بلاط قصور أوربا والبلاط البابوى حتى مات عام ١٣٩٣ دون

عقب • وبقيت سيليسيا مستعمرة مصرية حتى عام ١٥١٦ الى أن استولى عليها السلطان سليم الأول فأخضعها للحكم التركي قبل هجومه على سوريا ومصر • وبعد الحرب العالمية الأولى احتلتها مؤقتا القوات الفرنسية من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٢١ حينما تشجع الأرمن على العمل من أجل الاستقلال ولكن الخدع المريرة والمذابح التركية التي لا يمكن وصفها تلت هذه الفترة •

أما مناهضة المصريين الثانية للحروب الصليبية فكانت موجهة ضد مملكة الجزيرة اللاتينية لقبرص تحت حكم اللوزيجنيين • فلم يستطع سلاطين مصر أن ينسوا أو يعفوا عن كارثة الحرب الصليبية تحت قيادة بيتر دى لوزيجنان الأول والتي هوجمت ونهبت فيها مدينة الاسكندرية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط عام ١٣٦٥ • ومنذ تلك السنة بدأ السلاطين المماليك في انشاء أسطول قوى في دار الصناعة ببولاق الواقعة على نهر النيل قرب القاهرة ، من أجل معاقبة المعتدين وفي تلك الأثناء استمر القراصنة القبارصة الخطرون في القيام بغارات متعبة على المدن الساحلية في مصر وسوريا • أما في بلادهم فقد أخذ حكم اللوزيجنيين يضعف رويدا رويدا نظرا لتدخل مجامع جنوه • وزاد من سوء حظ قبرص موت الملك بيتر الأول مذبوحا في يناير عام ١٣٦٩ وخلفه صبي عمره احد عشر عاما هو بيتر الثاني (١٣٦٩ ـ ١٣٨٢) وقد أدت عناصر الهبوط هذه الى فرض حماية جنوه على الجزيرة •

وكانت اللحظة مواتية لمصر لتضرب ضربتها القاضية أثناء حكم السلطان برسباى (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) وقد قامت الحملة الأولى من بين الحملات البحرية الثلاث ضد قبرص عام ١٤٢٤ • وكان طابعها طابع معركة تجريبية استكشافية وكانت نتيجتها مشجعة للمماليك • وقد أغارت سفنهم على ليماسول (معروفة في التاريخ العربي باسم حصن اللامسون) على الشاطيء الجنوبي • وقد عادوا في أمان ومعهم الكثير من الأسرى والغنائم • وفي

أغسطس من العام التالى فاجأت القوات البحرية المكونة من أربعين سفينة بقيادة اميرال من المماليك واسمه جرباش حرس جنوه عند الموانىء البحرية القوية فى فاما جيوستا (كتبها العرب الماغوص أو ماغوصه) ولرناكا Larnaca (*) واضطرهم الى التسليم • واستولت على ليماسول أيضا من اليونانيين • وفى النهاية تقرر أن يرجع الأسطول الى قاعدته ومعه أكثر من ألف أسير وغنائم ضخمة • وتسجل المراجع رحمة السلطان فى تلك الفرصة • فقد أمر بألا يعرض الأباء والأبناء فى أسواق الرقيق منفصلين •

ورفض برسباى أن يستمع لمحاولات التدخل من جانب قبرص عن طريق الامبراطور البيزنطى فى القسطنطينية • وفى يوليو عام ١٤٢٦ أعد أسطولا أكثر استعدادا ببحارة مهرة وقوة كبيرة من المتطوعين ، وأهل البدو المتحمسين • كل هؤلاء تحت قيادة أمير مشهور من المماليك اسمه تغرى بردى محمود يهدف الى ضم الجزيرة بصفة نهائية ؛ وقد نزلت الجيوش بسلام على الشواطىء الجنوبية المقابلة لمصر فى مكان اسمه افديموا ، وفى الحال لاقوا خيش قبرص الاقطاعى فى السهول المجاورة عند كيروكيتيا يوم ٥ يوليو عام ١٤٢٦ • وكانت القوات اللوزينجية مكونة من ١٦٠٠ فارس ، ٤٠٠٠ من المشـــاة • وهزمهم المصريون وردوهم على أعقابهم • ويقـدم ليونتيوس مكاريوس المؤرخ اليونانى لقبرص وصفا حيا لانهيار الروح المعنوية لجنود قبرص وهزيمتهم وأسر المصريين للملك جينس Janns (١٣٩٨ ــ ١٤٣٢) ، والمذابح التى تلت ذلك ، والغارات على داخل الجزيرة حتى استولى المصريون على العاصمة نيقوسيا • وفى النهاية أبحر المعتدون راجعين الى بلادهم ومعهم حمولات السفن الضخمة من الغنائم و ٣٦٠٠ أسير والملك ونبلاؤه فى مقدمة الأسرى • وهكذا تحطمت هيبة اللاتينيين فى قبرص بدرجة لم يكن يمكن اصلاحها • كما قرر اليونانيون ، الذين

(*) بلد ساحلية فى قبرص •

ظلوا وقتا طويلا تحت ربقة الأوربيين الغربيين ، أن يثوروا ضد سادتهم الحلفاء • وفي الحال انتخبوا واحدا من بينهم يدعى الكسس ليكون ممثلهم الوطنى •

ومثلما حدث للملك ليو السادس ملك أرمينيا أسر أيضا ابن عمه جينس الثانى ملك قبرص ، وأخذ مقيدا بالسلاسل الى قلعة القاهرة • وعرض تاجه وأعلامه فى مقدمة موكب الأسرى الذى بلغ ألفين من الفرسان القبارصة فى شوارع العاصمة المصرية • وظهر جينس عارى الرأس مقيدا بالحديد فى بلاط السلطان بحضور مبعوثين من حكام المناطق الاسلامية فى تركيا ، وامارات التراكمه فى آسيا الصغرى ، وملك تونس وشريف مكة وغيرهم • وقبل ملك قبرص الأرض عند قدمى السلطان ثم سقط فاقد الوعى • وتوسط قنصل البندقية وتابعوه من تجار أوربا من أجله ضامنين دفع مائة ألف من الدوكات الذهبية فى الحال كمقدم للجزية على أن تؤدى مثل هذه القيمة بعد عودة الملك الى قبرص • وعلاوة على هذا تعهد جينس أن يدفع للقاهرة جزية سنوية بين ٥٠٠٠ ، ٨٠٠٠ من الدوكات ثم أعلن طاعته لسيده السلطان ؛ وعندئذ نال حريته الشخصية وأعطى بيتا وسمح له بالركوب متنقلا فى المدينة ريثما يعود الى قبرص • وقد عاد فى مايو عام ١٤٠٧ • وكان أول ما كان ينوى عمله شنق الحكام اليونانيين الجدد • ولكن قوة احتلال مصرية كانت قد نزلت فى تلك الأثناء فى الجزيرة فحال دون ذلك وسلم الملك سلطته المالية لأهل جنوه فى فاما جيوستا وأصبحت قبرص ولاية تابعة لمصر • وهكذا قدر على جينس أن يدفع الثمن غاليا لقاء ما اقترفه بيتر الأول حين ضرب الاسكندرية فى القرن السابق •

وكان الهدف المنطقى الثالث لمناهضة المماليك للصليبية هو «رودس» حيث استقر فرسان القديس يوحنا من بيت المقدس وحولوا الجزيرة الى قلعة حقيقية • ومما لا شك فيه أن نصر المصريين فى قبرص قد أثار شهية السلطان لاخضاع رودس ليبسط سيادته على مياه الشرق • فقد كان

الفرسان البيض فى رودس شوكة فى جنب الامبراطورية الاسلامية .

ولم يكن يضمن السلام فى تلك المنطقة مادام مثل ذلك التنظيم القوى يهدد كل من تجارة المسلمين على البحار الكبيرة الواسعة وأمن المسلمين فى الداخل . وهنا واجهت السلطان ظروف مختلفة أدت الى فشل هجماته على الجزيرة فانتهت الى نتائج غير حاسمة . فقد ظهر ان عند الفرسان شجاعة تفوق شجاعة قوات قبرص . وكان تنظيمهم العسكرى قويا لا يمكن زعزعته . فاجتمع النظام فى صفوفهم مع الروح المعنوية القوية التى تدفعهم الى الاتحاد فى التفكير والعمل . وعلاوة على ذلك اتبعوا سياسة محكمة فى الجاسوسية العالمية . وكان لهم جهاز مخابرات ذو طابع خاص غريب على العصور الوسطى وكان وكلاؤه فى الدول المعادية يتولون اعلام الرئيس الأعلى بأية تحركات عسكرية ضد الجزيرة . وهكذا جعلوا الجيش على أهبة الاستعداد لرد أى هجوم مفاجىء . ولقد حاول المصريون ثلاث مرات أن يخضعوا رودس فأخفقت جهودهم فى المرات الثلاث لقوة الفرسان وشجاعتهم واستعدادهم . وقامت أولى هذه الهجمات فى صيف عام ١٤٤٠ ؛ وقد أعد المصريون فى تلك السنة أسطولا مكونا من خمسة عشر « غرابا » فى مصنع السفن فى بولاق استعدادا للهجوم على رودس . وحينما أبحر الأسطول عن طريق قبرص والايا فى آسيا الصغرى للحصول على الامدادات دعمه أمير الايا التركى بسفينتين أخريين . وتقدمت القوة البحرية المتحدة الى رودس . وغضب المسلمون حينما وجدوا أن الفرسان البيض فى قبرص كانوا على تمام الأهبة ينتظرون وصولهم . واستطاع الفرسان البيض أن يوقفوا نزول المماليك فى الوقت المناسب وأن يرجعوا من المعركة سالمين ، وفقد اثنا عشر من المماليك وأصيب كثيرون آخرون اصابات خطيرة مما اضطر المهاجمين الى الانسحاب الى مصر .

وأدت هزيمة جيوش السلطان الى حقده وغضبه على فرسان رودس ؛ لذا قرر ارسال حملة ثانية لينتقم منهم ويهلك قواتهم . وبدأ استعداده لمحاولته الجديدة فى عام ١٤٤٢ . وبعد ذلك بحوالى عام أبحر بأسطول

جديد حاملا ١٥٠٠ من القوات المنتظمة علاوة على عدد كبير من المتطوعين تحت قيادة قائد البحر الخبير اينال العلائى من المماليك . أبحر فى نهر النيل قرب دمياط ثم عبر البحر الأبيض المتوسط الى طرابلس على الساحل السورى لكى يجمع المزيد من الرجال والعتاد . ولكن أدت عاصفة الى تهشم الأسطول وتشتته وتأخر وصوله . ووصلت بعض السفن الى بيروت ، كما وصلت غيرها الى طرابلس ، ولكنهم وجدو أن السوريين قد انتابهم القلق فقرروا أن يتقدموا الى قبرص التى كانت حينذاك قاعدة لعمليات المسلمين الحربية ضد رودس . وأخيرا اتحدت القوات المختلفة فى الموانىء القبرصية ، ولرناكا ، وليماسول . وبعد سلب الأهالى الذين لا سلاح لهم ، اتجهوا ناحية «بافوس» (*) من أجل الامدادات على حساب الملك وشعب قبرص . ثم ساروا عن طريق المدن التركية الصديقة الايا، وأضاليا (أداليا) الواقعتين على الساحل الجنوبى للأناضول ، الى قلعة الجزيرة الصغيرة كاستلوريزو Castellorizzo (« قشطيل الروج » كما وردت فى المصادر العربية) وكانت تابعة لفرسـان القديس يوحنا . وسقطت هذه الجزيرة الصغيرة بعد مقاومة قليلة وقتل الحراس وهدمت الحصون هدما تاما فى أكتوبر عام ١٤٤٣ . وفى تلك الأثناء اكتشف ان الشتاء على الأبواب . وحينما أدرك القادة أن رودس محصنة تحصينا كاملا ولا يمكن سقوطها ، وانه من المحتمل أن يحجزوا عن مصر طول فصل من فصول السنة بأكمله ، قرروا الانسحاب الى دمياط والقاهرة مؤقتا . وهكذا فشلت الحملة الثانية كسـابقتها فى الحصـول على هدفها وهى جزيرة رودس .

أمـا الحملة الثالثة فقد قامت مبكرة فى صيف عام ١٤٤٤ ؛ وكانت سيئة الحظ كسابقتيها . ففى يونيه من ذلك العام قام جيش من المماليك عدده ألف مملوك ، مع متطوعين من ولايات عدة يبلغ عددهم ١٨٫٠٠٠

(*) وردت فى المصادر العربية تحت اسم « الباف » .

من المجندين ، معدين بآلات الحصار • وأبحروا من الاسكندرية ودمياط وطرابلس كما كانت عادتهم من أجل الحصول على التعزيزات من سوريا • واتجهت القوات المتحدة المسلحة الى رودس • وبينما كانت مدينة رودس محاصرة عن طريق البحر والبر أغار بعض المسلمين على القرى الصغيرة المجاورة للجزيرة • ولم تؤد جهودهم الى أية نتيجة فقد قامت دون نجاحها قلعة القديس نيقولا القوية ، واستنفد المصريون قواهم تدريجيا أثناء القتال العنيف فقتل ثلاثمائة من المماليك فى المعركة وجرح خمسمائة وكان عدد غير قليل من المرتدين اللاتينيين ـ الذين سبق أن اعتنقوا الإسلام ـ قد هجروا أصدقاءهم المصريين الذين كانوا يصاحبونهم وانضموا الى الفرسان • وكان الصيف يقترب من النهاية ولم يكن هناك أمل كبير • وحينما أحس المماليك الباقون بالاجهاد واليأس رفعوا الحصار وأبحروا عائدين الى مصر •

وليس هناك ما يؤكد أن هجمات المصريين على رودس قد تركت أثرا دائما على نظام فرسان القديس يوحنا • فالأضرار التى لحقت بحصونهم كانت مؤقتة • أما قوة الفرسان الحقيقية فمن الواضح أنها بقيت كما هى • وبالرغم من ذلك وضعت مصر سابقة خطيرة للعثمانيين الذين جاءوا من بعدها وحاصروا قلعة الجزيرة مرتين وفى النهاية أصابوا الفرسان البيض اصابات خطيرة • بدأ السلطان محمد الثانى (١٤٥١ ـ ١٤٨١) أول حملة عظيمة للغلبة على رودس عام ١٤٤٨ ، ولكن لم يحن طردهم من الجزيرة الا على يدى سليمان الثانى العظيم (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) فقد قضى على نظامهم بأكمله عام ١٥٢٢ أثناء ولاية السيد العظيم فيليب فيليبر فى جزيرة آدم بعد أكبر دفاع مستميت فى تاريخ الفرسان البيض بأكمله •

قامت تطورات كثيرة غيرت مجرى التاريخ فى الشرق فيما بين نهاية مناهضة المصريين للصليبية ضد رودس وبين بداية مناهضة العثمانيين لها • وكان نجم الأتراك العثمانيين فى صعود • وأصبحت القسطنطينية

العثمانية عاصمة امبراطوريتهم الاسـلامية الجديدة واتحدت القـوة العثمانية فى آسـيا الصغرى على حسـاب الأمراء الأتراك الذين دخلت اماراتهم تدريجيا تحت حكم العثمانيين • وفى عام ١٥١٦ وقعت معركة « مرج دابق » المتاخمة لحلب بين سليم الأول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) سلطان تركيا وبين سلطان مصر المملوك قنصوه الغورى (١٥٠٠ ــ ١٥١٦) الذى سقط فى الميدان • وعجل فشل المصريين باتحاد سوريا مع تركيا • وبعد ذلك فى عام ١٥١٦ حددت معركة « الريدانية » (حى العباسـية شمال شرق القاهرة) مصير مصر نفسها ، وبعد اشتباكات عديدة أقل شأنا من سابقتها أسر خليفة الغورى وهو طومان باى (١٥١٦ ــ ١٥١٧) وشنق على باب زويله (أحد أبواب مدينة القاهرة) • ولا يرجع انتصار العثمانيين فى هاتين المعركتين الحاسـمتين الى تفوقهم فى العـدد والخطط فحسب ، ولا لشجاعتهم النادرة وتماسكهم أثناء الحرب فحسب ؛ وانما يرجع أيضا الى استعمالهم المدفعية الحديثة والبارود وذلك ما لم يعرفه المصريون ، فتدهورت روح الجنود المعنوية • ويصف الكتاب العرب فى ذلك الوقت تلك الأسلحة الغريبة المخيفة باسم « النار والحديد » ويقولون بأن ذلك يتنافى مع روح الاسـلام وقوانينه على استعمالها ضد المسلمين ؛

ومهما تكن أسباب انتصارات العثمانيين فان النتائج كانت حينئذ واضحة ، فقد تحول الشرق الى حكم تركى هائل موحد ذى آثار بالغة الذروة على ازدهار التجارة بين مصر والقوى التجاريه فى جنوب أوربا وخاصـة فى المجتمعات الايطالية ، فقد أصبحت جميع الطرق التجارية حينئذ فى أيدى الأتراك ، وبدأت المراكز التجارية الأخرى تفقد ما كان لها من أهمية فى العصور الوسطى • وأصبحت القسطنطينية أهم مدينة بالنسبة للسلاطين وللاسـلام ، ولم تتجه القـاهرة ثانية الى السفارات اللاتينية التى كانت تبحث عن الأسواق والامتيازات التجارية ، ولكنها أصبحت تتجه الى العاصمة العثمانية الجديدة على شواطىء البوسفور • وفى تلك الأثناء أسرعت التحركات الاستكشافية العظيمة فى المحيطات وهى التى أدت الى الدوران حول رأس الرجاء الصـالح والى اكتشـاف « العالم الجديد » فتكسدت تجارة الشرق الأدنى وأصبحت ذكرى لعصر من الرخاء الذاهب •

مناهضة الأتراك للصليبية

حدثت كارثة الفرسان الغربيين في نيكوبولس في سبتمبر عام ١٣٩٦ نهاية الصليبية باعتبارها منظمة للصليبية ضد الاسلام من أجل تخليص الأرض المقدسة • وقد دافع الأتراك عما اكتسبوه من أرض أوربا بنجاح كبير حتى لقد دب اليأس في قلوب ملوك الغرب وشعوبه وتركوا أوربا الشرقية فريسة لحظ عاثر • وكذلك ضم أحد الفصول الأولى في تاريخ المسألة الشرقية في جانب العثمانيين الذين فرضوا أنفسهم في عضوية الكومنولث لولايات أوربا بالرغم من أصلهم الأجنبي ودينهم الاسلامي • واصبحت المجر دعامة المسيحية الكاثوليكية ، وكانت فرصتها الوحيدة للبقاء تكمن في ايقاف تقدم الأتراك الى قلب أوربا • وقرب نهاية القرن الرابع عشر بعد انهزام نيكوبولس كانت الجيوش المجرية قد دمرت • أما الأعداد الهزيلة التي عاشت بعد مذبحة المسيحيين فقد تفرقت دون أمل في الاتحاد السريع من أجل عمل منظم . ولم يستطع الملك سيجسموند أن يقوم بأى نوع ولو مؤقت من المقاومة • وكان الطريق الى بودا مفتوحا للغزاة • ومع ذلك فان بايزيد الأول (١٣٨٩ ــ ١٤٠٢) قرر أن يبقى جنوب الدانوب اما للاعياء الذى ألم بجيوشه لمرضه هو نفسه واما لأنه أراد أن يدعم انتصاراته ومركزه في البلقان •

واستمرت مناهضة العثمانيين للصليبية في أوربا قرابة نصف قرن • وكان حكام بلغاريا وصربيا من بين أتباع السلطان ، على حين كان الامبراطور البيزنطى يدفع له جزية سنويه ، ولكن شبه جزيرة البلقان ككل كانت أبعد ما تكون حتى ذلك الحين عن أن تصبح تحت السيطرة العثمانية • فكثير من المساحات الواسعة لم تكن قد هزمت حينئذ ،

ومن أجل ذلك قسمت آسيا الصغرى نفسها بين العديد من سلالة الاقطاعيين • كان العثمانيون وحدة من وحداتهم • ولكنهم لم يكونوا أقوى هذه الوحدات •

من أجل ذلك العمل الأولى تجاه الوحدة والتدعيم كرس سلاطين تلك الفترة الانتقالية وهم بعيدو النظر ـ جهودهم وانتباههم للعمل من أجل الأجيال العديدة المقبلة • ولم يكن بايزيد شاذا عن تلك القاعدة العامة ، فقد حد من عمليات شمال الدانوب لاعادة سيطرته على امارة ولاشيا (كان الاسم القديم هو داشيا فيلكس والاسم الحديث رومانيا) كما قلل من غاراته على الولايات المجرية فى سيرميا Syrmia وستيريا Styria • وعلى العكس من هذا كان يظهر قوة وعزما أكبر جنوب الدانوب حيث كان يستغل الانتصار العظيم الذى أحرزه فى عام ١٣٩٦ • وتم اتحاد صربيا وبلغاريا وعبر العثمانيون نهر مورافا (*) ودرينا Drina من روافد الدانوب الى الغرب ، وتوغلوا فى بوسنيا حتى زوورنك Zwornik ؛ وفى الجنوب أيضا سنحت للسلطان فرصة ذهبية حينما دعاه أسقف فوكس اليونانى ليشترك فى رحلة صيد فى تساليا وايبرى ورحب السلطان بالدعوة لأنه كان مغرما جدا بالصيد • ولم تكن آمال صاحب الدعوة وضيفه مقصورة على متعة الرحلة • فقد كان الأسقف ينوى استغلال قوات السلطان فى اعادة سلطته المزعزعة ضد اللاتينيين الأجانب والمنافسين من المواطنين اليونانيين فى مقاطعته • ولكن بايزيد وجيوشه أسرعوا بوضع أيديهم لا على فوكس فحسب ، بل على دورس ولوكرس والكثير من الأحياء الأخرى فى ليفونيا والمورة ؛ واستقر الأتراك فى كثير من مناطق اليونان غير الآهلة بالسكان ليحتلوا محل المواطنين الذين هربوا أو أخذوا أرقاء •

(*) فى تشيكوسلوفاكيا حاليا •

وعهد بايزيد الى اثنين من قادته وهما ايفزنوس ويعقوب بمتابعة خطط المورة ، وأعد نفسه لحصار القسطنطينية • وبدأ الحصار فى سبتمبر عام ١٣٩٦ وبعد أن تردد قليلا لمقاومة قدمت من ناحية أوربا من جديد دون هوادة • وكان هدف السلطان الرئيسى هو الحصول على تلك المدينة العظيمة • وبدأ سقوطها قريبا عاجلا من انتصار العثمانيين فى نيكوبولس وذلك بأن ملوك الغرب الأقوياء وان استطاعوا أن يسهموا فى الدفاع عن بيزنطة فانه لم يكن يهمهم أن يرسلوا المزيد من الرجال الى الميدان الشرقى حيث عانوا خسائر ضخمة فى مغامرتهم الأخيرة فى بلغاريا • ولم تثر رحلة الامبراطور مانيول (١٣٩٩ ـ ١٤٠٢) التى قام بها يطلب العون ضد الأتراك ، الا قليلا من العطف العابر والوعود الجوفاء من حكام أوربا الكاثوليك • وكان التجاوب الوحيد الملموس لرجائه هو قيام المارشال الفرنسى بوسيكوت على رأس قوة مختلطة من المغامرين الذين بلغ عددهم نحو ألف ومائتين من الرجال نزلوا فى القسطنطينية عام ١٣٩٩ ؛ بينما كان الامبراطور المستجدى لا يزال يجول فى أنحاء أوربا • ولا يمكن وصف قصة بوسيكوت بأنها حرب صليبيه بالرغم من أن البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٤) قد أعلن الحرب المقدسة فى ابريل عام ١٣٩٨ ومارس عام ١٣٩٩ • وكان الملوك وأمراء الاقطاع القادرون على قيادة الجيوش مشغولين انشغالا تاما بشئونهم المحلية ومشاكلهم الخاصة ، فلم يستمعوا لنداء البابا المقدس • ولم يكن أحدهم فى حالة تسمح له بأخذ مواعظ البابا مأخذ الجد ما عدا أهل جنوه والبندقية الذين كان الخطر التركى يهدد مصالح تجارتهم فى القسطنطينية ويؤثر فيها تأثيرا مباشرا • وكان معظم رجال بوسيكوت مرتزقة لا متطوعين متدينين يدافعون من أجل الدين • وكان أهم ما يشغلهم ما سوف يدفعه لهم مستأجرهم وما سوف يأخذونه من غنائم من فريستهم • وما ان تبينوا أنه لم يكن عند العثمانيين غنائم مادية ، وأن الامبراطور البيزنطى كان فقيرا معدما ولا يستطيع مكافاتهم ، حتى أبحروا راجعين تجاه الغرب بعد عمليات

ثانوية ضد العدو في ضواحي المدينة • وحينئذ قرر بوسيكوت مارشال فرنسا وحاكم جنوه أن يرحل تاركا وراءه جون دي شاتوموراند ومعه حفنة من الرجال للاشراف على عمليات الدفاع حتى عودته • ويقال انه اقترح أن يدين الامبراطور وامبراطوريته بالطاعة والولاء لملك فرنسا مقابل المساعدة الفرنسية ، كما يقال ان البندقية وجنوه وفرسان القديس يوحنا أقروا اقتراحه هذا ، ولكن بوسيكوت نفسه لم يرجع ثانية الى تلك المدينة التاعسة ولم يوافق الملك الفرنسي شارل السادس على فرض سلطته على امبراطورية متعثرة كانت في سبيلها الى التدلى •

وعلى كل حال ؛ قد يكون من الخطأ تضخيم السهولة التى كان يمكن أن يستولى بها العثمانيون على القسطنطينية في تلك المرحلة ؛ فقد كانت هناك عوامل متعددة مضادة لهم • فلم يكونوا يملكون حتى ذلك الحين المدفعية الثقيلة التى تمكنهم من مهاجمة أسوار المدينة القوية • ولم يكونوا قد أنشأوا أسطولا قويا يؤكد الحصار الكامل للمدينة من جهة البحر • واذا تذكرنا أن هذين العاملين ـ فوق كل اعتبار آخر ـ كانا حاسمين في هجوم السلطان محمد الثانى الفاتح عام ١٤٥٣ أدركنا صعوبة مركز بايزيد عامى ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، وعلاوة على ذلك لم ينل الحراس الا القليل من التشجيع المعنوى من تعزيزات بوسيكوت الهزيلة وقواته اللاتينية العابرة ، وبالرغم من أنه قد بدا أن الحصار تحت تلك الظروف سوف يستغرق وقتا طويلا فان بايزيد كان مصرا على الوصول الى نتائج ناجحة مهما كلفه الأمر • ولذلك عسكر خارج المدينة ، وأوقف وصول الامدادات والمؤن الى الداخل ، على حين بدأ رجاله يعيدون بناء آلات ضخمة للحصار استعدادا للهجوم التالى • ومع ذلك فقد أخفقت عملياته ضد بيزنطة بسبب غزو التتار لآسيا الصغرى تحت قيادة تيمورلنك، واضطر بايزيد أن يعبر البوسفور ليدافع عن ممتلكاته الآسيوية أمام جحافل المغول • وفي معركة أنقرة عام ١٤٠٢ نزلت به هزيمة منكرة ووقع أسير حرب في أيدى أعدائه واخذ عبر آسيا ليقابل مصيرا مظلما ونهاية بائسة •

وهكذا تأجل سقوط القسطنطينية نصف قرن. وفى هذه السنوات الخمسين أخذ العثمانيون يفيقون من ضربة التتار وأصلحوا من شأنهم فى هوادة لم تنقطع • وبدأوا يحاربون المسيحيين وأسفرت حروبهم عن نتائج متباينة • وبدأ مراد الثانى حصارا آخر حول المدينة بعد اعتلائه العرش ، ولكنه اضطر الى أن يرفع ذلك الحصار بسبب نقص المدفعية ونقص قوته البحرية • وهذان هما العاملان اللذان اعترضا انتصار بايزيد الأول عام ١٣٩٩ • ومن ناحية أخرى ، فان حروب مراد مع المجريين تحت قيادة جون هنيادى بطل ترانسيلفانيا الذى ذكر اسمه فى الأساطير بلغ ذروة الهزيمة الساحقة للمسيحيين فى فارنه Varna عام ١٤٤٤ ، وهذه المعركة مثل الكثير غيرها كان يصبغها طابع الحروب الصليبية • وكان ممثل البابا فيها هو الكاردينال جوليان سيسارينى ، ولكنها فى الحقيقة لم تكن أكثر من فصل واحد فى سجل الحروب التركية المجرية فى القرن الخامس عشر •

وكانت اللحظة الحاسمة فى مناهضة الأتراك للصليبية عند تدمير الامبراطورية البيزنطية والاستيلاء على مدينة القسطنطينية فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣ • وكانت كل الأطراف تنتظر هذا الحادث منذ زمن طويل • وقام الأتراك باعداد العدة لهذا الحادث وبلغ الاستعداد ذروته أيام حكم محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١) الذى أقر السلام مع جون هنيادى حاكم المجر ، وجدد هدنته مع البندقية وجنوه والفرسان البيض فى رودس ومع الرئيس الالبانى سكاندربج ، وطاغيتين من طغاة المورة هما توماس وديمتريوس بلايولوجس ، وكانا أخوين ينافسان قسطنطين دراجاسس الحادى عشر (١٤٤٨ - ١٤٥٣) آخر أباطرة الرومان فى الشرق •

وفى أغسطس عام ١٤٤٢ انتهى السلطان من تشييد قلعة روميلى حصار على الشاطىء الأوربى للبوسفور شمال المدينة المواجهة لقلعة

اناتولى حصار القديمة التى شيدها بايزيد على التماطىء الآسيوى للممر المائى (البسفور) • وهكذا أكمل مرحلة اعدادية أخرى للحصار المقبل للمدينة ، وعند مشاهدة تلك الحوادث التى كانت تحمل فى طياتها نذر المستقبل أسرع الامبراطور البيزنطى فى ديسمبر عام ١٤٥٢ وأعلن فى سانت صوفيا اعلانا قديما(*) للوحدة بين الكنيستين الشرقيةوالغربية، معترفا علانية بأولوية روما ، وذلك بالرغم من المعارضة الشعبية لهذا الاجراء بزعامة جورج سكولاريوس الذى أصبح البطريرك جناديوس ، واعتراض شخصيات بارزة من أمثال لوكاس نوتارس • فقد اعترض هؤلاء على الوحدة اللاتينية وأكدوا انه من الأفضل بقاء حكم العمامة التركى فى القسطنطينية على تاج الكنيسة اللاتينى •

فاذا نحن قدرنا تفاصيل الموقف وحاولنا أن نحكم عليها حكما عاما اتضح أن بيزنطة قد تركت لكى تلقى نهاية سريعة محتومة • فلم يكن هناك تجاوب عالمى لصرخة النجدة الصادرة من المدينة الرئيسية • ولم يظهر البابا ولا ملوك أوربا أية اشارة لاتخاذ أى اجراء لانقاذ المدينة • وحتى الوطنيون المسيحيون من أمثال هنيادى لم يظهروا فى الميدان • وكانت مساعدات البندقية وجنوه ـ وكانتا مشتركتين فى نفس المصير المظلم ـ قليلة ، ولم تكن فى مستوى خطورة الموقف • فقد أرسلت خمس سفن حربية فى « انقرن الذهبى » Golden Horn للدفاع عن الجدران الساحلية تحت قيادة جبرييل ترفيزانو ، ووصل قرصان جنوه الشهير جيوفانى جياستنيانى من خيوس Chios ومعه ٤٠٠ من زملائه الذين تطوعوا لخدمة الامبراطور • وشق قائد بحرى من جنوه أيضا اسمه موريزيو كاتانيو طريقه الى القرن الذهبى خلال الحصار البحرى التركى ومعه ثلاث سفن من جنوه وواحدة يونانية • وقد حاربوا كلهم

(*) يقصد بهذا الاعلان « بيان Volenotilcon » وهى كلمة يونانية معناها وحدة ارادتى المسيح السماوية والأرضية ـ والغرض الأساسى من الاعلان هو وحدة الكنيسة الشرقية مع الغربية • (المترجم)

مستبسلين ومستيئسين ولكنهم لم يكونوا أكفاء لعدو كان متفوقا عليهم كل التفوق فى عـدده وعتاده • وكانت تقـدر الجيوش التركيـة بين ١٥٠٫٠٠٠ الى ٢٦٥٫٠٠٠ بل لعلها كانت أكثر من ذلك • وكانت قوة الدفاع داخل المدينة تتكون أصلا من ٤٩٧٣ جندى يضاف اليها ٤٠٠ من جياستنيانى و١٦٠٠ من السكان الأجانب وعلى الأخص من البندقية تحت قيادة جندى شجاع هو جيرولامو مينتو • وقد نزح عن المدينة كثير من سكانها ، ويقال انه قد قل عددهم الى ١٥٠٫٠٠٠ نسمة • وكان الأسطول التركى يتكون من ١٤٠ سفينة من بينها اثنتا عشرة سفينة حربيةعظيمه• ولكن السفن الحربية الايطالية البيزنطية نجحت فى حراسة مدخل القرن الذهبى ضد الحصار التركى البحرى • وعـلاوة على ذلك عرقلت تقـدم الأعداء بأن مدت سلسلة حديديةضخمة عبر المخرج المائى فسدت المسالك دون الأسطول المهاجم •

ومهما يكن من أمر فانه فى ٢٢ أبريل انهار الدفاع عن الميناء عندما ظهرت السفن التركية ظهورا مفاجئا من مكان خفى فى القـرن الذهبى وخرجت الى خلف الاسطول المسيحى ، وكان الأتراك قد بنوا فى هدوء رصيفا خشبيا فى محاذاة الوادى من المضيق الى الميناء الداخلى وسحبوا السفن على عجلات واستطاع الأتراك بقوة سواعدهم أن يجروا هذهالسفن فنزلوها الى الميناء ، وفى تلك الأثناء ضرب الأتراك المدينة بالمدافعالثقيلة – وكان ذلك معروفا فى التاريخ حتى ذلك الحين – وظل قصف المدينـة خمسين يوما دون انقطاع ، وطفق الباقون من سكانها يعملون ليل نهار تحت وابل النيران يحاولون اصلاح الشواطىء • ولسوء الحـظ جـرح جياستينيانى جرحا مميتا وحمل الى سفينته قضى فيها نحبه بعد يومين• وبموته سرى اليأس الى قلوب القوات الأجنبية • وفى وقت واحد قامت ثلاث هجمات عامة على أسوار المدينة من ثلاث جوانب فى ٢٨ ، ٢٩ مايو أخفقت اثنتان منها ، أما الهجوم الثالث قرب بوابة القديس رومانوس القديمة حيث كان الامبراطور يحارب بنفسه فقد شق حرس السلطان

طريقهم وبدأوا يتدفقون من ثنايا الأسوار٠فقفز قسطنطين وبيده السيف في قلب المعركة ومات ميتة الأبطال ٠ وامتطى السلطان محمد الثانى جواده منتصرا وسار فوق جثث الجرحى والقتلى الى سانت صوفيا حيث أقام أول صلاة للمسلمين فى كنيسة جستنيان التاريخية ، على حين تركت المدينة للسلب والنهب ثلاثة أيام وثلاث ليال ٠ ومن بين السكان أخذ ٥٠٫٠٠٠ عبيدا ٠ وقذفت الكنوز الفنية فى لهيب النيران وأصبحت الكتب الثمينة غير ذات قيمة فكان يمكن أن تشترى عشرة مجلدات لافلاطون وأرسطو بدرهم واحد ٠ ومع هذا فاذا أخذنا وجهات النظر المتعارضة والأدلة القائمة فانه يصعب تقرير أن الحروب التركية قد فاقت فظائع الحرب الصليبية الرابعة فى تلك المدينة الرئيسيه ٠

وبالرغم من أن أنباء سقوط القسطنطينية قد تكهن بها الناس منذ سنين فان أوربا قد تلقت تلك الأنباء بكثير من الانزعاج ـ ووصل الى حيوس Chios قوات حربية من البابوية والبندقية ونابولى بعد سقوط المدينة ، وفتح من جديد الكلام فى حرب صليبية أخرى ، وتركزت الآمال فى فيليب دوق برجند كما تركزت فى حماس أنياس سيلفيوس بيكولومينى الذى أصبح فيما بعد البابا بيوس الثانى (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤) ٠ ولكن لم تفلح سياسته ولا فصاحته فى الحصول على نتائج ناجحة للمشروع ٠

وكانت الانتصارات التى حققها الأتراك أكثر بطئا أيام حكم بايزيد الثانى (١٤٨١ ـ ١٥١٢) بسبب المشكلات الداخلية فى النطاق التركى٠ وطالب أخوه « جم » بالعرش وفر هاربا الى الفرسان فى جزيرة رودس، وهؤلاء سلموه الى البابوية ، وقبل البابا الاسكندر السادس ٣٠٠٫٠٠٠ من الدوكات ثمنا لقتل ذلك البائس بالسم عام ١٤٩٥ ٠ وفى تلك الأثناء أخذ ملك فرنسا شارل الثامن عهد الصليبية عام ١٤٩٣ بمناسبة انتصاره فى نابولى ، ولكن هذا المشروع كان مصيره النسيان بعد طرده من تلك المنطقة فى ١٤٩٥ ٠ وبدأ بايزيد من جديد الهجوم التدريجى على المورة

وجزر بحر ايجه واستولى عليها من اللاتينيين فى ثلاث سنوات (١٤٩٩ ـ ١٥٠٢) ٠

ووحد سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) الأراضى الاسلامية تحت القيادة التركية ٠ وبعد أن ضم اليها أرمينيا العظمى عقب الحكم الايرانى عام ١٥١٤ قام بغزو أرمينيا الصغرى وسوريا والجزائر عام ١٥١٦ ، وتوج كل انتصاراته بغزو مصر نفسها عام ١٥١٧ ٠ أما خليفته سليمان الأول العظيم (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) فبينما كان يعمل بهدف امتلاك رودس عام ١٥٢٢ وبغداد عام ١٥٣٤ فقد أحيا مناهضة الأتراك للصليبية فى أوربا ٠ وقد استسلم الدفاع المجرى فى بلجراد عام ١٥٢١ وقتل ملك المجر لويس الثانى وردت مدفعيه العثمانيين جميع جيوشه على أعقابها فى معركة موهاكس Mohacs الحاسمة فى أغسطس ١٥٢٦ ، ونتيجة لهذا فتحت مدينة بودا أبوابها للمنتصر فى الشهر التالى ٠ وتنازع على تاج لويس كل من الامبراطور فرديناند الأول وجون زابوليا أمير ترانسلفانيا٠ وبين المتنافسين اختار سليمان أن يكون فى جانب الشخصية الأقل شأنا والأسلس قيادا وهى زابوليا ٠ وهكذا استولى سليمان على بودا بنفسه٠ وفى عام ١٥٢٩ ـ فيما بعد ـ وجد نفسه على أبواب فينا فحاصرها فترة قصيرة قبل انسحابه الى عاصمة المجر٠ وقد كان هذا آخر حدود التوسع التركى فى أواسط أوربا ٠

وفى تلك الأثناء كانت قوى العثمانيين البحرية المنظمة فى ازدياد ، وبدأ السلطان سليمان يتدخل مباشرة فى شئون الغرب البحرية والسياسية ، فأرسل سفنا حربية تركية الى مياه بنس لتشترك مع الأسطول الفرنسى فى تدعيم فرنسيس الأول ملك فرنسا ضد الامبراطور شارل الخامس ٠ وعين قرصانا محنكا من البرابرة هو خير الدين بربارسا اميرالا لبحريته (أى قبودان باشا) فهزم اندريا دوريا أميرال جنوه ـ وكان على رأس قوة بحرية عظيمة ـ حينما حاول المسيحيون النزول فى

« الجزائر » عام ١٥٤١ ، وحينئذ تجرأ الأترك على أن يدعو الحـق فى التحكم فى البحر الأبيض المتوسط كله علانيه مواجهين فى ذلك البندقية والفرسان البيض فى مالطة وحتى آل هابسبرج (*) • ولكن لم يكن الحظ دائما حليف الأتراك فقد أخفقوا فى حروبهم لاخضاع مالطة فى ١٥٦٥، وقد يرجع هذا الاخفاق الى بطولة السيد العظيم جون دى لافاليت النادرة ثم يرجع الى شجاعة فرسان القديس يوحنا • ومن جهة أخرى استسلمت قبرص لسفن تركيا الحربية عام ١٥٧٠ • وفى تلك السنه بلغ التوسع التركى أقصى ما بلغته قوة الأتراك البحريه •

ونشبت معركة لبانتو فى السنة التالية وانتهت باخفاق العثمانيين فى خليج كورنثيا بين لبانتو وبتراس فى ٧ أكتوبر عام ١٥٧١ • وكان الأسطول التركى يتكون من ٢٧٤ سفينة حربيـه تحمـل ٢٥ر٠٠٠ من الرجال ، ٢٥٠٠ من حرس السلطان تحت القيادة المشتركة من الاميرال (قبودان باشا) على محمد بك وباشاوات نجروبونتس ، والاسكندرية وموانىء أخرى • وكان أسـطول المسيحيين المتحالف يتكون من ١٠٩ سفينة حربية من البندقية ، ٥٠ من فيليب الثانى ملك اسبانيا ، ٢٩ من جنوه ، ١٣ من البابا بيوس العاشر ، ٣ من فرسان مالطة ، وبذا كان المجموع ٢٠٤ • وكان الدفاع المسيحى تحت قيادة جوان دى كاردونا الأسبانى ، وكانت المعركة الرئيسية تحت قيادة دون جوان النمسوى ، وكان الجناح الأيسر تحت قيـادة بارباريجو من البندقية والجناح الأيمن تحت قيـادة جيان اندريا دوريا من جنـوه ، أمـا دون الفارو دى بازان مركيز سـانتا كروز الأسـبانى ، فقد اتخـذ موقفا صـــلبا فى المؤخرة ومعـه سفن احتياطية على اســـتعداد لأية طوارىء • وكانت متـاعب الأتراك هى البداية فقد استولى العـدو على مائة وسبع وسبعين سفينة

(*) ويطلق اسم هابسبرج Hapsburg على العائلة الحاكمة للنمسـا (١٢٧٦ – ١٩١٨) ، وللأسبانيا (١٥١٦ – ١٧٠٠) ، وللأمبراطورية الرومانية (١٤٣٨ – ١٨٠٦) • كما يكتب هذا الاسم أحيانا aHbspurg

حربية من سفنهم ، كما أحرقت أو أغرقت خمس عسرة منها • وكان مجموع من ذبحوا أو غرقوا من الأتراك بين ٢٠٫٠٠٠ و٣٠٫٠٠٠ ومنهم القبودان باشا على • أما خسائر المسيحيين فقد وصلت الى اثنتى عشرة سفينة حربية ، ٧٥٠٠ من الرجال • وهكذا سلمت مياه البحر الأبيض المتوسط من السيطرة التركية الشاملة التى كان يمكن أن نقضى على البندقية نهائيا • وفى الحقيقه ان حصار فينا فى عام ١٥٢٩ عن طريق البر ومعركة لبانتو فى عام ١٥٧١ عن طريق البحر قد حددت نهاية مناهضة الأتراك للصليبية وقمة التوسع العثمانى فى أوربا •

نظرة الى الماضى

يتضح من العرض السابق أن فكرة الصليبية قد ظهرت فى أشكال متنوعة • وعلى الدارس أن يحترس من أن يفسر معنى الصليبية تفسيرا واحدا من عصر الى عصر • ففى بدايتها كانت الصليبية تسعى الى الايمان• ومن خلاله كانت الانسانية الغربيه تسعى الى تحرير مدينة بيت المقدس الدنيوية بالسيف على حين كانت تتمنى سرا الوصول الى مدينة بيت المقدس السماوية • ولقد قبل الناس كلمات السيد المسيح كما ذكرها البشير متى (*) حرفيا بحمل الصليب واتباعه • كان على المسيحى المؤمن أن يتبنى فكرة الحرب المقدسة • وان فكرة الحج الى ما وراء البحر برزت باعتبارها أقصر طريق للخلاص • وصار ذلك الطريق الحلقة الطبيعية بين حياة الناس المادية على الأرض وبين الحياة الأبدية • وهذا الرأى الأساسى فيما يتعلق بالموت والقيامة والدينونة كان يحكم العقول فى العصور الوسطى فى العالم كله مما أدى الى مولد الحرب الصليبية الأولى • وكان أن ارتبط هذان الجيشان فى الحركة بعقيدة جديدة أو تولد ايمان جديد (أو دين جديد) • وحينما صاحب الجنود جيش الله كانوا يؤمنون بأن من يسقط فى المعركة ينال تاج الشهداء وينال درجة عليا فى القدسية والسعادة الأبدية •

وبالرغم من أنه من الخطأ الجسيم أن نهمل العامل الدينى فى تقدم المحاولات الصليبية فى عشرات السنين المتتالية فانه يتعين علينا أن ندرك أنه بعد الفرصة العظيمة للاستيلاء على بيت المقدس والقبر المقدس عام ١٠٩٩ ، بدأت الحوادث تتخذ مجرى آخر تدريجيا • وحينما انتهت

(*) انجيل متى ١٦ : ٢٤ ، ٢٥ •

ضوضاء الحرب الصليبية الأولى بتكوين مملكة بيت المقدس اللاتينية ثم الوصول الى مرحلة ثانيه ، أصبحت الحرب المقدسه خاضعة لتأثير حالات متعددة : سياسية وعسكرية واقتصادية ٠

وقد تحركت الصليبية من نطاق التقوى الذى لا تشوبها شائبة الى حقائق العالم وحالة من الحرب أصبحت أهدافها الدنيويه تزداد بدرجة ملحوظة . وكانت تلك الظاهرة ذات أثر فى مجرى التاريخ . ويمكننا ملاحظة أن الصليبية التى بدأت وسيلة لتحرير مكان ميلاد المسيح من نير الكفار ولمساعدة المسيحيين الشرقيين ، قد انتهت بمأساة ٠ وذلك بأن دفعت المسلمين الى أن يناهضوا الصليبيه فيشنوا على المسيحيين جميعا حربا لا تعرف الهوادة ٠ والحقيقة ، أن استيلاء المسلمين على الأرض المقدسه قد اتسع مجاله حتى شمل تخريب كل ولاية مسيحية فى متناول المسلمين ٠

كذلك نرى أن حل الفرنجة للمسألة الشرقية فى العصور الوسطى تلاه على الفور حل المسلمين لها فى مظهر مناهضة الصليبية ٠ وهناك فرق حيوى بين الحلين وهو أن الحل الأخير (مناهضة الصليبية) قد برهن على أنه أكثر ثباتا وتحملا فى شئون العالم من الحل السابق له ٠ ويمكن ارجاع فشل المسيحية فى انجاز حل دائم عن طريق الصليبية وانتصار المسلمين المحقق الى أسباب كثيرة ٠ فعدم اتحاد الصفوف كان عاملا رئيسيا فى جلب الكوارث على قادة الصليب وقواتهم ٠ وكان هذا من أعراض تغير اتجاه الحياة السياسية والدينية فى أوربا المتغيرة ٠ ومن بين النتائج البارزة فى ذلك الوقت تصدع مفهوم حكم العالم بالامبراطورية والبابوية ونهضة ولايات جديدة متجمعة حول شخصيات ملكية لها ادراك متزايد لمعنى الوطنية ٠

وكانت المشاكل المضاعفة فى الوطن وفى الكنيسة تلفت عقول الرجال عن الصليبية ٠ وبينما كانت انجلترا وفرنسا مشتبكتين فى حروب المائة عام كانت الهيبة الامبراطورية فى هبوط مستمر فى كل من ألمانيا وأوربا الوسطى ولمبارديا ٠

وقد انقسمت ايطاليا الى جمهوريات مستقلة على نمط واحد ، وكانت الحروب مشتعلة بصفة دائمة فيما بينها • وكان هدفهم المشترك هو حماية مصالحهم التجارية فى أوربا وفى الخارج دون اهتمام كبير بأسباب دينية • وأظهر أهل البندقية هذا الاتجاه فى كلمة واضحة اتخذوها شعارا وهى « أن على كل مواطن من جمهوريه سان مارك أن يكون فينيسيا (أى بندقيا) أولا ثم مسيحيا بعدذلك» Siamo veneziani, poi Christiani

أما فى شبه جزيرة ايبيريا فقد ظهرت ظروف مختلفة كان فيها المواطنون المسيحيون مشغولين باستمرار فى استرداد الحدود التى جناها العرب • وكانت الحروب الصليبية الاسبانية معارك من أجل الحرية الوطنية • وهذا موضوع مستقل يجب أن يترك حتى يعالج فى مكان آخر •

وربما كان ما حدث داخل الكنيسة أكثر خطرا بالنسبة لرجل العصور الوسطى من هذه التطورات الخطيرة ، فان الأسر البابلونى حيث كان الملوك الفرنسيون فى أفينون بجنوب فرنسا يسجنون البابوات لمدة سبعين سنة تقريبا (١٣٠٥ ـ ١٣٧٨) قد انتهى بالهوة العظيمة الساحقة للكنيسة فى الغرب (١٣٧٨ ـ ١٤٠٩) • ومن الصعب ادراك تأثير المنظر المؤسف لاثنين أو ثلاثة من البابوات المتنافسين كل منهم يعرض بالآخر فى اجتماع شعبى من أجل خطف التاج البابوى • وبهذا انحدرت هيبة الكنيسة التى كان لها كل التبجيل قبل ذلك فى تفكير العصور الوسطى • ونتيجة لذلك تطورت الحركة المدونة باسم « حركة التوفيق » باعتبارها الوسيلة الوحيدة لاصلاح هذا الفساد • وكان من الطبيعى أن تستحوذ بل تحتكر انتباه كل من الشعب والامارات فى أوربا الغربية • وكان الخروج على المسيحية يكاد يطغى مده : فقد خرج جون ويكليف (١٣٢٤ ـ ١٣٨٤) فى انجلترا وجون هس (١٣٦٩ ـ ١٤١٥) فى بوهيميا والتف حولهما الكثيرون • وبين تلك النذر والجولات لم يكن عقل الشعب فى حالة يقبل معها الصليبيه •

ولم تضف الكبرياء وعدم الاخلاص اللذان كانا يميزان بعض الصليبيين شيئا الى عدالة أهدافهم • كما لم تجلب لهم نصرا دائما • وقد كان ما اقترفه اللاتينيون فى الاسكندرية وهروبهم عند اقتراب قوات السلطان المسلحة خير شاهد على روح الصليبيين فى الفترات الأخيرة • أما أكثر أعضاء تلك الحملة جديه أمثال الملك بيتر الأول ومستشاره فيليب دى ميزبير والقاصد الرسولى بيتر توماس ، فلم يسيئوا تفسير الاشارات التى تنذر بالسوء واعترفوا بالذنوب والخطايا التى كان يقترفها جنود الصليب •

وعلاوة على هذا كانت الجمهوريات الايطالية مشغولة بخطط سرية ضد جميع المحاولات الصليبية حتى يكسبوا ود أعداء المسيحيين جميعا وخاصة فى العصور الوسطى • اذ أن أية حرب مع المسلمين الذين يتحكمون فى جميع الطرق المؤدية الى الشرق كانت تؤدى الى كساد تجارتهم ، وتقضى على مصادر ثرواتهم • ولم يكونوا على استعداد للتضحية بمصالحهم المادية من أجل الهدف النبيل تجاه الله • والحرب الصليبية الرابعة مثال حى لطمع كل الجماعات المشتركة فى تلك الجريمة العالمية ، اذ أن كلا منهما كان يود الحصول على ما تمتلكه الأخرى • وكان جشع فى البندقية وهى تسعى الى الحصول على الامتيازات التجارية بأى ثمن لايساويه الا اشتراك جنوه فى تجارة العبيد مع المماليك اذ لم تتورع عن ذلك ولا احترمت قرارات البابا الذى كان يحرم تلك التجارة •

وزادت شخصية الفروسية الفرنسيه المتعجرفة من المشكلات التى قابلت الأعمال المنظمة الجدية ضد عدو جبار • وقد أدى هذا الى تدميرهم عند نيكوبولس حينما رفض الفرنسيون مقترحات سيجسموند الحكيمة والبعيدة النظر وتعلقوا بأمل واه فى الحصول على شرف الانتصار ذلك اليوم لانفسهم •

وعلاوة على كل ذلك علينا أن نتذكر أن الصليبيين كانوا يحاربون على أرض أجنبية ، وأن أسلحتهم وأساليبهم فى الحرب لم تناسب البيئة الجديدة • كانت دروعهم الحربية التقيلة تعوق حرية الحركة وتنهك قواهم فى ذلك الجو الحار • على حين برهنت جيادهم الضخمة وخططهم المفاجئة على تفاهتها فى وجه الهجمات التى شنتها فروسية العدو الخفيفة الحركة • وكان المسيحيون يعتقدون أنهم سوف يحاربون جماعات غير منظمة • وكان ذلك الاعتقاد الخاطىء مصدرا لكثير من الأخطاء الكبيرة وسوء الحظ الذى صادفهم • ففى مصر وتركيا أقام السلاطين جيوشا منظمة قوية لعلها كانت الأولى من نوعها فى تاريخ العصور الوسطى • فكانت جيوش المسلمين مكونة من رجال مهنتهم الوحيدة هى الحرب ، وكانوا مدربين على أحسن النظم العسكرية عند المماليك والعثمانيون ، تميزهم الطاعة العمياء واتباع القوانين الصارمة • وقد شتتت فرق المسلمين هذه خليط الفرسان الغربيين غير المتجانسين الذين كانوا يتبعون خططا قديمة • وكان المسلمون المحاربون مثل الصليبيين يؤمنون بأنهم يمارسون حربا مقدسه من أجل هدف مقدس ضد الكفار المعتدين • وكان اخلاصهم تجاه هذا الهدف على الاجمال يفوق اخلاص المسيحيين • وقد حاول مؤرخو العصور الوسطى فى كثير من المناسبات أن يجدوا الأعذار لمتاعب بنى وطنهم فى تفوق المسلمين فى العدد • ولم تبرهن الصفحات السابقة ــ كما نحسب ــ على وجهة النظر هذه • ان المسلمين نالوا النصر لا بالتفوق العددى بل بالخطة الأفضل ، والنظام الأدق ، والقيادة الاعظم ، والاخلاص الأكبر •

ولقد أدى الانهيار النهائى لهدف الصليبية فى الغرب الى آثار عميقة فى مجرى الحوادث فى الشرق ، وتركت مصر للقيام بالقيادة الكاملة للموقف فى الشرق . وأصبحت تركيا قوة أوربية بجانب كونها قوة آسيوية . وكانت مصر قد بدأت سلسلة من الأعمال المناهضة للصليبية عجلت بسقوط الممالك المسيحية القريبة من حدودها • وفى الحال اختفت أرمينيا من الخريطة

كولاية مستقلة وأصبحت ولاية تابعة للمماليك ، واضطر ملوك قبرص الضعفاء من اللوزيجنيين الى أداء جزية سنوية للسلاطين فى القاهرة بعد حكم جينس الثانى اللوزيجنى الذى جر الكوارث وراءه • وفى تلك الأثناء كانت قوى العثمانيين قد امتدت امتدادا بعيدا فى قلب جنوب شرق أوربا • وبعد أدرنه أصبحت بيزنطة عاصمتهم ، وآل عرش قسطنطين الى محمد الثانى « الفاتح » وخلفائه من عام ١٤٥٣ • واستمر الأتراك فى عملية ادماج بقايا الحرس اللاتينى فى المورة وجزر الأرخبيل بنشاط لا يعرف الكلل ولا الملل • وبمجرد أن توحدت انتصارات الامبراطورية الجديدة بدأ السلاطين تقدمهم الشمالى فى قلب شرقى أواسط أوربا حتى أبواب فينا • وأخفق الصليبيون من نيكوبولس فى وقف ذلك التدفق الكاسح فى أولى مراحله • وبذا بقيت المسألة الشرقية احدى العوامل الديناميكية فى سياسة أوربا خلال التاريخ الحديث • وأخيرا حينما سيطر العثمانيون على مصر والأرض المقدسة فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر أصبح مصيرهم مرتبطا بنهضة الامبراطورية الاسلامية التى كان يحكمها فى وقت واحد كل من سلطان وخليفة •

وقد استعاد المجندون من أوربا الغربية ومن جميع القارات ــ قديمها وحديثها ــ مدينة بيت المقدس قرب نهاية الحرب العالمية الأولى • وحارب المسلمون والمسيحيون معا فى كلا الجانبين لا من أجل الحصول على الأماكن المقدسة ، ولكن الحرب قامت أصلا من أجل انزال الهزيمة بالأتراك وحلفائهم الألمان وكان التوافق بين ازدهار روح القومية فى قلب عرب الشرق الأدنى الذين طال احتلال أراضيهم وبين قوى الغرب التى حاربت لانقاذ حياتها ضد الخطر الألمانى • واشترك الفريقان فى مطاردة أدت الى تحرير الأرض المقدسة • أما السبب القديم للحرب المقدسة فقد غاب فى قرون النسيان قبل دخول القوات المتحالفة المنتصرة الى بيت المقدس فى ١٠ ديسمبر عام ١٩١٧ •

الفصل الخامس

قصة تجارة العصور الوسطى في الشرق الأدنى

يجب أن ينسب النجاح الذى ناله اقتصاد العالم فى العصور الوسطى الى تطور التجارة والتبادل الدولى للبضائع بين الشرق والغرب ، وهذا الاتجاه هو الذى أدى الى زيادة الدخل القومى فى بعض المناطق الى درجة لم يسبق لها مثيل • والواقع أن مولد الانقلاب الاقتصادى فى العصور الوسطى لم يتم فى ظل عصر الاقطاع الزراعى الجامد الذى ساد غرب أوربا عندئذ ، وانما تم فى الحركة الدائمة للتجارة والصناعة المتوارثة فى معظم دول شرق البحر الأبيض المتوسط • واذا تأملنا خريطة العالم الاقتصادى فى العصور الوسطى بصورة عامة ، وجدنا أن هناك ثلاثة أقسام ذات مراحل متعاقبة أدت الى مولد التجارة فيما بين سقوط الامبراطورية الرومانية وفجر التاريخ الحديث • وأول هذه الأقسام هو الامبراطورية البيزنطية التى تسلطت بتفوق على السوق المالية من القرن الخامس الميلادى حتى أواخر القرن السابع • والقسم الثانى هو النشاط العربى خلال أواسط العصور الوسطى من بداية القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر • أما القسم الثالث فهو ما كان فى أواخر العصور الوسطى مرتبطا بنشأة التجارة فى جنوب أوربا وتطور القوة البحرية وكذلك الصناعة فى كل من شمال أوربا وجنوبها • وكل هذه الأقاليم والمراحل — اذا أخذت الترتيب — قدمت لنا مجموعة من الخصائص تحكمت فى مجرى حوادث العصر الذى سادت فيه ، ويجدر بنا أن ندرس هذه الخصائص لنعرف أصل التجارة فى العصور الوسطى مع اشارة خاصة الى الشرق الاوسط •

فالمرحلة الأولى ، مرحلة انهيار الامبراطورية الرومانية التي أعقبها تدفق الهمج الى الغرب كان لها انعكاسات بعيدة المدى على تقدم التجارة القديمة مع الشرق عبر البحر الأبيض المتوسط . ورغم أنه قد يبدو سوء تقدير للحقائق أن ندعى أن التجارة الدولية التى انتعشت فى ظل السلام الرومانى قد انقرضت بعد غزوات الهمج فانه ليس هناك شك فى أن تدفق التجارة فى سلام عبر البحر قد توقف مؤقتا عند بداية العصور الوسطى . فبمجرد عودة السلام وشيوع الأمن والاستقرار الى حد ما ، استؤنفت المعاملات ولكن بمعدلات منخفضة الى درجة كبيرة . وبمعنى آخر تعرضت التجارة الدولية لضربة كادت تكون قاضية نتيجة لتلك الحروب لكنها لم تنقرض كل الانقراض من غرب أوربا .

وفى الوقت نفسه كان فى استمرار الامبراطورية البيزنطية مجال آخر لبعض الضعف الذى أصاب التجارة الغربية ، وانتقل مركز النقل من روما الى القسطنطينية . فموقعها الجغرافى الممتاز من حيث امكان الوصول اليها من أى قارات العالم القديم الثلاث سواء عن طريق البر أو البحر الى الشرق الأقصى والأوسط والأدنى ، وكذلك الى شمال وغرب أوربا . كل ذلك جعل من العاصمة البيزنطية موقعا طبيعيا حيث كان يلتقى التجار من كل البلاد تقريبا . وليس هناك دليل أكبر على انتقال مركز التجارة الى الامبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى ، من أن العملة الذهبية الشرقية للدولة الرومانية النومسما nomisma حلت محل العملة الذهبية الغربية للدولة الرومانية « سليدس » soldius كأساس للتعامل الدولى ، وكوسيلة للتبادل التجارى فى أوربا والشرق .

وتدفقت البضائع من كل مكان الى أسواق القسطنطينية . فقد جاء الحرير والأوانى الصينية (بورسلان) من الصين ، وجاءت الجواهر والتوابل من الهند ، والسجاد من بلاد الفرس ، واللآلىء من الخليج الفارسى ، والعاج والأبنوس من افريقيا ، والنسيج والحبوب من مصر ، والزجاج والصلب

من سوريا ، والفراء والعنبر من روسيا ، والمصنوعات الجلدية من مراكش ، وكذلك الأرقاء من كل لون وشكل من كل بقعة من بقاع العالم ؛ كل ذلك تدفق الى المدينة العظيمة سلعا للبيع والتجارة • والى جانب ذلك تطورت صناعات متعددة فى المنطقة حتى أن الفنانين والمنازين من أصحاب الحرف فى البلاد المجاورة وجدوا لهم مكانا فى العاصمة الفنية • وكان المهرة من الصناع يقومون بصناعة العطور ، والملابس المزركشة والمذهبة من انبروكار وكذلك ملابس الكهنة والحفر فى العاج وأعمال الموزايكو ، وكذلك قام صناع آخرون بنحت الأحجار وتشكيلها ، وبصنع المجوهرات والطلاء بالميناء فى الذهب والفضة ، وعمل الصلبان وتجليد الكتب وكل أنواع السلع الفاخرة • وتوافر ذلك كله فى القسطنطينية حيث كان يهرع أثرياء العالم للشراء • وزيادة على ذلك كانت الدوله البيزنطية قد وضعت قواعد وقوانين لتنظيم التجارة والصناعة تحمى البائع والمشترى وحقوق الامبراطورية • وقد كان كتاب عنوانه « رئيس المقاطعة » Book of the Prefect فى القرن التاسع يتضمن مجموعة من القوانين الدقيقة التى تنظم أسواق التجارة والحقوق والواجبات الخاصة بالصناع المنتجين والتجار والمقرضين ورجال البنوك • وكانت قوانينه مأخوذة من كتاب عنوانه « كتاب المدير Book of hte Intendant والكتاب العربى « كتاب الحسبة » الذى كان مشهورا فيما بعد فى الامبراطورية الاسلامية لتنظيم السوق وحكم الناس • ولم تتصف التنظيمات البيزنطية دائما بقواعد الاتزان والعدالة ، ورغم ذلك فان سياسة التجارة الامبراطورية التى انتهجت أسلوب الاغتصاب لم تكن تشكل عائقا كبيرا للتجارة ، واستمرت القسطنطينية المدينة الأولى فى العالم المسيحى وندا لبغداد والقاهرة فى الامبراطورية الاسلامية خلال تلك الفترة •

أما فى غرب أوربا فقد أدى ثبات مركز الدول الجديدة منها الى تثبيت نظام اجتماعى جديد يعتمد على تملك الأراضى الزراعية • ومع أن التجارة لم تكن محرمة الا أن السلطات الدينية فى عصر الايمان اعترضت عليها

باعتبارها صـورة أخرى للربا الفاحش • واقتصرت المعاملات التجارية المحلية فى غرب أوربا على نظام المقايضة البدائى فى السلع الضرورية ، ولم يكن للنقود مكان هام ان لم ينعدم فى هذه المعاملات نتيجة لندرتها الشـديدة • وطوال عهد الميروفيجيين والكارولينجيين تضاءلت التجارة الدولية الى حد أكثر من التجارة الداخلية إذ اقتصرت على المقايضة على بعض السلع الشرقية الخفيفة التى كان يجلبها الى الغرب بعض أفراد من السوريين واليهود • وكان للسوريين ـ وهم سلالة الفينيقيين القدامى ـ مهارة بحرية عظيمـة ، وكانت التجارة مهنتهم الأساسـية من قديم الزمان • أما اليهود ـ الذين كانوا دائما محرومين من تملك الأراضى الزراعية ـ فقد تشتتوا بين كل أمم الشرق والغرب ولاءمهم عمل التجارة والتعامل المصرفى من دولة الى أخرى • وفى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى أصبح التعبير « تاجر » مرادفا لكلمة « يهودى » •

ومع ذلك فمن الخطأ أن نبالغ فى تقدير الدور الذى لعبه التجار فى هذا المجتمع المبكر فى العصور الوسطى • فالأسواق كانت قليلة بعيدا بعضها عن بعض ، ولم يكن الأفراد ذو القدرة الشرائية الحقيقية الا أقلية فى غرب أوربا • وكادت المدن الرومانية تختفى وتحل محلها قرى زراعية صغيرة واقطاعيات • وكان هناك طرق شقها الرومان قديما ساعدت سائقى المركبات من الرومان وكذلك الكتائب الرومانية على الإنتقـال بسرعة بين حدود الامبراطورية من طرف الى طرف • ولكن هذه الطرق كانت قد اندثرت ولم يبق منها سوى ما لا تكاد تصلح إلا لسير الحيوانات كالبغال والخيول بأحمالها المحدودة ، أما الجسـور فقد ساءت حالتها وأصـابها الانهيار • وكان السفر محفوفا بالمخاطر وكانت الغابات ملأى باللصوص • والى جانب كل هذه المصاعب كانت الاسـتثمارات تتضاءل نتيجة للقيود المالية فى تلك الفترة منذ اختفت العملة الذهبية الرومانية وحلت محلها العملة الفضية التى سكها الكارولنجيون بكميات محدودة • أما انتعاش الحياة فى المدينة وكذلك انتعاش الصناعة والتجارة فى أوربا فقد تم فى عصور متأخرة بعد ذلك العصر •

والمرحلة الثانية من قصة التجارة فى العصور الوسطى ترتبط بغزو العرب لشواطىء الشرق فى آسيا ، وكذلك بسواحل شمال افريقيا فى القرن السابع . وقد شهد القرن الثامن امتداد السيطرة العربية عبر الساحل الغربى للبحر التيرانى بما لهذا الامتداد من آثار خطيرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط . فقد احتل اسبانيا فى عام ١٧١١ طارق ابن زياد الذى خلد اسمه بجبل طارق بعد أن هزم رودرك الفيسيغوثى . وفى القرن الثامن أيضا زاد العرب من غاراتهم على جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية . فمنذ ٦٤٨ – ٦٥٢ بدأنا نسمع بغزو قبرص وردوس واحتلالهما . وفى ٧١٧ – ٧١٨ احتل المسلمون السوريون جزيرة رودس ثم خضعت قبرص واستسلمت لهم بعد ذلك فى منتصف القرن نفسه ؛ واحتل الأمويون الذين كانوا يحكمون اسبانيا جزر بليار عام ٧٩٨ . أما كورسيكا وسردينيا اللتان قاومتا الجنود المسلمين فقد احتلهما أخيرا الأغالبة Aghlabids فى عام ٨٠٩ .وكان الاقتصار الاستراتيجى على صقلية بطيئا برغم اتصال العمليات الحربية منذ ٨٢٧ الى ٩٠٢ تقريبا حين أخضع الأغالبة كل الجزيرة عدا قلعة واحدة هى Tabrmina ومن قواعد صقلية قامت القوات الإسلامية بغارات متقطعة على ايطاليا . ففى عامى ٨٦٨ ، ٨٧٢ هاجمت جايتا وسالرنو على التوالى . وكذلك اقتحمت بلاد وسط ايطاليا وأغارت عليها حتى حدود روما نفسها وكان على البابا جون الثامن (٨٧٢ – ٨٨٢) أن يشترى سلام حدوده المهددة بأن يدفع ٢٥٫٠٠٠ قطعة فضية (١) للعدو . ومع ذلك فان بيزا ، التى تقع فى الشمال تعرضت للاغارة خلال عام ٩٣٥ واستطاعت قواعد المسلمين القوية فى باري (٢) ، وتارنتم (٣) أن تمنع الحركة البحرية الى خارج بحر الأدرياتيك .

(١) استخدمت عملة اسمها مانكوزى Mancusi غير معلومة القيمة ، ولكنها نقلت الى انجلترا وقدرت فيما بعد بما يساوى ٦ شلنات .

(٢) مدينة فى جنوب شرق ايطاليا .

(٣) تعرف الآن باسم ترنتو فى جنوب شرق ايطاليا وسمى خليج ترنتو نسبة لها .

وهكذا أصبح البحر الأبيض المتوسط كله بحيرة عربيـة مغلقة فى وجه السفن المسـيحية لكل الأغراض العمليـة ، ولكنها كانت مفتوحة للتجارة لكل البلاد التي تخضع لحكم العرب ، وكذلك كان لذلك آثار متأرجحة فى مجال الاقتصاد والصناعه العربية • فان الامتداد الهائل للامبراطورية العربية من سمرقند فى بلاد التركستان ولاهور فى وادى نهر السند [فى شمال غرب الهنـد] من جهة والأطلسى واسـبانيا من جهة أخرى أدى الى ازدياد القوة التجارية بدرجة كبيرة • وكان المسلمون بعكس المسيحيين فى غرب أوربا يقدرون التجارة ويضعونها فى مرتبة علية • بل لقد ورد فى الآثار الاسـلامية (١) أن الله يبارك للمؤمن فى ثلاث ، الزراعة وتربية الأغنام والتجارة كلها على حد سواء ، وليس ثمة شك أن التجار العرب ذهبوا الى القسطنطينية وشاهدوا عظمة ثروتها التجارية المذهلة ؛ وكان من الطبيعى أن يبحثوا لأنفسهم عن نصيب من هذه التجارة العظيمة • وبمرور الوقت أخذت المدن الاسلامية مثل بغداد والقاهرة وقرطبة تحتل تدريجيا مكانة القسطنطينيه • وكانت الطرق الرئيسـية للتجارة من الشرق برا وبحرا ؛ اما أن تنتهى أو تمر عبر اراض خاضعة للحكم العربى • فقد كانت السفن المحملة بالسلع الفنية من الهند ترسو على الشواطىء العربية فى الخليج الفارسى والبحر الأحمر على حين كانت القوافل من آلاف الأبل تعبر قارة آسيا من الصين الى الحدود الشاسعة للامبراطوريه العربية • وكانت الحدود العربية تلامس بحر قزوين والبحر الأسود اللذين كانا يفتحان الطريق الى شمال روسيا وغربها وشرقي وسط أوربا • وقبل نهاية القرن السابع سك العرب عملتهم وظهر الدينار (٢) الذهبى والدرهم (٣) الفضى لينافسا العملة

(١) ترجمت هذه العبارة بتصرف من المراجع •

(٢) الكلمة (دينار) مشتقة من اللفظ الرومانى «دناريوس» والذى كان يساوى ١/٧٢ من الجنية الفضى • وظل ذلك حتى حكم نيرو وبعدها تغيرت قيمته • أما الدينار العربى فهو عملة ذهبية لها نفس وزن الدرهم من الفضة أى ٣ر١١ جم ويساوى حوالى ٧٥ر٤ دولار •

(٣) (الدرهم) تحريف الكلمة اليونانية « الدراخما » ويزن ٣ر١١ جم ويساوى حوالى ٨ سنت •

البيزنطية « النومسما » فى المعاملات الدولية • وكان الخلفاء يكرمون التجار فوضعوا من أجلهم قواعد الأمن المشددة على الطريق ليضمنوا سير التجارة فى طمأنينة وسلام •

ومن القرن التاسع بدأت الأعمال التجارية فى العالم تتجه الى مركز الامبراطورية العربية فنتج عن ذلك ثراء واضح لم يكن يخطر على العقل لكل من التاجر والدولة • وفى القرن العاشر سجل المؤرخون أرقاما خيالية تمثل الثروة والتقدم فى بلاد الخلافة وشرقها وغربها فقد قدر دخل التجارة فى مدن حلب ودمشق وبيت المقدس فى سوريا فى عام ٩٠٨ بما يقرب من ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ذهب ، أى ما يعادل ٩٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار ذهب ، دون أن تتأثر باتجاهات التضخم التى نعرفها فى العصر الحديث ، ويجب الا ننسى القوة الشرائية (*) العالية للنقود فى ذلك الوقت • وفى مصر استطاع الحاكم من اسرة ابن طولون أن يجمع قدرا مماثلا من ضرائب تبادل التجارة فى نفس الوقت تقريبا • وكلما اتجهنا غربا وصل الثراء الى درجة خيالية فى الأندلس حيث يؤكد الرحالة ابن حوقل (٩٧٥) ان الخلافة الأموية فى قرطبة تحت حكم عبد الرحمن الثالث استطاعت أن تحقق دخلا يساوى ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ذهب (حوالى ٩٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ذهب فى العصر الحديث) من تجارة الذهب السودانى الذى كانت القوافل تحمله الى سيجلماسا والى مراكش فى الفترة من ٩١٢ الى ٩٥١ ويقول المؤلف نفسه أنه بينما كان فى واحة مدينة انداجوشت التى تقع على مسافة رحلة ١٤ يوما شمال غانا فى القارة الافريقية السوداء ــ رأى المؤلف شيكا (وهى الكلمة العربية صك) بمبلغ ٤٢٫٠٠٠ دينار محولا الى تاجر من سيجلماسا •

ولتقدير مدى توسع التجارة الاسلامية يكفى أن نتتبع انتصارات

(*) من الصعب تقدير القوة الشرائية للنقود فى العصور الوسطى اذ أنها كانت تتوقف على درجة نقاء المعدن المستخدم وكذلك بالنسبة للتضخم المالى •

الدينار العربى كوسيلة للتعامل في تداوله عبر العالم فى العصور الوسطى • وقد كشفت بعض الحفريات الحديثة فى مناطق كثيرة عن وجود كميات هائلة من العملات العربية فى روسيا وفنلندا ، والبلاد الاسكندنافية والبلقان ، بل ان هناك أمثلة متفرقة وجدت فى مناطق بعيدة مثل بريطانيا وايسلندا • وكانت غالبية العملة تحمل تاريخا يقع فى الفترة ما بين نهاية القرن السابع الى القرن الحادى عشر • وهناك العملة الذهبية التى سكها افا Offa ملك ميرشيا Mercia (*) (٧٥٧ ـ ٧٩٦) وكانت تحمل اسمه (الملك أفا) Offa Rex محفورا من اليمين الى اليسار على حسب الكتابة العربية فى جهة وتحمل حفرا عربيا على الناحية الأخرى ، وهذه العملة تقليد واضح للدينار العربى مما يدل على نفوذ العرب فى التجارة والاقتصاد فى ذلك العصر •

واستمر تقدم العرب بلا منافس حتى دخول النورمانديين الى ايطاليا والبحر الأبيض المتوسط فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وكذلك حتى نشوب الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٦ التى بدأت المرحلة الثالثة فى تاريخ التجارة • وقد كان النورمانديون مجموعة من الحجاج عملوا جنودا مرتزقة تحت قيادة قائد بيزنطى اسمه جورج مانياكس فى الحرب ضد المسلمين ، ثم نزلوا أخيرا الى جنوب ايطاليا كقراصنة وقرروا اقامة مملكة منتهزين فرصة الفوضى السائدة عندئذ • ثم أسروا البابا ليو التاسع عام ١٠٥٣ ، وخدموا تحت امرة بابا آخر هو نيكولاس الثانى فى عام ١٠٥٩ ، كما أنقذوا جريجورى السابع من روما عندما هاجم المدينة مجموعة مماثلة من الرحل عام ١٠٨٤ •

وهناك اسمان ظاهران معروفان لشقيقين من النورمانديين فى هذه الفترة وهما روبرت جويسكارد (١٠٥٧ ـ ١٠٨٥) دون أبوليا وروجر

(*) قامت هذه الدولة فى وسط انجلترا وكانت ملكة انجلوسكسونية (المترجم) •

الأول فى صقلية (١٠٦١ ـ ١١٠١) فبينما ركز الأول جهده فى استئصال كل من النفوذ البيزنطى والاسلامى من جنوب ايطاليا ، كرس الثانى نفسه ليحل محل الأمير العربى فى صقلية ، وكذلك بدأت قصة المملكة الجديدة . فاستيلاء روبرت على بارى عام ١٠٧١ أكد حكمه فى جميع البقاع فى أبوليا ؛ وفى العام التالى احتل روجر الجزيرة كلها بمساعدة أخيه بالرمو فى صقلية وتم اخضاعها عام ١٠٩١ . وكان ذلك دلالة على عودة المسيحية بالتدريج الى حوض البحر الأبيض المتوسط ، واستمرت صقلية طريقا للتجارة الاسلامية والمسيحية . وفى الوقت نفسه أغار الصليبيون فى الحرب الصليبية الأولى لفتح الطريق الى الشرق وأسهم النورمانديون اسهاما كبيرا فى قيادة حركة الحرب المقدسة وكان بوهمند ابن روبرت جويسكارد وأخوه روجر مع تانكرد وآخرون من بين الأوائل الذين اسهموا فى الهدف الجديد .

وبهذه الحوادث الطارئة تأثر مجرى التجارة فى العصور الوسطى تأثيرا كبيرا لا يمكن تقديره . فقد كان ذلك علامة على عودة انتعاش تجارة أوربا مع الشرق ووصل نموها التدريجى أخيرا الى درجة لا مثيل لها فى التاريخ الأوربى . اذ امتدت واتسعت وتوغلت أساطيل البندقية وجنوه والوحدات التجارية الأخرى والمدن التجارية فى ايطاليا وجنوب البحر الأبيض المتوسط حتى تفى بالحاجات الملحة لنقل الأعداد المتزايدة للصليبيين من أوربا . وفى الوقت نفسه جاء استئناف التجارة مع الشرق نتيجة طبيعية للحروب الصليبية لأن التجار الأوربيين كانوا اما أن يصاحبوا البعثات المختلفة ،واما أن يتبعوها ويفتتحوا أسواقا جديدة فى كل ميناء يتم فتحه فى الشرق .

وبرغم أن الاتصال المباشر بين الشرق والغرب بدأ عن طريق الحرب فانه كان مقدرا له أن يخضع لطريق السلام فى مجالى التجارة والثقافة . فقد تم اخضاع القراصنة العرب أو على الأقل أوقفت هجماتهم عندما استعيدت جزائر سارادينيا عام ١٠٢٢ وكورسيكا عام ١٠٩١ وصقلية

فى ١٠٥٨ ــ ١٠٩٠ ، وكانت هذه تستخدم كقواعد وخلايا مربحة لسفن الرحالة المسلمين من شمال افريقيا واسبانيا ٠

كل ذلك أدى الى ازدهار بعيد المدى فى المدن التجارية ، كما أدى الى نهضة المجتمعات فى جنوب أوربا ، وكذلك الى اقامة اتحادات تجارية فى الشمال لتوزيع السلع عبر أوربا ٠ وكانت البندقية وجنوه وبيزا على رأس هذه المدن فى شمال ايطاليا ٠ أما اتحاد ميلانو الذى ضم مدن سهل لمبارديا الأخرى مثل برجامو ، وبرشيه ، وكريما ، فقد قام أساسا لمعارضة الامبراطور فردريك بربارت ولكنه لعب دورا اقتصـــاديا فى النهضة التجارية ٠ وفى جنوب ايطاليا انتعشت نابولى ، وسالرنو ، وأمالفى ، وبارى على حين اكتسبت بالرمو فى جزيرة صقلية موقعا بارز الأهمية ٠ وفى فرنسا بلغت مرسيليا ، ومونبلييه وناربون مبلغ الشهرة فى تاريخ متأخر وكذلك برشلونه ، وكتالونيا فى شمال اسبانيا ٠

وفى الداخل تكون اتحـاد الهانسيتك (*) للنهضـة التجارة ، فقد أنشأت لوبك وهامبورج اتحاد التجارة الألمانى (ويسمى أحيانا البلطيقى) فى القرن الثالث عشر ، وسرعان ما انضم اليه بريمن وكولن ودورتموند ، ودانزج البعيدة ، ووصل الذروة فى أهميته السياسية والاقتصـادية قرب نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ؛ وكان يمتلك عدة مراكز تجارية ومصانع عديدة فى المدن الهامة فى أوربا ، وخاصة فى بروجز [فى شمال غرب بلجيكا] ، لندن ، وبرجن [فى جنوب غرب النرويج] ، وفوفجورد [كانت عاصمة سابقة لروسيا] ٠ وقد تخصص اتحاد الفلمنكيين فى لندن تحت رياسة بروجز فى تسويق البضـائع الانجليزية وتوزيعها ؛ وكانت المدن المشتركة فيه أساسا هى بروجز ، والتورب [مقاطعة فى شمال بلجيكا] ، وكاليه ، ودوردرخت [فى جنوب هولنده] ــ ومن الأمثلة الأخرى اتحاد صرابيا واتحاد الراين اللذين كان نشاطهما اقتصاديا أكبر منه سياسيا بعكس الاتحاد البلطيقى ٠

(*) اسم نقابة التجار فى العصور الوسطى ٠

ولكن كل هذه الإتحادات التجارية كانت تعتمد بضائعها الشرقية أساسا على البندقية وجنوه • وبينما خصصت البندقية أسطولها التجارى للتعامل مع المركز التجارى فى سوريا ومصر فى الشرق ، احتكرت جنوا المعاملات مع شمال افريقيا والبحر الأسود. حيث كانت حكومة جنوا [الكوميون] تمتلك مستعمرات هامة فى كافا Caffa فى القرم ، وتانا على شاطىء بحر آزوف [المتصل بالبحر الأسود] •

واحتلت قبرص كذلك مركزا بالغ الأهمية فى ظل الملوك اللاتين من أسرة اللوزجنيين فأصبحت فاماجوستا تضارع أغنى مدن حوض البحر الأبيض المتوسط وأكثرها رخاء • ويمدنا ليونتوس مكاريوس مؤرخ قبرص فى القرن الرابع عشر ، بأمثلة على عظمة الثروة التى جمعها التجار فى تلك الجزيرة من التجارة الدولية • ويدل الرسم البيانى لثروة أخوين نسطوريين هما : سير فرانسس ، وسير نيكولاس ، فى عهد بيتر الأول اللوزجنى (١٣٥٩ ـ ١٣٦٩) على عظمة ثرائهما « والثروة التى كانت لديهما تفوق قدرتى على الوصف لان سفن التجار المسيحيين التى جاءت من الغرب لم تكن لتجرؤ على القيام بمعاملاتها التجارية الا فى قبرص » كما كانت كل التجارة من سوريا تتم فى قبرص • وازدحمت الموانىء القبرصية بالسفن من البندقية ، وجنوه ، وفلورنس ، وبيزا ، وكاتالونيا وكل البلاد الغربية ، حيث كانت تحمل بالتوابل وكل السلع للأسواق الأوربية • وقد شيد سير فرانسس كنيسة نسطورية فى فاماجوستا من ماله الخاص. ؟ ففى يوم واحد ومن صفقة واحدة استطاع أن يكسب ٣٠٫٠٠٠قطعة ذهبية أرسل منها ١٠٫٠٠٠قطعة هدية للملك بيتر الأول• واستطاع تاجر آخر من الجزيرة هو ستيفند اللوزجنى فى رحلة واحدة مع ثلاث سفن من سوريا الى قبرص أن يحقق ربحا هائلا يستطيع بثلث هذا الربح أن يبنى مثل كنيستى القديس بيتر والقديس بول فى فاماجوستا • وكان ثراء قبرص سببا فى أن تصبح فى النهاية فريسة لا للمسلمين فحسب ، أولئك الذين اعتقلوا الملك جيمس الثانى فى موقعة

كيروكيتيا عام ١٤٢٦ ، بل كذلك للمسيحيين الذين حسدوا قبرص على ثراء أسواقها · وفى البداية احتل أهل جنوا فاماجوستا عام ١٣٨٣ ثم تبعهم أهل البندقية الذين ضموا الجزيرة كلها اليهم عام ١٤٨٩ ·

وظلت الامبراطورية اليونانية فى القسطنطينية وتربيزند [تسمى اليوم طرابيزون] ، والمدن الأرمنية فى آسيا الصغرى ثغورا بحربهامة تأوى اليها سفن العالم المسيحى الغربى الى أن فقدت استقلالها · وساعدت نقائض الحربالصليبية الرابعة التىانتهت بانهيار الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ على الاسراع فى تبادل التجارة الأوربية مع المدن الرئيسية اللاتينية الجديدة فى بحر أيجه ، واقترح محبو الدعاية مثل مارينو سانودو الأكبر فرض حصـــار بحرى على الشـــواطىء المصرية والسورية لخنق تجارة المماليك مع الغرب ولتحويل مجراها الى المراكز الأوربية السابقة · لكن المشروع فشل فشلا ذريعا لأن البابا الذى بارك المشروع وهدد من يعارضه بالطرد من الكنيسة عاد وأصدر عفوا برفع الحظر على تجارة البندقية مع مصر ·

ولا ترجع سرعة انهيار التجـارة فى البحر الأبيض المتوسـط الى مشروعات الدعايه أو قرارات البابا ولكنها ترجع الى أسباب أعمقوظروف تاريخية مرت بالعالم · والغريب فى الأمر أنه برغم اختفاء مملكة بيت المقدس اللاتينية من الأراضى المقدسة فى ١٢٩١ ـ ١٢٩٢ ، والغـارات المسيحية المتعاقبة على البلاد الاسلاميه مثل الهجوم على الاسكندرية عام ١٣٦٥ والغارة على المهدية عام ١٣٩٠ ، فان التجارة الأوربية مع الشرق استقرت وانتعشت طوال القرن الرابع عشر وفتـرة مديدة من القرن الخامس عشر · ولم يحدث التغيير فى مجرى تجارة البحر الأبيضالمتوسط وانحرافه عن مصر وسوريا الا فى تاريخ متأخر ·

الطرق والنقـل

كثيرا ما كانت حضارة الرومان تقاس بعظمة طرقهم التى رصفت بالحجر ، وربطت بين جميع أجزاء الامبراطورية الهامة والاستراتيجية ، وكانت الطرق دائما موضع دعاية وعناية حتى تظل فى حالة جيـدة • وكان هناك الجسور عبر الأنهار لضمان الاتصال السريع المستمرعسكريا أو مدنيا • فاذا قسنا طرق العصور الوسطى على هذا المستوى القديم فان العالم فى العصور الوسطى وخاصة أوربا كان يعانى نقصا خطيرا • فعندما قامت ممالك الهمج الجديدة انهارت الطرق الرومانية ووصلت الى حـالة يرثى لها من التدهور • فقد انحدرت الطرق فى العصور الوسطى الى أن أصبحت مجرد ممشى للخيول مغطاة اما بالتراب أو بالطين وملأى بالعوائق، تحف بها الأخطار من الحيوانات المفترسة أو من قطاع الطرق ، وقد كان التاجر فى العصور الوسطى يسمى « ذا القدم المترب » ، لأنه كان يقوم برحلاته عادة فى فصل الصيف وما فيه من أتربة ليتجنب قسوة الشتاء• وحتى طرق القوافل التى كانت عبر آسيا وافريقيا كانت أفضـل من الطرق الأوربية • ففى الشرق ، كان الجمل سفينة الصحراء ، وكانت الخيل تستخدم فى السفر وفى نقل البريد • أما فى الغرب فكاناستخدام البغال والخيل والعربة ذات العجلتين هو طريق نقل التجارة • وكان استعمال المركبات ذات الأربع عجلات مقصورا على المدن فى المقاطعـات الزراعية الواسعة لقطع مسافات قصيرة فى شوارع ممهدة • وفوق ذلك فان تكاليف استعمال المركبة كان يعـادل الربح الذى ينتج من ثلاثة فدادين زراعية الى خمسة ، وكان البغل يحمل من ٣٠٠ الى ٤٠٠ رطل ويقطع مسافة من ١٥ الى ٢٥ ميلا فى اليوم • وكانت تكاليف وسـائل المواصلات هذه تبلغ الضعف أو أكثر باضافة الضرائب المحلية • ومثال

ذلك ضريبة الملح التى فرضها اقطاعيو الأرض عند كل نقطة من الطرق من ولاية الى أخرى • وكانت الطرق الرئيسية فى أوربا فى العصور الوسطى محصورة بين المدن التجارية الكبرى والأماكن الشهيرة بأسواقها ومعارضها مثل سانت دنيس بالقرب من باريس ، بروجز ، يبرز ، ليل فى بلاد الفلاندر ، لاجنى وبارسير أوب فى شانيانى [احدى مقاطعات شمال شرق فرنسا] ، سانت أبول فى بروفنس ، ومتيلاتها •

والحركة الدولية للتجارة فى العصور الوسطى ، تلك التى كانت مستحيلة حتى نهاية القرن العاشر ، بدأت متواضعة فى القرن الحادى عشر وانتشرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر نتيجة للتسهيلات التى قدمتها الخانات والاصطبلات على طول الطريق • وأهم من ذلك بناء الكبارى عبر المسايل المائية • وفى أواخر العصور الوسطى ظهرت مجموعة الرهبان فى نظام جديد اسمه «اخوان الكبارى» Order of Bridge Brothers وكان عهدهم يتضمن الحفاظ على هذه الوسائل الحيوية للمواصلات وصيانتها فى حالة جيدة من أجل الاستخدام العام • ومن الكبارى التى اشتهرت فى العصور الوسطى ما كان فى لندن على نهر التيمس ، وفى باريس وروان على نهر السين ، وفى أفينيون على نهر الرون ، وفى ماسترخت، ولييج، وهى (Huy) ونامور، ودينانت على نهر موز Meuse . وعبر جبال الألب كان هناك ممرات مونت سينى ، ممر برنر [بين ايطاليا والنمسا] ، ستمر ، سان برنارد • واستمر استعمالها حتى افتتاح سانت جوثارد بجسره المعلق الذى ربط بين سهول لومباردى والطرق الجبلية فى الشمال والتى حددت بوديان فى منابع الدانوب والرين فى القرن الثالث عشر • وكان التاجر الثرى يسافر فى حراسة المرتزقة ، على حين كان صغار التجار يسافرون فى صحبة جماعة يماثلونهم حتى يستطيعوا جميعا الدفاع عن أنفسهم • وكانت الطرق النهرية عادة مفضلة فى حالة نقل البضائع الثقيلة الوزن ، برغم أن السفن لم تكن لتعفى من ضريبة الطريق المتكررة • فقد كان هناك ٦٤٠ محطة ضرائب على طول

نهر الراين ، ٧٤ على نهر اللوار ، ٣٥ على نهر الب [يمر فى بوهيميا وألمانيا] و٧٧ على نهر الدانوب ٠

وكانت محطات الأنهار أقل عددا وتكلفة من مئات المحطات البرية التى كانت تجنى منها ضرائب المرور ولكنها على خفض ضرائبها كانت كافية للتأثير فى رفع الأسعار ٠ فقد كان نقل النبيذ بالسفينة من بيزا الى فلورنس وهى نحو ٥٠ ميلا يعادل خمسين فى المائة من سعره الأصلى، أما الملح فقد وصلت تكاليف نقله الى ٦٠ ٪ من سعره الأصلى ٠

وكانت تجارة الشرق تنقل بواسطة القوافل عبر الطرق التقليدية فى وسط آسيا الى المدن الرئيسية على حدود أوربا والشرق الأدنى ٠ وكانت سمرقند ، وتبريز ، وبغداد من بين هذه المحطات ٠ أما نوفجرد ، كييف، كافا ، فقد كانت من الأسواق الشهيرة ، على حين كانت حلب ودمشق وعكا من المراكز الهامة للتجارة السورية ، وكانت دمياط ورشيد والاسكندرية خاصة من المدن التى يرتادها التجار الغربيون فى حرية لا تحدها قيود ٠

أما التجارة الهندية فقد كان من المعتاد أن تنقل بالسفن الى الخليج العربى وعلى طول دجلة الى بغداد أو الموصل ، ومن هناك كانت القوافل تحملها الى أسواق حلب ودمشق والمدن الأخرى على الساحل السورى ٠ وكان ساحل البحر الأحمر طريقا ممتدا حتى ايدهاب والقصير ، بل الى أبعد منذلك عند شمال القلزوم وهى المعروفة قديما باسم عيذاب Clysma عند رأس خليج السويس ، حيث تنتهى قناة السويس الحالية ٠ ومن ايدهاب والقصير كانت قوافل الجمال والبغال تحمل البضائع عبر الصحراء العربية [الصحراء الشرقية] الى مدينة قوص على النيل فى مصر العليا ، ومن هناك كانت تنقل أسفل النهر الىالقاهرة والاسكندرية٠ ومن القلزوم كانت البضائع تنقل برا الى القاهرة ومن هناك على طول

النهر الى الاسكندرية ورشيد ودمياط • وكانت طرق النقل الداخلية مقصورة على المواطنين • ولم يكن يسمح للتجار الأجانب بالتوغل داخل حدود المراكز النهائية لمدن الأسواق التى كانت غالبا تقع على الشاطىء•

وكانت السفن عادة تبحر فىمجموعات تصحبها سفن حربيةلحراستها والدفاع عنها فى وقت كانت القرصنة فيه تمارس تحت تستر الدول والجماعات المتنافسة • وقد تعلم البحارة فى العصور الوسطى عن طريق التجربة أن أنسب الفصول للرحلات شرقا فى البحر المتوسط هو ابريل ويونيو ، أما الرحلة غربا فكان أفضل وقت لها شهر أغسطس أو سبتمبر وأكتوبر ، وقلما كانت تتم رحلات فى الشتاء • وتقدمتصناعة السفن فى العصور الوسطى الى حد كبير • فقد كان هناك سفن سعتها من ٥٠٠ الى ٨٠٠ طن ، وكانت تحمل طاقما من ٨٠٠ بحار وراكب الى ١٠٠٠ بخلاف البضائع • والى جانب السفن الشراعية ، كان هناك سفن تسير بالمجاديف التى يقوم عليها عبيد مغللون بالسلاسل فى أسفل السفينة • وبرغم أن البوصله البحرية كانت معروفة فى أوربا من بداية القرن الثالث عشر فانها لم تستعمل فى الملاحة الا فى القرن الخامسعشر عندما ضرب البحارة العرب المثل باستعمالها •

ولم يكن تقدم الملاحة والملاحين فى أواخر العصور الوسطى ليمنع اخطار العواصف ولا مخاوف القرصنة • ومع أن النقل بحرا كانأرخص من النقل البرى فان تكاليفه ظلت باهظة • فيقال ان الحبوب التى كانت تنقل من أرمينيا الى ايطاليا عن طريق البحر كانت تكلف أكثر من١٦٠٪ من قيمتها الصافية • وكان من المستحسن أن يخصص النقل البحرى للبضائع ذات القيمة العالية والوزن المعقول •

الموالد والأسواق

وجدت التجارة الدولية فى العصور الوسطى مخرجا لها فى المدن التجارية الكبرى وخاصة فى الأسواق (الموالد) التى انتشرت فى العصور الوسطى . وكان أشهر هذه الموالد (الأسواق) فى شانيانى وهى مقاطعة لها مركز جغرافى ممتاز لتبادل التجارة بين عدد كبير من دول أوربا . وكان موقعها بين فرنسا والفلاندرز من جهة ، وسهولة الوصول اليها من لومباردى عن طريق ممرات سان برنارد ، ومونت سينى من جهة أخرى يجعلها الملتقى الطبيعى للتجار من كل هذه البلاد ، بل ان موقعها المركزى داخل فرنسا سهل الوصول اليها من كل مقاطعات فرنسا الشمالية والجنوبية . وكانت حدودها الغربية ملامسة لباريس . ولذلك كانت شانيانى نموذجا مثاليا للدور الذى قدر لها أن تلعبه فى مزج التجارة عند مفترق الطرق فى غرب أوربا .

وكان نبلاؤها على علم تام بامكانيات المنطقة ، وشجعوا كل الأنشطة التجارية فيها تحت ادارتهم ، ولذلك فتحوا أسواقهم دوريا على طول السنة . اذ كانت موالد وأسواق لاجنى ، بار ، بروفنس ، تروا ، تعقد مرة كل ستة أسابيع أو سبعة فى أيام أعياد الميلاد وأعياد الفصح وفى مايو ويونيو على التوالى .

وكانت الموالد تعقد خاصة لتجارة الجملة . وكانت المخازن والقاعات الكبيرة تخصص للتجار وعملاء النبلاء الذين كانوا يقيدون بالتفصيل دخل التجار ليضمنوا الضرائب دون ظلم أو اجحاف ، وكانت السوق تفتح أبوابها وتغلقها خلال ساعات محددة تعلن بدق الأجراس فى مواقيتها . وكان ممثلو النبيل وحراسه يحفظون الأمن وينفذون التعليمات . وكان هناك محكمة خاصة للنظر فى النزاع الذى قد ينشأ ولمعاقبة من يخرق القوانين . وكان هناك عدد محدد من الأيام يخصص للعرض والبيع ، وكانت العمليات التمهيدية تتم بموجب صكوك يتم تبادلها عند نهاية الموسم فى بنك حسابات السوق ، وهى سوق أوراق مالية حقيقية .

وفى هذه الأسواق كان المشترون من جميع أنحاء العالم يجدون الصوف من مناسج ايطاليا والفلمنكيين ، والكتان والنبيذ الفاخر من فرنسا ، والبضائع الجلدية من المانيا ، والحديد من صقلية واسبانيا ، والتوابل والحرائر والسجاد من الشرق ، والذهب والفضة من افريقيا ، وحجر الشبة من آسيا الصغرى .

وخارج شانيانى بالقرب من باريس كانت هناك سوق لنديت فى سان دنيس افتتحها موكب من طلبة الحى اللاتينى فى جامعة باريس لشراء بعض أدواتهم الدراسية السنوية . وفى منطقه أخرى من فرنسا كانت هناك سوق بوكير بجوار مرسيليا ، وسوق أخرى فى آكس فى بروفنس وقد خدم السوق أغراضا أخرى ، غير أن شانيانى احتفظت بقيادتها للأسواق حتى القرن الرابع عشر . وقد بدأت أسواق شانيانى من القرن الثانى عشر ولكنها بلغت قمة عظمتها فى القرن الثالث عشر ، وأخذت فى التدهور على طول القرن الرابع عشر عندما استطاع أهالى البندقيةوجنوا أن يمروا من مضايق جبل طارق ويبحروا مباشرة الى الفلاندرز وانجلترا عندئذ بدأت الأسواق الفلمنكية فى بروجز ، وايبرى ، وليل ، وثوروت، ومسينا فى النمو المطرد وتحل محل شانيانى كأسواق دولية .

وكان لانجلترا أسواقها المتواضعة فى ونشستر ، وستانفورد ، وسانت جيلز ، وسانت ايفز ، وستوربردج ، وبارثليمو . وكان لبلاد الاتحاد الهندى نشاط كبير من مراكز انجلترا ، وأصبحت نوفجرد فى روسيا ، وكييف فى أوكرانيا مراكز حية متمركزة لتجارة الفراء القادم من الشمال ، وكذلك السلع الأخرى التى تحملها القوافل برا من الشرق الأقصى .

وكانت السوق (المولد) مظهرا من أكثر المظاهر جاذبية للحياة فى العصور الوسطى . كان يؤمها الناس من كل طبقات المجتمع للتسلية مثلما كانوا يرتادونها للعمل . كان الشعراء «بالربابة» والمغنون الجوالة يظهرون فى مثل هذه المناسبة . كانت هناك الألعاب المنزلية والخارجية ، وكانت التمثيليات الدينية والتمثيليات التى تبرز المعجزات تمثل فى

الأسواق • ولجذب الجماهير كانوا يحضرون الذببة والحيوانات الأخرى • وكان المظهر الغالب والطابع المميز لهذه الأسواق هو المرح •

وكان لأسواق الغرب منيلاتها فى الشرق ، فلكل قرية أو مجموعة من القرى فى كل حى سوقها الخاصة فى يوم معين من أيام الأسبوع وذلك من بداية التاريخ • ومازال العمل جاريا بهذا النظام ، وعادة ما تكون للسوق مناسبة دينية ترتبط بالشخصيات المسيحية المقدسة أو الأولياء المسلمين • وجدير بالذكر أن هناك ارتباطا بين الحج السنوى والأسواق القبلية التى كان يحتفل بها العرب فى العصر الجاهلى • فسوق عكاظ فى مكة كان حول حجر الكعبة الأسود وكان أشهر مكان اجتماع لكل القبائل العربية قبل زمن النبوة • وهناك كانت تتم المقايضة على البضائع فى حين كان الشعراء والخطباء يلقون حصادهم السنوى من الأدب والحكمة • وبعد نشأة الاسلام وحتى العصر الحديث استمر الحال على هذا المنوال ، ومن المحتمل أن يكون التغير الوحيد فى طبيعة الحج الى مكة هو ما يمكن تلمسه فى التطور الذى حدث فى طبيعة المعاملات اذ أصبحت دولية • فهناك حجاج من الهند وما وراءها يلتقون مع آخرين من مراكش وغيرها من الدول الاسلامية فيما بين البلدين ليشتركوا فى ممارسة شعائر الحج ولتبادل بضائعهم المحلية •

ولم تظهر نشأة المدن كمراكز للأعمال الاقتصادية الا فى أواخر العصور الوسطى برغم أنها كانت قائمة من زمن بعيد • وترتبط هذه الظاهرة بالتقدم المستمر لكل من الصناعة والتجارة • ويمكننا أن نقدر ذلك اذ نعلم أن تصنيع فلاندرز كانت نتيجته أن تصف سكانها على الأقل أصبحوا يعملون فى صناعة النسيج فى غضون القرن الرابع عشر • ونشطت الصناعة فى المدينة كلا من التجارة المحلية والدولية وادى ذلك الى نشأة طبقة جديدة من البورجوازيين • ويعزى الثراء المتزايد للمجتمعات والمدن فى جنوب أوربا الى حد ما الى هذا التطور الصناعى ، وكذلك الى التحسن الضخم فى التجارة الشرقية • ولا يقع فى نطاق هذا البحث الدخول فى تفاصيل تكوين المدن الأوربية وتنظيمها التى جمعت ثروات

خيالية عن طريق التجارة . غير أنه من الضرورى للتنويه أن نشير الى بعض الأمثلة لمدن عرفت بثرائها فى الشرق والغرب مثل البندقية والاسكندرية .

قد سجل الباحث مارينو سانودو « تورسيللو » المؤرخ الصغير فى عام ١٤٢٠ فى كتابه « حياة قضاة البندقية » خطابا مهما ألقاه توماس موكنيجودا كامبو فريجوسو (١٤١٣ ــ ١٤٢٠) على مجلس شيوخ البندقية ضمنه تقريرا عن تجارة جمهورية سان مارك فى السنة السابقة . قدرت البضائع المصدرة من مخازن البندقية بمبلغ ١٠ ملايين من الدوكات ، وكان الربح الصافى الناتج عن تبادل السلع أربعة ملايين من الدوكات ، ووصل عدد السفن الحربية والتجارية التى كان يملكها البنادقة حوالى ٣٠٠٠ من أحجام مختلفة مجهزة ببحارة منتظمين يقدر عددهم بحوالى ١٧٫٠٠٠ . وكان هناك ٣٠٠ سفينة تحمل ٨٠٠٠ رجل ، و٤٥ سفينة أخرى يسيرها ١١٫٠٠٠ . وهذا يبين أن المتوسط كان ٢٤٤ بحار للسفينة وهو عدد معقول حتى للسفن الحديثة . وكان هناك ١٦٫٠٠٠ رجل يعملون فى أحواض السفن بانتظام . وأنجزت دار سك النقود فى البندقية الى جانب العملة المستعملة مليونا من الدوكات الذهبية ، و ٢٠٠٫٠٠٠ قطعة فضية و ٨٠٠٫٠٠٠ سليوس وقد أرسل منها الى مصر نصف مليون قطعة .

وجمع أهالى جنوا كذلك ثروات ضخمة نافست ثروات أهالى البندقية . وتعطينا مؤرخة من جنوا فى القرن الرابع عشر أمثلة على ثراء جنوا فيما وراء البحار . فقد كان حجم سفينتين من جنوا فى مياه البحر الأسود فى ١٣٣٠ ، ١٣٤٤ يكشف عن مظاهر مذهلة لمدى ثراء تجار جنوا فيما وراء البحار . فقد كان هناك سفينة تحمل بضائع قيمتها ٤٦٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى ، وأخرى تحمل ما قيمته ٤٧٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى . وفى ظل الظروف العادية استطاع بعض التجار أن يضاعفوا ثرواتهم أو أكثر فى سنة واحدة . وكان ممثلون من مصر يقيمون فى البندقية وفى بعض المراكز التجارية الأخرى ، ليصدروا خطابات توصية نظير أجر معين وهو ما يعادل جواز السفر الحديث فى النظام القنصلى .

وكانت أسواق القسطنطينية ، وطرابيزون ، والاسكندرية ، ودمشق امكنة يسعى اليها التجار الغربيون وراء البضائع الشرقية . فكان سوق

سانت ديمتريوس فى سالونيك يعكس صورة لكل النشـاط التجارى فى الشرق الأدنى • يباع فيها الأقمشة الحريرية من بيوشيا ، وكورينثوس، الجلود والملح من كارباثيان والدمقس السورى ، والتيل المصرى • الا أن فى الاسكندرية كان العالم التجارى ممثلا خير تمثيل • وقد سـجل ابن بطوطة الرحالة العربى الذى زار المدينة فى ١٣٢٦ انه لم ير مثيلا لذلك فى حوض البحر المتوسـط ، وكتب جيوم ماشو Guillaume Machaut فى ١٣٦٧ يسميها عروس البحر الأبيض المتوسـط •

كان ميناءاها مزدحمين باستمرار بالسفن التجارية تحمل وتفرغ حمولتها ، وقد عرفت الميناء الشرقية فى العصور الوسطى أيضا باسم ميناء السلسلة ، بسبب السلسلة الضخمة التى كانت تحيط بمدخلها أثناء الليل وكانت مخصصة للسفن المسيحية • اما الميناء الغربية التى كانت تسمى قديما ايونوستس منذ أيام البطالسة فقد خصصت لسفن المسلمين القادمة من اسبانيا والمغرب • وكانت الجدران المزدوجة وحصون المدينة من أروع الأبنية ، وكانت أبوابها وبواباتها تغلق على أروع المبانى التى عرفت فى مدن العصور الوسطى • وقد شيد فنادقها وقام بادارتها اناس من البندقيـة ، وجنـوا ، وبيـزا ، وفلورنس ، ونابولى ، ومرسـيليا ، وكاتالونيا ، الدواية ، وفرسان القديس يوحنا ، وفرنسيون من الشمال والجنوب ، ومواطنون من مونبلييه ، وكذلك بعض الأفارقة وتجار الشرقين الأدنى والأوسط ، وكان كل من هذه المبانى تحت رعاية قنصل مسئول • وكانت الدول كلها تقريبا من الشرق والغرب ممثلة فى الاسكندرية تحمل اليها البضائع لبيعها فى هذه السوق المركزيه • وكانت الغنائم التى حملها من الاسكندرية صليبيو بيتر الأول اللوزجنى عام ١٣٦٥ تظهر ضخامة الثروة فى مدينة الاسكندرية •

الســــــلع

ما هي السلع التي كانت تتبادل في أسواق الاسكندرية وغيرها من المدن التجارية ؟ هذه السلع يمكن تصنيفها تحت ثلاثة أصناف أولها الرقيق ، وثانيها : المنتجات الطبيعية وثالثها البضائع المصنعة • ومن بين السلع الثلاث كانت تجارة الرقيق أكثرها ربحا ورواجا للغربيين وأكثر ما كانوا يبحثون عنه في الشرق • ونظرة واحدة سريعة الى نشأة دولة المماليك وتكوينها ونظامها (١٢٥٠ ــ ١٥٧٠) توضح لنا الأهمية غير العادية للتجارة في بني الانسان •

وترجع دولة المماليك الى مملوك كان حارسا لأسرة الأيوبيين (١١٧١ ــ ١٢٥٠) وقد انتهى الأمر الى أن استولى المماليك على السلطنة وحكموا مصر وسوريا كحامية أجنبية وكان عددهم يزداد باستمرار بشراء رقيق جدد من الأسواق • كان لكل أمير من المماليك حاشيته الخاصة حسبما تسمح ماليته • فحراس السلطان قلاوون وصلوا الى ٦٧٠٠ مملوك ، وزاد ابنه الأول خليل من تراثه (١٢٩٠ ــ ١٢٩٣) الى ١٠٫٠٠٠ ، وابنه الثاني الناصر محمد (١٢٩٣ ــ ١٢٩٤ ، ١٢٩٨ ــ ١٣٠٨ ، ١٣٩٠ ــ ١٣٤٠ ، الى ٢٤٫٠٠٠ ، وطوعا لبعض الظروف كان عدد مماليك السلطان يتناقص الى ٤٫٠٠٠ كما حدث في عهد برقوق (١٣٩٠ ــ ١٣٩٨) وهذه المماليك كانت عادة تقسم فرقا تمثل أمما متعددة مثل الأتراك ، والتركمان ، والمنغوليين ، والشراكسة الأكراد ، والأرمن ، واليونانيين ، والسلاف ، والسلوفنيين ، والألبانيين ، والمصريين •

وكان يطيح الموت بنسبة عالية من المماليك لا لأنهم كانوا يتساقطون في ميدان القتال فحسب ، ولكن لكثرة المذابح الجماعية التي كانت تتم اذا حدث الشك في ولائهم • ومع أن المماليك كانوا يدينون بالاسلام، دين الدولة الرسمي ، فانهم لم يكونوا ليتورعوا عن عمل أي شيء ، وكل ما كانوا يظهرون من الاسلام ، كان مجرد الشعائر الدينيــة البسيطة ، ولأن المماليك طائفة معينة من بيئة حربية فقد أرادوا أن يبقوا أو يعيشوا

وكان لزاما عليهم أن يخصصوا كميات كبيرة لشراء قوى جديدة تصل الى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ عبد سنويا • وبعض هؤلاء كانوا يصلون الى مراكز عليا • فالسلطان كتبغا (١٢٩٤ ـ ١٢٩٦) كان أسير حرب من منغوليا • ويقال ان لاجين (١٢٩٦ ـ ١٢٩٨) كان فارسا فى النظام التيوتونى وكان يحارب الوثنيين فى ليفونيا حول أراضى البلطيق ، وبعدها أصبح صليبيا فى سوريا ، وهناك اعتنق الاسلام وانضم للمماليك •

وقد شاركت معظم المدن التجارية الأوربية بنشاط فى تجارة الرقيق، وكانت جنوا فى مقدمتها • فقد كانت المستعمرتان كافا وتانا ، فى جنوب روسيا خاضعتين لجنوا ، وكانتا أعظم الأسواق لتجارة الأطفال المغول من ذكور واناث • وأحيانا كان آباؤهم يقدمونهم للسوق بأنفسهم وهم يحلمون بأن يمنحوهم فرصة مستقبل لامع فى مصر • زد على ذلك ان السلاطين كثيرا ما كانوا يضيفون الى ذخيرتهم من المماليك أسرى من بين الوثنيين والسكان المسيحيين فى دول شرق أوربا وكذلك من أسواق الأناضول •

وكان ثمن العبد المغولى يصل الى ١٣٠ الى ١٤٠ من الدوكات الذهبية ، والقوقازى من ١١٠ الى ١٢٠ ، واليونانى نحو ٩٠ ، والألبانى أو الصربى أو السلوفانى من ٧٠ الى ٨٠ ، وكان التجار من جنوه (*) يمارسون هذا العمل المجزى متحدين بذلك الأوامر البابوية التى تحرمه ؛ وقد أصدر البابا مارتن الخامس (١٣٦٨ ـ ١٤٣١) أمرا عام ١٤٢٥ يدين به كل المشتركين فى هذا العمل الشرير • وعلى الرغم من ذلك فان القوى الدنيوية كانت تعترف بل تشجع هذه التجارة المحرمة • وفى عام ١٤٦٦ منح الامبراطور فردريك الثالث (١٤٦٣ ـ ١٥٢٥) مدينة جنوا سلطة كاملة للاتجار فى الرقيق من الجنسين ، وكانت قيمة العبد تتوقف على عمره وصحته • ومن العجيب أن نعرف ان بعض الوسطاء الذين كانوا يحملون الرقيق من أوربا وآسيا الى مصر كانوا يستوردون الأرقاء المسلمين من شمال افريقيا وآسيا الى أوربا المسيحيه • فقد أشار فيلكس فابر رحالة

(*) أمثال Niccolo di S. Giorgio, Gentile Imperiali, Seguvano Salvago.

القرن الخامس عشر المشهور الى وجود زهاء ٣٠٠٠ من الأرقاء المسلمين في البندقية وكانوا يستخدمون في تقذيف السفن الشراعية فيها ٠

أما المنتجات الطبيعية التي كانت الأسواق الأوربية تطلبها بالحاح فهي أولا : التوابل والفلفل المستورد من الهند وكانت تشتريه البندقية الى جانب البضائع التجارية من أسواق مصر بأسعار باهظة ، وكانت التوابل معروفة منذ القرن السادس كما يبدو واضحا من كتاب جغرافية البلدان لمؤلفه Cosmas Indicopleustes الذي زار الهند في ذلك الوقت ٠

وكان كل الرحالة الذين وصلوا في العصور الوسطى الى مشارف القارة يتحدثون عن التوابل ٠ وكان في مدينه الاسكندرية في ذلك الوقت شارع بأكمله ، أو بالأحرى حي ، مخصص لتجارة الفلفل ٠ ويتحدث جيوم ماشو عن شارع الفلفل في عام ١٣٦٥ الذي يعرف بهذا الإسم نفسه في اللغة العربية ٠ وقد جمع المؤرخ ويلهلم هيد Heyd مؤرخ التجارة في العصور الوسطى قائمة أبجدية للسلع التي كان يتم تبادلها مع التجارة الشرقية ، ويكفي دون الدخول في تفاصيل المواد التي جمعها من مصادر ودراسات ثانوية أن نعدد بعض محتويات القائمة دون تعليق لمجرد أن نعطي القارىء فكرة عن ضخامة هذه التجارة ٠ تضمنت القائمة : الصبر والشبة والعنبر والبلسم وصبغة جاوى ، وخشب الصبر وخشب الصندل والكافور والقرفة والحبهان وخيار الشنبر ، والقرنفل والمرجان والقطن واللبان الذكر والخلنجان والزنجبيل والصمغ والنيلة والعاج وصبغة الأفيون والمن والمصطكى والقطران والمسك والقراصيا واللؤلؤ والأحجار الثمينة والفلفل الأسود والفلفل الطويل والرواند وخيوط الحرير والتوتيا وغيرها ٠

وبعض هذه المنتجات كانت لازمة لا يمكن الاستغناء عنها في صناعات معينة ، فالشبة مثلا كانت تستعمل في تثبيت الألوان والصباغة في النسيج ، وكانت تستورد من جزر بليار وشمال افريقيا وبعض جزر الأرخبيل ، وآسيا الصغرى٠وبعض المنتجات كانت تستخدم في التركيبات الطبية ، وكانت اللآلىء والأحجار الثمينة التي تستورد من الخليج العربي والهند سلعا جذابة عند نبلاء الاقطاعيين والأثرياء ٠ ورغم أن تراب

الذهب والفضة لم يأت ذكره فى قائمة « هيد » فانه ينبغى أن يكون له مكانة خاصة مع خامات المعادن الأخرى مثل الحديد والنحاس والرصاص. وكان الرصاص يستخدم فى تسقيف الكنائس والكاتدرائيات وكذلك فى صنع اطارات النوافذ الزجاجية . وقد كانت مناجم الذهب فى النوبة والسودان تمد الأسواق بأكبر كمية تستخدم فى مصر والأسواق الأوربية.

أما السلع المصنعة فقد شملت الخيوط المذهبة والمفضضة من قبرص والخزف من الصين ، والسكر من الهند والشرق الأقصى ، والمنسوجات المزركشة من مناسج مصر ودمشق وبغداد وايران والشرق الأقصى ، ومن ايران جاءت السجاجيد وكذلك المصنوعات الزجاجية من قمائن سوريا ومصر وشمال افريقيا . وقد ظهر اهتمام الدارسين والمتاحف وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية ، بصناعه النسيج فى العصور الوسطى والحديثة وبرزت هذه الدراسات بطريقة غير عادية . فالى جانب متحف النسيج فى واشنطن وهو مخصص كلية لهذا الفرع من الدراسة فان المتاحف الكبيرة مثل متروبوليتان ،و بروكلين ، وبوسطن ، وكليفلاند ، وميتشجان ، حصلت على كميات ضخمة من تحف النسيج تشمل الكثير من العينات المتعددة الألوان المزخرفة أو المطرزة فى أطرافها . وقد فتحت هذه المجموعات مجالات جديدة فى ميدان متخم بالامكانيات الضخمة . وأحسن منتجات الزجاج فى العصور الوسطى نجدها فى متحف توليدو ، ومتروبوليتان ، وبروكلين ، ومصنع زجاج ستوين فى كورننج ، وهناك مراكز أخرى فى أمريكا والخارج . وأظهرت بعض الحفريات مصنوعات زجاجية ، وخرز ما زال فى انتظار فحص عالم الآثار ومؤرخ الحضارة . ولعبت البندقية بطبيعة الحال دورا هاما فى تطور صناعة الزجاج . وانتجت جنوا المخمل ، وفرنسا الكتان، والفلاندر ولومباردى الأصواف. وكانت السفن تبحر تجاه الشرق محملة بالمصنوعات الأوربية ، الأسلحة والرقيق وتعود الى قواعدها محملة بالثمين من البضائع من الشرق .

النقود ، والتسليف ، والمصارف

يمكن اعتبار انتشار استخدام النقود فى أوربا دليلا على مدى تقدم الحضارة الغربية ، ففى خلال العصور الوسطى الأولى كانت أوربا مقسمة بوضوح الى شرق وغرب ، بيزنطيين ، وبرابرة·فبينما كانت الامبراطورية البيزنطية مازالت تحتفظ بمعظم سمات العظمة الرومانية وكان اقتصادها مميزا بثراء تجارى ، تهاوى غرب أوربا وانحدر الى مكانة البلاد المتخلفة التى تعتمد على نظام اقتصادى زراعى اقليمى ، حيث كانت التجارة قد وقفت عن المسير · وكان قبول العالم للعملة الذهبية الـ « نومسما » التى أصدرها امبراطور القسطنطينية يبين بوضوح تفوقها أمام نظام المقايضة البدائى الذى كان متبعـا فى غرب أوربا · وأصبحت هـذه العملة فى العصور الوسطى كالدولار فى الوقت الحاضر ، وذلك بينما كانت أوربا الميروفنجية لا تملك سوى بضع عملات ذهبيـة لقطع النقود الصـغيرة المتداولة · وكان العالم الكارولنجى يعتمد أساسا على البنسات الفضية التى حاول شرلمان أن يفرضها بقوة القانون على رعاياه المتذمرين · وهكذا صارت النومسما الوارثة الحقة لـ « سيلدس » الرومانى وظلت معروفة وخلد اسمها حتى بعد أن انتهى زمن استعمالها ، فأصبحت فى العلم الحديث أساسا لدراسة العملات وجمعها · وهذه العملة البيزنطية التى سميت أيضـا هيبربرون Hyperpron وفى زمن متـأخر سميت بيزانت (besant) كانت تتمتع باستقرار فى قيمتها الذهبية وكذلك وزنها مما أعطاها ثباتا ، وكانت تساوى ١/٧٢ من الجنيـة الرومانى وزنا (حوالى ٣٢٧٫٤٥ جرام) وهكذا تصل الى ٤٫٥٠ جـرام من الذهب · وتشـير الدراسات الى أن وزنها الحقيقى كان يختلف بين ٣٫٨٨ ، ٤٫٤٤ جرام · ومن جهة أخرى ، أصبحت العملات (قطع النقود) نادرة فى العالم الغربى حتى أن أداء الديون كان يقرر اما نقدا أو عينا · ففى عـام ٩٣٣ فى اسبانيا أدى دين بمبلغ ٦٠٠ سيلدس (العملة الرومانية) ، بأوان للزهر

وأقمشة فاخرة ولوازم الخيل المزركشة وبعض قطع النقود · وفى فرنسا فى ١١٠٧ أدى دين بمبلغ ٢٠ سيلدس بحصان ·

وبينما كان الغرب على هذه الدرجة من التخلف ظهر منافس للحضارة البيزنطية العريضة فى الامبراطورية العربية الجديدة · فحتى فى بداية القرن الأول الاسلامى كان الخلفاء يقبلون سيادة النومسما ، ولكنهم سرعان ما ثاروا عليها وأعلنوا استقلالهم الاقتصادى وأصدروا عملتهم الذهبية الدينار والدرهم الفضى · وبدأ الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) استعمال النقود العربية الجديدة فى أواخر القرن السابع · وفى هذا المجال قدمت أسباب دينية لتبرير ترك العملة البيزنطية وهذا التبرير هو رفض المسلمين للصور البشرية المنحوتة على العملة ، غير أن الهدف الأساسى كان الاستقلال الاقتصادى · وبرغم أن الدينار لم يطرد النومسما من الاستعمال الدولى فانه حظى بشعبيه واسعة لا فى الامبراطورية الاسلامية والبحر المتوسط فحسب ولكن فى مناطق وبلاد بعيدة · ويثبت ذلك ما أظهرته الحفريات من عملات عربية فى مناطق شواطىء بحر البلطيق وما وراءها ·

ولم يبدأ سكان الغرب فى معرفة أهمية النقود فى تسيير المعاملات الدولية حقا الا فى عصر الصليبيين · وكان روجر الثانى (١١٣٠ ـ ١١٥٤) ملك صقلية ودوق أبوليا وكلابريا أول ملك أوربى يسك عملة ذهبية منذ المحاولات المتواضعة التى قام بها الكارولنجيون وكانت هذه العملة هى الدوكات الذهبى المسكوك فى ١١٤٠ وعليه الكتابة الشهيرة :

Sit tibi, Christe, datas, quem tu regis, iste Ducatus

أى : احفظ ـ يا سيدى المسيح ـ هذه الدوقيه التى تحكمها حتى تكون لك ·

وفى عام ١٢٥٢ اتخذت فلورنسا العملة الجديدة تحت اسم "ducati gigliati" وعرفت بعد ذلك باسم فلورين (fiorino d'oro) بسبب علامة زهرة الزنبق الفلورنسية المميزة التى ختمت بها العملة

الجديدة . واتخذت البندقية بعد ذلك العملة عندما أمر الرئيس الثانى من رؤسائها الأربعة والمعروف باسم داندولو فى سنة ١٢٨٣ ، امر بأن تبدأ الدولة فى تداول عملتها الذهبية « الدوكات » واحتفظت جمهوريه سان مارك فى العملة الجديدة بالرسم الأبولينى اللاتينى القديم الذى أصبح بمرور الوقت وفى القرن السادس عشر معروفا باسم «تسكينى» [المفرد· تسكينو] مأخوذا من " zeccha " وهو اسم دار سك النقود فى البندقية.

وكانت قيمة الدوكات تختلف من عصر الى عصر ولكنها كانت أصلا نزن ٣ر٥ جرام من الذهب الخالص بما يعادل ثمن وزن أوقية من الفضة . وفى العصور الحديثة استعمل الدوكات فى بلاد كثيرة من قارة أوربا حتى فجر القرن الحالى . وفى العصور الوسطى كان الفلورين والدوكات وسائل تبادل تجارى دولى يقبلها التجار جميعا . وظلت العملتان ضمانا ماليا حتى بداية انهيار دولة البندقية والدويلات الايطالية الأخرى . ولما تكشفت اهمية النقود فى عملية تسهيل المعاملات واثراء ميزانية الدولة بدأ ملوك أوربا الأقوياء فى تأييد السياسات الاقتصادية للذين ابتدعوا النومسما ، والدينار ، والدوكات على التوالى . وكان أول ملك يلمس هذه الحقيقة هو الامبراطور فردريك الثانى عام ١٢٢٨ فقد سبق البندقية وفلورنسا فى سك عملته « أوجستالس » التى كانت من أكثر العملات الذهبية استقرارا فى العصور الوسطى فى أوربا . فالى جانب أنها كانت قطعة فنية رائعة كما وصفها بيرن بذلك فقد كانت مطلبا شائعا يسعى وراءه الكثيرون بسبب نقاء ذهبها .

ولسوء الحظ كان نتاج دار السك الامبراطورى محدودا ، ولم تصبح الأجستالس عملة فى التجارة الدولية لندرتها . وفى الوقت نفسه اتبع الملوك الآخرون الطريق نفسه الذى اتبعه فردريك . ففى ١٢٦٦ أصدر سانت لويس جنيهه الفرنسى الذى عرف باسم Gros Tournois وكذلك gros parisis ليتم التعامل به فى أوربا شمالى الألب وغرب ألمانيا . وقد نجح فى نشر عملته وجعلها نموذجا فى معظم بلاد شمال أوربا زمنا ما ولكن خلفاءه أخفقوا فى المضى فى الطريق نفسه وانقطع العمل بها.

واستعمال العملة بانتظام يمكن أن نرجع اليه فى تواريخ مختلفة فى البلاد الأخرى • فقد كان الفونسو الحادى عشر ملك قشتاله (١٣١٢ ـ ١٣٥٠) مسئولا عن بدء استعمال النقد الذهبى فى اسبانيا • وكانت بوهيميا المقاطعة الأولى فى امبراطورية شمال الألب التى تحذو هذا الحذو فى استعمال النقد الذهبى عام ١٣٢٥ ، وفى هولنـده التى اشـتهرت بصـناعتها وتجارتها فى العصور الوسطى أصـدر لويس النيفيرى عملة قومية قبل عام ١٣٣٧ ، ثم جون الـثانى فى برابنت [جنوب هولنـده وشمال بلجيكا] (١٣١٢ ـ ١٣٥٥) ، وانجلبرت دى لامارش (١٣٤٥ ـ ١٣٦٥) فى ليبج ، ووليم الخامس (١٣٤٦ ـ ١٣٨٩) فى هولندا ، ورينود الثالث (١٣٤٧ ـ ١٣٧١) فى جلدرز •

وفى انجلترا سك الملك ادوارد الثالث عملة ذهبية عام ١٣٤٣ وكان أسوأ ما فى تداول العملة النقدية فى أوربا فى العصور الوسطى أنه أعطى لكل النبلاء الاقطاعيين الحق فى اصدار نقدهم المحلى الذى انحدرت قيمته فى كثير من الأحيان• والواقع أن العملة المعيبة وسوء استعمال الامتيازات الطبقية عرفت عن كثير من الملوك وأمراء الاقطاع • ومن أكثر الأمثـلة وضوحا محاولة الملك جون الثانى الطيب (١٣٥٠ ـ ١٣٦٤) من أسرة فالوا أن يخفض قيمة النقد الفرنسى للهرب من عبء الديون القومية •

وأدى نمو استعمال النقود الى دراسة تحليلية وقد كان دورها فى التجارة فى سبيل الوصول الى الاستقرار والعدالة مما اهتم به الدارسون• وكان أول صاحب نظرية مالية فى أوربا فى العصور الوسطى هو نيكولاس أورزم (١٣٨٢) مدير كلية نافار فى جامعة باريس وقد أصبح بعد ذلك أسقف ليزييه ، كان عالما لاهوتيا الى جانب دراسته الطبيعة والعـلوم السياسية ، وترجم كتاب السياسة لارسطو ، ولكن شهرته الحقيقيـة ترتكز على بحثه بعنوان « حركة النقد » اذ شرح فيه بطريقة واقعية موقف التجارة والمصاعب التى تواجهها ، ومصادر هـذه المصاعب فى النظـام النقدى : والفكرة الأساسية وراء رسالته كلها هى أن المال يمثل جزءا من تراث الناس المادى وعملهم ، وهو يخص صالحهم هم أنفسهم وليس حقا للملوك ولا الأمراء الذين يصدرونه ، حتى يباح لهم أن يتكسبوا من

وراء اصدار العملة • وكان يعتبر التلاعب فى النقد أمرا غير أخلاقى وغير عادل ، ومدمرا للاستقرار الاقتصادى وكيان الدولة كلها • ومن المفيد أن نلاحظ أنه بمرور القرن الخامس عشر شهدت مصر أيضا ظهور أبحاث عن النقد كتبها كتاب عظماء مثل المقريزى ، والسيوطى ، وثالث أقل منهما شهرة معروف باسم اسدى • ولم تدرس هذه الكتابات الأدبية دراسة كافية ومعرفتنا بفحواها مازالت غامضة رغم افتراض أنها ظهرت فى وقت كشف فيه طمع سلاطين المماليك ودورهم فى تدهور النقد •

ولم يكن من المفروض أن تنخفض قيمة النومسما الذهبية أو الدينار أو الفلورين أو الدوكات عن ٥ر٣ جرام ذهب • وعند دراسة المعاملات التى كانت تقيم فى العصور الوسطى يجب ربطها بما يعرف بشبح المال أو النقد الوهمى وهو الجنيه الذى يساوى ٢٠ شلنا أو ٢٤٠ بنسا • ففى الأصل لم يكن الجنيه أو الـ« البرا » الا رطلا من الفضة موزعا على ٢٤٠ قطعة فضية [البنس الفضى] • أما العملات الذهبية فقد كانت فى هبوط وصعود فى علاقتها مع الجنيه ، الشلن والبنس وكان متوقفا على سوق الذهب فى المنطقة • ففى نصف القرن وفى ميلانو يخبروننا أن الفلورين الذهبى كان يقدر بقيمة ٦ر١ جنيه أو ٣٢ شلنا ، أو ما يساوى ٣٨٤ بنس • وفى هذا المجال كان البنس والفلورين هما الوحدتان الحقيقيتان اللتان تمثلهما عملات واقعية • وأما الأخريات فقد كانت عملات وهمية من الورق •

وجاءت نشأة نظام الديون والتسليف والمصارف نتيجة لتطور التجارة الدولية والمعاملات المالية • وكانت صكوك التبادل معروفة عند اليونان وكذلك عند اليهود والعرب وأدخلها التجار المسيحيون الى المدن الايطالية فى معاملاتهم المتبادلة •

وكانت النقود تودع مصارف مختلفة ، حيث يمكن أن تواجه هذه المستندات والكمبيالات • وعقدت القروض كذلك وكانت عادة بربح مرتفع مع ما فى ذلك من تحد لأوامر الكنيسة التى تعارض كل أنواع الربا • على أن الكنيسة التى كانت متشددة فى معارضتها ومقاومتها لأى أنواع

الكسب في البداية ، تراجعت بعد ذلك في القانون الذى أصدرته بحيث أصبح هناك ثغرات للنفوذ منها ، فنجد رجالا من قادة اللاهوت مثل سان توماس الاكوينى يجادل فى صف الاشتراك فى الكسب اذا كانت المغامرة للسلفة أو الايداع كبيرة جدا ٠ وقبلت البابوية المبدأ مع أن البابوات ظلوا على موقفهم الصلب فى رفضهم الاعتراف بقانونية الفوائد فى الربا٠

وبدأ أصحاب المصارف في لومبارد من البندقيــة وجنوا وفلورنس وكذلك من مدن ايطاليا الشمالية ، يحلون محل اليهود فى هذه المهنــة المترية ٠ وأصبح الذى كان يقوم بتبديل النقود وفى السوق عميــــلا للمصرف المحلى ٠ وأصبحت مصارف سان مارك فى البندقيــة ، وســان جورج فى جنوا ، وباردى ، وبيروزى فى فلورنسا ، والتنظيمات التجارية الأخرى هى الظاهرة الجديدة للعصر ٠ وفى نهاية القرن الرابع عشر قدرت النقود الفلورنسية المتداولة بقرابة مليونى فلورين ذهبى ٠ وكان لمصرف بيروزى ١٦ فرعا فى العواصم الأوربية والمدن التجارية فى الغرب : ميورقة [فى جزر بليار] ، وشبه جزيرة المورة ، وقبرص ، ورودس ، وتونس فى شمال افريقيا ٠ وأصبح « الداوية » من أكبر الهيئات المصرفية فى العالم فى القرن الثالث عشر بسبب طبيعتهم العالمية وانتشارهم فى كل أوربا والشرق ٠ وكان الملوك والاقطاعيون على حد سواء يودعون نقودهم فى خزائنهم فى قلاعهم الحصينة ٠ أما الحجاج ، فان أى حاج كان يستطيع أن يودع أى مبلغ من المال فى باريس أو لندن ويحصل على ما يريد من نقد فى روما أو القدس ٠ وكانت الأموال الطائلة التى جمعها الداوية عن طريق تنظيم المصارف سببا دعا فيليب الرابع ملك فرنسا الجشع أن يحل النظام (نظام الداوية) ويصادر ممتلكاته عام ١٣١٢ ٠ وفى تاريخ متأخر بدأ بابوات عصر النهضة فى استغلال مبادىء المصــارف وهم أنفســهم البابوات الذين هاجم أجدادهم الربح ٠ فبينما نجد البابا سكستس الرابع (١٤٧١ ــ ١٤٨٤) يفخر بأنه اذا أراد أن يجمع أى كمية من المال فلن يحتاج الا الى ما يكتب عليه ، نجد البابا اينونسنت الثامن (١٤٨٤ــ١٤٩٢) يؤسس مصرفا فى روما لبيع صكوك الغفران ٠ وأصبحت حركة النقود هى النظام اليومى قرب نهاية العصور الوسطى ٠

نظام التجـارة

مرة أخرى كان توسع التجارة عبر البحار وعلى الأرض ، والتطور فى طرق المعاملات ، والطبيعة المتنوعة للسلع المتبادلة ، والقوانين والتقاليد المتشابكة التابعة للبلاد التى كانت البضائع تباع فيها وتشترى منها : كل ذلك بالاضافة الى مجموعة أخرى من الاعتبارات جعل من الضرورى على كل دولة أن تقيم نظامها التجارى الخاص بحيث يخضع لقانون مكتوب أو لعرف وتقاليد غير مكتوبة ٠ وأصبحت التجارة عملية واسعة ٠

وأصبح سوق شانيانى يجرى على حسب مجموعة من القواعد يضعها الأمير ويرقب تنفيذها عملاؤها ٠ وكان للمدن نقابات لمراعاة التنظيم الداخلى والخارجى للعلاقات التجارية ، وتكونت جمعيات تجارية دائمة ، أو بعقد وقتى لرحلة أو لصفقة ، وعرضت القوانين والتقاليد للتطبيق العام ٠ وبعد نشوب الحرب الصليبية فى البحر المتوسط نشأت سلسلة من القوانين تنظم الاجراءات البحرية ، وتطور بعض القوانين الدولية بضبط التجارة ٠ وكانت أهم القوانين المنفذة فى جنوب أوربا وفى مياه الادرياتيك والمتوسط فى ذلك الحين هى :

القانون الرودى ـ مستشار البحر ـ قوانين أولبرن ـ جداول أمالفيا ٠

وكانت القوانين التى تنشأ فى مناطق أخرى تتبع الأغراض نفسها (*)

(*) ففى مناطق البحار الشمالية كان هناك The Black Code of the Admirality فى انجلترا الى جانب مجموعة أخرى من القوانين هى
كتاب بروجز القرمزى Purple Book of Bruges
قوانين الفلاندرز البحرية ٠ Sea Laws of Flanders
قانون أوسترلنجز البحرى ٠ Maritime Law of Osterlings

وكانت الأخطار التي تتعرض لها التجارة على الدوام تدعو الى ضرورة العمل الجماعى فى صورة نقابات للدفاع عن النفس ، ولمواجهة العمل المرتفع التكاليف مثل بناء المنارات والأحواض وأرصفة الميناء لملاحظة المناطق التي قد تحف بها الصخور والضفاف الرملية ، والأعمال الأخرى التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل تأمين الملاحة . وكان للهانساردين بحارتهم المرخصون (المؤهلون) . وفى القرن الخامس عشر جمعوا كتابا يسمى « كتاب البحرى » يحتوى على وصف تفصيلى للسواحل والمجارى المائية والمدن والموانىء التى ترددها سفنهم ويعطينا مارينو سانودو الأكبر وصفا دقيقا للساحل المصرى وموانىء الاسكندرية فى القرن الرابع عشر مما يؤكد ما كتبه العرب عن المدينة عام ١٣٦٥ ويظهر عمق المعرفة البحرية عند الشرقيين .

ولا تجدر المبالغة فى تقدير الطبيعة الدولية لهذه القوانين عندما نواجه بتطبيقها ، فقد كان تنفيذها أساسا مسألة محلية تتوقف على حسن مقصد السلطات فى منطقة معينة ، ولكن هذه الأهداف كانت عادة تعرف بأنها لحماية التجارة ، وضمان سلامة البضائع فى أعالى البحار ، وتفتيش السفن وفحصها للتحقق من سلامتها ولياقتها للابحار ، ولتنفيذ النظام ، ومراجعة عدد البحارة للتثبت أن السفينة لا تحمل أقل من الحد الأدنى المقرر لها ، ومدى مراعاة قانون التاجر الأجنبى . وقدرة القائد أو الربان على تحمل المسئولية وغير ذلك من التفاصيل .

وفى مصر أصبح ضبط النشاط التجارى أمرا واسعا لان التجارة كانت المصدر الرئيسى لدخل السلطان . فقد كانت السفن الداخلة الى ميناء الاسكندرية تخلع عنها دفافها وشراعها . وكان يحاط مدخل الميناء

= وطور اتحاد الهانسيتك كلا من :

قوانين جوتلاند البحرية — Gotland Sea Laws

دليل وسبى — Wisby Code

قوانين ليوبك للسفن — Ship Laws of Lübeck

وكان هناك نظامان جديران بالملاحظة فى بحر البلطيق وهما :

«قوانين وانزنج البحرية» ، «قوانين الفرسان التيوتونيين البحرية» .

بالسلاسل ليلا حتى تمنع السفن من التسلل خارج الميناء دون أن تؤدى الجمرك والضريبة . وكانت قوائم باسم الزوار وقوائم بالبضـائع التى تحملها السفن ترسل الى الهيئة التنفيـذية المركزية فى القـاهرة فورا بوساطة حمام الزاجل وسرعان ما كانت التعليمات تصدر الى السلطات المحلية بالطريقة نفسها .

وكان على المسافر عادة أن يبرز خطاب تقديم من احـد التوكيـلات المصرية القائمة فى المدن الأوربية ، وهى التى تمثل المصالح المصرية فى الخارج ، وكان نظامها أشبه بالنظام القنصـلى . وكان كل أجنبى يؤدى قطعة ذهبية عند رسوه ، ولم يكن يسمح له بالتجوال داخل البلد على سعتها ، وخاصة بالقرب من البحر الأحمر حيث كان حراس السـلطان يقومون بحماية المنطقة من أى تسـلل أجنبى . وكان مواطنـو كل بلد يقيمون لدى القنصل المعين لهذه الدولة الذى كانت لديه تعليمات أن يغلق بوابته من الغروب حتى الشروق وأثناء صلاة الجمعة من كل أسبوع كخطوة وقائية أساسية . وكان تحميل السفن وتفريغها يتم عند بوابات البحر فقط ، وكانت تنتح على جمرك المدينة الكبيرة . وهكذا كانت كل الصـادرات والواردات تتم جمركتهـا بمهارة قبـل الافراج عنهـا . وكان يدير المدينة مندوب سام (نائب الملك) ذو رتبة عالية يسمى الوالى. وكان للمدينة خزانتها الخاصة (بيت المال) ودار صناعتها (بيت السلاح) وشرطتها وقواتها الدفاعية . وكانت أسواقها تخضع لتفتيش المحتسب ، وكانت واجباته تتضمن الاشراف على الموازين والمقاييس ، منع الغش فى المعاملات ، وتنفيذ العقود ، وأداء الديون . وكان له الحق فى الفصـل المؤقت فى الخلافات الاقتصادية أو فى مخالفات القوانين وهكذا كان يجمع بين المسئوليات القانونية ، الاقتصادية ، فى الدنيا والدين . وما زالت كتب الحسبة معروفة فى الأدب الاسلامى الحديث . وهى تشمل بالتفصيل حقوق المحتسب وواجباته . وكان المحتسب أيضا حامى حمى الأخـلاق العامة فى المدينة . وكان فى سلطته مصادرة أى شىء محظور أو اعتقال

اى شخص من سكان المدينة يسيء التصرف • وكان عليه التحقق من أن جميع المسلمين يحضرون صلاة الجمعة • وكان من سلطانه أيضا أن يمنع القســوة على الحيوان والخدم والرقيق ســواء أكانت بالتعذيب الجسمانى بمنع الطعام أو زيادة العمل أو زيادة الأحمال • وكان مطلوبا منــه أن يصون شوارع المدينة لتظل فى حالة جيدة من النظافة والنظام ، وأن يضمن حرية المرور للتجار والبضائع على الطريق • كل هذه التفاصيل توضح الطبيعة الدقيقة لنظام التجارة الواضح فى دول العصور الوسطى فى كل من أوربا والبلاد العربية فى الشرق •

التنظيمات والرأسماليون

لما كانت الكنيسة قد أدانت ممارسة التجارة التي لم تجد لها مكانا في النظام الاجتماعي في مجتمع اقطاعي زراعي ، فان التجارة ظلت وقفا على اليهود في بداية العصور الوسطى ومعهم عدد من المغامرين المسيحيين من فقراء الطبقات الدنيا . ولم يكن من حق اليهودي أن يمتلك أرضا لذلك ركز رأس ماله في التجارة ، وكان ينتقل من بلد الى آخر ببضائعه ويتعبد مع رفاقه في الدين في أي مكان ، ويضمن مساعدتهم له في عمليات البيع والشراء . وكان هناك أمثلة قليلة من تجار مسيحيين نجدها في سجل التجارة المبكرة . ففي نهاية القرن الحادي عشر كان هناك سان جودريك من فينكل في لنكلنشير وقد افترق عن آبائه المزارعين للفقر المدقع ، وجال على الشواطىء حيث وجد في حطام السفن فرصة لممارسة البيع بالتجوال . وتضاعفت ثروته وأصبح بمرور الوقت صاحب شركة تمتلك السفن تبحر حول شواطئ بحر الشمال ، واستطاع بذلك أن يجمع ثروة خيالية . ثم كان هناك رجل اسمه ورمبلد ذكر اسمه في الـ« جستا » الخاصة بأساقفة كامبراي في أوائل القرن الثاني عشر ، وقد جاء ثراؤه نتيجة خدمته لتاجر ثرى تزوج من ابنته في النهاية ، وتخلى للكنيسة عن بعض أملاكه عام ١١٧٤ . ومن بين الأثرياء الذين نذكرهم مؤسس « فقراء ليونز The Poor Men of Lyons » والذى دعا فيما بعد الى فئة الخوارج المعروفة باسم « فتنة والدنسيان » . وكان تاجرا ذا مكانة مرموقة في جنوب فرنسا . وأصبح التعبير mercator الذى كان قبل ذلك مرادفا لاسم «يهودى» يمر بتغييرات أساسية حتى أصبح تدريجيا يعنى burgensis .

غير أن النهضة الحقيقية فى تجارة العصور الوسطى ظهرت واضحة فى مدن جنوب أوربا ، حيث كان حماس التاجر المسيحى يثيره الاتصال المباشر مع التجار العرب القادمين من الشرق وخاصة بعد بداية الحروب الصليبية ، فقد كانت فرص التجارة من الاقبال بحيث أدت الى اقامة دور تجارية وشركات للتجارة ، أولا فى الأسرة الواحدة ، تم اتسعت بعد ذلك لتشمل رأس مال من خارج نطاق الأسرة حيث كان المستثمر يدفع ثلثى المبلغ المستثمر وتدفع الدور المشتغلة بالاستثمار الثلث الباقى ثم تقسم الأرباح بالتساوى بين الجانبين فى النهاية ٠

وكان اليهود قد أقاموا سابقة لكل ذلك فقد أسسوا أمثال هذه الجمعيات التى كانت تعرف باسم الراذانى ، وكانت هيئات تتولى التجارة بين أنحاء العالم ٠ وقد وصف ابن خرداذبه الرحالة الجغرافى العربى فى القرن التاسع التجار اليهود منذ ٨٧٠ م بأنهم تجار يتحدثون باللغة العربية والفارسية واليونانيه ، وكذلك لغات الفرنجة والاندلس والسلاف ٠ ويبدو أن الرذانيين استطاعوا آن يتسللوا الى الشرق والى مناطق معينة من آسيا ، وبيزنطة ، وشمال افريقيا ومعظم الدول الأوربية ٠ وقد أظهرت وثائق The Cairo Geniza قيام تجارة يهودية منتعشة مع الهند وسيلان فى القرن الحادى عشر ٠ ومع ذلك فان التاجر العربى احتل مكانة عالية فى العمل بجانب اليهودى من البداية، ولكن كان كل تاجر يتخصص فى عمليات تجارية معينة ٠ فبينما كان أعضاء الراذانية يميلون الى الاعتماد على بضائع الترف (الكماليات) فى تجارتهم مثل الأحجار الكريمة واللآلىء والأدوات الذهبية والفضية والحرائر والمنسوجات الفاخرة والسجاد ، كان التجار العرب يتجاوبون مع الحاجيات البشرية فيتخصصون فيما لا يمكن الاستغناء عنه من الأشياء ذات الوزن الثقيل الى حد ما مثل الفلفل والتوابل والملح والسكر وسائر المنتجات الطبيعية والصناعات الشرقية ، ولكن كلا من التنظيمين كان شديد الاهتمام بالتجارة ذات الكسب الأكيد الا وهى تجارة الرقيق ٠

وأشهر التنظيمات التجارية العربية أو بالأحرى الاسلامية كان «تجار الكارمية » الذين بدأوا مجموعة في القرن العاشر في أوائل العصر الفاطمي. وعرف عنهم في ذلك الوقت أنهم وضعوا خمس سفن كبيرة في ميناء ايدهاب على البحر الأحمر لحماية سفنهم التجارية من غارات القراصنة ، ومنحهم الخليفة الفاطمي الظافر حق بناء فندق خاص لهم في القاهرة في عام ١١٥٤ . وواصل الأيوبيون والمماليك سياسة الفاطميين من تشجيع للكارميين وحمايتهم حتى أول القرن الخامس عشر . وكونوا اتحادا يكاد يكون اسلاميا كان محرما على اليهود الاشتراك فيه . وكانت أساطيلهم التجارية تبحر عبر الخليج العربي والهند وسيلان وكذلك الى شواطيء شرق افريقيا والصومال ، وذلك في الوقت الذى كانت قوافلهم البرية تخترق السودان ووسط افريقيا والصحراء الكبرى وشمال افريقيا ، وتضاعفت بضائعهم ومخازنهم بسرعة في الأسواق الداخلية وفي الأسواق والموالد خارج مصر في المناطق التي لم يكن في استطاعة غير المسلم أن يمارس التجارة . وكانت لهم فنادق لا في القاهرة والاسكندرية ودمياط فحسب ، بل كذلك في قوص في الصعيد وايدهاب وعدن على شاطيء البحر الأحمر وكذلك في مكه وجدة بالحجاز . ولكى يحافظوا على تجارتهم في الثغور مثل عدن تدخلوا في سياسة اليمن المحلية فاستطاع أحد أعضاء الكارمية واسمه يحيى بن مسند أن يكون وزيرا في اليمن وذلك في العقد الأول من القرن الرابع عشر . وقد سجل ناصرى خسرو الذى زار مصر من ١٠٤٦ الى ١٠٤٩ أن تاجرا من الكارمية شيد كلية من عمليات يوم واحد . وقدم ثلاثة من الكارميين وهم برهان الدين بن المحلى، وشهاب الدين بن مسلم ، ونور الدين بن الخروبي قرضا قدره مليون درهم فضة للسلطان برقوق عام ١٣٩٦ . ويعلق أحد المؤرخين (ابن حجر العسقلاني) على موت ابن مسلم وهو تاجر مصرى من الكارميين عام ١٣٧٤ فيقول انه كان معجزة عصره لضخامة ثروته التي فاقت كل وصف . وقد قدرت بنحو ١٠ ملايين دينار ذهب أو ما يقرب من ٤٢٫٥ مليون دولار . وكان الكارميون ممن يرعون التعليم فقد أنفق ابن مسلم ١٦٫٠٠٠ دينار ذهب

أى ما يقرب من ٧٦٠٠٠ر٧٦ دولار على مدرسة واحدة ، على حين شيد الخروبى مدرسة أخرى وخانقاه تحمل اسمه حيث كان يقيم طلاب الدين والعلم فى القاهرة ، وأنفق المحلى ٥٠٠٠٠ر٥٠ متقال (*) ذهب على بناء قصر منيف على النيل ومعه مدرسة أخرى ، وقد قام كذلك باصلاح المسجد القديم وترميمه (مسجد عمرو فى مصر القديمة) ، وأصبح الكارميون هم طبقة البورجوازية الحقة فى مصر فى العصور الوسطى • واستمروا فى الانتعاش حتى حطم جشع آخر سلاطين المماليك تنظيمهم فى القرن الخامس عشر • وفى سنة ١٤٣٢ صادر برسباى كل مخزونهم من الفلفل وباعه بسعر الجمل ٨٠ دينارا ذهبا أعطاهم منها ٥٠ فقط •

وكانت السياسة الاحتكارية التى اتبعها المماليك فى معاملتهم للكارميين سببا فى تدهورهم حتى أصبحوا مجرد وسطاء فى المعاملات التجارية • وتناقص عددهم وفقدوا اهتمامهم فى أنشطتهم السابقة حتى أن مؤرخ القرن الخامس عشر ابن تغرى بردى يسجل انه لم يكن هناك من الكارميين من كان يجرؤ أو يهتم بالظهور فى الأسواق المصرية فى سنة ١٤٥٥ • وكان تدهور نظام الكارميين عنصرا أساسيا فى تدهور مصر فى العصور الوسطى وتجارتها •

وكانت أوربا أسعد حظا فى نموها التجارى المستقل فى البندقية وجنوه وفلورنسا وبيزا والمدن الايطالية الأخرى ، وكذلك فى الشمال حيث كان هناك اتحاد الهانسى • وكان واجب الدول الأساسى فى هذه البقاع هو المراقبة والحماية اللتان كانتا تبسطان لمصالح كل تاجر أو مجموعة من التجار داخل حدودها • وان تاريخ كل من هذه الدول هو أساسا تعداد لانتصاراتها التجارية ، وكان أعضاء مجالسهم النيابية هم

(*) المثقال الواحد يساوى حوالى ١½ درهم وبمعايير الوزن الحديث يساوى ٤٫٦٦ جرام • فاذا كانت الأرقام المكتوبة فى المرجع الأصلى صحيحة فان وزن الذهب الذى أنفق فى تلك المناسبة كان ٢٣٣ كيلوجرام • وهذا بطبيعة الحال مبالغة فى التقدير •

كبار التجار · وحتى الأسر الحاكمة متل آل فيسكونتى ، وآل سفورزا فى ميلانو وآل مدتيشى فى فلورنسا كانوا أصلا من الطبقة العليا من التجار· اذ أن الثروة الهائلة التى كانت هذه المدن نجنيها من تجارتها مع الشرق كانت تمنحها القوة ، وبلغ ما وزع من أرباح تجارة سفينة من البندقية كانت تحمل حريرا وتوابل وفلفل مقدار ١٠٠٠ ٪ ·

ويخرج عن نطاق هـذا البحث أن نتحدث بالتفصيل عن المصـارف وارباح البيوت التجارية في هذه المدن ، اذ أنها كلها تتعلق بالتجارة فى ناحية أخرى من النواحى · فسجلات البندقية وجنوا وفلورنسا وغيرها تمدنا بما يكفى من معلومات واسانيد رسمية مكتوبة عن حجم التجـارة وثراء التجار الذين وصلوا الى قمة الثروة فى العصور الوسطى ·

ومدينة صغيرة قليلة الأهمية مثل براتو كانت موطنا لفرانسسكو دى ماركو داتينى (١٣٣٥ ــ ١٤١٠) ، وكان مليونيرا انتشرت بيوته التجارية خارج موطنه الى فلورنسا وبيزا وجنوا وأفينون واسبانيا ، وميورقة ــ وكان كشف سجلاته بما فيها من معلومات تكاد تكون كاملة ، مجالا خصبا يمد المؤرخين الاجتماعيين والاقتصاديين بنماذج فريدة من سجلات التجارة فى العصور الوسطى ·

وتتكون هذه المواد من ١٥٠,٠٠٠ رسالة ، وأكثر من ٥٠٠ دفتـر حسابات ، و٣٠٠ وثيقة خاصة بالشركات و٤٠٠ وثيقة تأمين ، وبضعة آلاف فاتورة ، ورسائل توصية وصكوك · وفى وقت ما كان هناك تنافس بين فرنسا والمدن الايطالية حول التجارة الشرقية · فقد طغى اسم جاك كور من بورج الذى أصبح من كبار الرأسماليين فى العصور الوسطى على الأسماء الشهيرة (*) ، كما طغى اسمه على آخرين من الأعلام الذين أصبحوا أقزاما الى جوار نجاك كور ·

(*) مثل Bonis Frères of Montauban
Boyssel Frères of St. Antonin in Rouergue
=

وقد ولد جاك فى أسرة من التجار قرب نهاية القرن الرابع عشر ، ونشأ وتدرج فى تجارة الفراء التى كان يعمل فيها أبوه فى مدينة بورج وهى مقر الأسرة المالكة فى ذلك الوقت من حرب المائة عام • وقد بدأ حياته بتكوين شركة للأثاث مع شريكين وتعهد أثاث الملك ، ثم بدأ أول تجربة له مع التجارة فى الشرق عندما ذهب الى الاسكندرية على ظهر سفينة من ناربون فى بعثة مشتركة من البندقية وفلورنسا وجنوا وكتالونيا ليشترى التوابل • وفى طريق عودته تحطمت سفينته ونهبت على شاطىء كورسيكا • وبنفوذه فى الأسرة المالكة وبمهارته وقدرته استطاع أن يبنى أسطولا خاصا له من أربع سفن اسماها سان ميشيل ، سان أون ، سان جاك ، مادلين • وأبحرت سفنه الى الشرق • وكان يتجر فى الرقيق والتوابل والحراير والسجاد والعطر العربى والفخار الصينى • وزادت ثروته وتضاعفت حتى وصلت الى درجة خيالية ، واستطاع أن يعقد المعاهدات وحده مع سلاطين المماليك ورؤساء فرسان القديس يوحنا فى رودس وسلاطين تركيا • وكان له مئات من الوكلاء فى جميع أنحاء الشرق وكان له مقر دائم فى فرنسا فى بورج ، وليون ، ومونبلييه ، ومرسيليا •

وظل حتى النهاية يؤدى ضريبة سنوية تصل الى ١١٫٠٠٠ فلورين ذهب • ولم يكتف بشراء البضائع الشرقية ولكن ذهب الى الشرق واشترى مصانع بأكملها حتى تنتج له البضائع دون وسيط • بل انه أقنع الملك أن يمنحه حق التنقيب عن الفضة والنحاس والرصاص فى بوجوليه ، وليونيه ، وتشسى وذلك مقابل مائتى جنيه و ١/١٠ من صافى الربح • وقد قال أحد معاصريه ان جاك كور استطاع أن يجمع من الثروة أكثر من سائر التجار مجتمعين فى المملكة الفرنسية ، وما زال قصره فى بورج

=

Ponce de Chaparay of Lyons
Raymond Seraller of Narbonnc
Jacques Olivier of Bearn
Hugo Teralh of Forcalquiei in Arles

متحفا قائما دليلا على هذا الثراء الخيالى • وكان له نظامه الخاص من حمام الزاجل لتسهيل الاتصال المباشر مع وكلائه وممثليه فى الجهات النائية من البلاد • وما زالت أبراج الحمام فى قصره ؛ ولعله كان يحاكى هنا طريقة الادارة المصرية التى كانت معروفة فى الاسكندرية والشرق الأدنى •

وقد قدرت ثروته المعروفة بمليون Mécus ذهب [عملة فرنسية] وكثيراً ما كان يمد الملك والنبلاء بما يحتاجون اليه من نفقات • وقد مول حملة الملك شارل السابع على نورماندى فى ١٩٤٩ ـ ١٤٥٠ ، ودفع للملك ٦٠٫٠٠٠ قطعة ذهبية من أجل حصار شيربورج عام ١٤٥٠ •

وفى العام نفسه يبدو أن ثروته الهائلة تسببت فى الاسراع بسقوطه • فقد وجهت اليه اتهامات صحيحة وباطلة من بينها اتهامه بسك عملة مزيفة ، وبيع السلاح للأتراك الذين كانوا يهددون آخر معاقل البيزنطيين فى القسطنطينية ، وارجاع رقيق من المسيحيين الهاربين الى السلطان المملوكى • وكان هناك سبب لعله كان يكون أقوى الأسباب فى نظر الملك ، الا وهو الادعاء بأنه سمم عشيقة الملك واسمها « أجنس سورل » وكانت قد ماتت فى الواقع وهى تضع طفلا ، وتركت وصية عينت فيها جاك كور منفذ لها • وتدخلت الكنيسة والبابا نيكولاس الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) لحمايته من الملك ، ولكن بلا جدوى ، واستمرت محاكمة جاك ثلاث سنوات قضاها فى السجن وأخيرا أعلن الملك شارل السابع ادانته وحكم عليه بالموت فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ وهو اليوم الذى احتل فيه الأتراك مدينة القسطنطينية • وارضاء للبابا استبدل السجن بحكم الموت والخلى من ثروته كلها » ثم حكم عليه بالنفى المؤبد • وفى عام ١٤٥٤ هرب من المنفى وكانت ثروته لاتزال فى المزاد واتخذ ملجأ له فى مدينة الفاتيكان فى روما حيث رحب به البابا نيكولاس الخامس وكذلك البابا كالستس الثالث الذى خلفه (١٤٥٥ ـ ١٤٥٨) • وعينه قائدا لسفينة بابوية كان مزمعا ان تحارب الأتراك فى الشرق ، ويقال انه مات فى خيوس فى العام نفسه •

وهكذا نجد أنه ليس من الصعب أن نعقد مقارنة بين السياسة التى اتبعت فى مصر تجاه الرأسماليين الكارميين وبين السياسة التى اتبعها الملوك الفرنسيون ازاء جاك كور . وكان التجار فى الجماعات الحرة والنقابات محصنين من مثل هذه الكوارث ؛ فقد كان سقوطهم وتدهورهم نتيجة لظروف خارجة عن ارادتهم ، ظروف فى التاريخ العالمى وليست ظروفا ناتجة عن تدخل محلى أو عن أهواء الملوك والأمراء .

التـــدهور

بدأ تدهور تجارة البحر الأبيض المتوسط واضحا قبل نهاية القرن الخامس عشر وليس عسيرا أن نتبين أسباب التدهور ، ففى مصر قضى نظام الاحتكار التجارى الذى مارسه سلاطين المماليك الأواخر على كل نشـاط لجماعة الكارميين الحرة ، كما بعث اليأس فى قلوب التجار الغربيين . نقد عجز تجار البندقية عن أن يبيعوا التوابل والفلفل في أوربا بأسعار السلطان العالية . والى جانب ذلك كانت هناك دائما محاولات لقوى أخرى لكشف طرق جديدة للوصول الى منابع التجارة الشرقية فى الهند .

واخيرا استطاع البرتغاليون بقيادة فاسكو دى جاما أن يدوروا حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ . وظهرت أساطيلهم في المحيط الهندى ، ولعبت دورا مدمرا مع البحارة العرب . وشن آخر سلاطين المماليك قانصوه الغورى (١٥٠٠ ــ ١٥١٦) حربا بحرية ضد البرتغاليين وانتهت بهزيمة مرة الأسطوله سنة ١٥٠٤ ولكنه عاد يأخذ بتأره سنة ١٥٠٨ بقتل لورنزو الميدا فى البحر ، وسرعان ما شهد العالم التالى الهزيمة الساحقة للقوة البحرية المصرية على يد والد لورنزو وهو دوم فرانسسكو دى الميدا (١٤٥٠ ــ ١٥١٠) وكان حينئذ محافظا برتغاليا فى جنوا . وحل محله الفونسو البوكرك (١٤٥٣ ــ ١٥١٥) وكان أول مغامر أوربى يدخل البحر الاحمر من الجنوب ويهاجم ميناء عدن التى كانت مفتاحا للبحر الأحمر . ورغم أنه أخفق فى احتلاله كرة بعد كرة فأنه استطاع فى عام ١٥١٥ أن يحتل أرمز ويضمن السيطرة البرتغالية على المحيط الهندى . وفى ذلك الوقت كان السلطان قانصوه ما زال يحلم باعداد حملة ثانية ضد الأعداء الجدد المرعبين حتى أنه كان يتفاوض مع البندقية للتحالف ضد البرتغاليين عندما اضطر فجاة للقتال مع الأتراك وتحطم حلمه كله عندما وقعت مملكته فى يد العثمانيين سنة ١٥١٧ .

وجدير بالذكر أن أهالى البندقية اقترحوا فى ذلك الوقت حفر قناة السويس لتربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط • وكان تحقيق مثل هذا المشروع جديرا بأن يمكن سفن البندقية من أن تواجه البرتغاليين فى المياه الشرقية مواجهة فعالة • ولكن الفكرة ظلت رهن الدراسة حتى اختفى قانصوه المتردد من الصورة اختفاء تاما عندما أزاله من الوجود خصمه العثمانى سليم الأول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) • وبمجىء الأتراك انحدرت مصر الى الصف الثانى فى الشئون العالمية ، وأصبحت القسطنطينية هى مركز العالم الاسـلامى الجديد • وأقام العثمانيون حاجزا جديدا فى وجه التجارة الشرقية • وكان عداؤهم للمسيحيين فى أوربا وخاصة البندقية الى جانب القراصنة المغاربة تحت قيادة خير الدين بربارسا فى البحر المتوسط مما سبب وقف تجارة أوربا مع الشرق الأوسط •

وفى هذا الوقت جاء كشف أمريكا عام ١٤٩٢ ، وبدت مجالات واسعة أمام قوى شواطىء الأطلنطى ، وبدأت أسبانيا والبرتغال تحلان محـل الجمهوريات المتهاوية • البندقية وجنوا وسائر الجماعات التجارية فى جنوب البحر الأبيض المتوسط • وهكذا فتحت صفحة جديدة وبدأت الشمس تغرب عن الشرق الأوسط ليحل محلها فجر جديد فى تاريخ غرب أوربا •

الفصل السادس

الثقافة العربية والغرب في العصور الوسطى

تنقسم الفترة المضيئة فى تطور التاريخ العربى الى ثلاث مراحل رئيسية • المرحلة الأولى مرحلة الفتح عندما توحد العرب تحت راية الاسلام لأول مرة فى تاريخهم الطويل الذى كان يكتنفه بعض الغموض، وغامروا وفتحوا البلاد فى كل اتجاه بقوة جبارة وأخضعوا المناطق المحيطة بهم لحكم امبراطوريتهم الجديدة • وكان بين أبناء الصحراء وجيرانهم صلات وتعارف ، وكانت لهم مشاركة فى الحضارة الرائعة التى تحيط بصحرائهم القاحلة • فقد عرفت القبائل العربية فى الحيرة على الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية الحضارة الساسانية التى كانت تمتد من بلاد الفرس عبر الوديان الخصبة فى دجلة والفرات • بل كانت الحضارة البيزنطية فى الشمال معروفة أكثر من الحضارة الفارسية ، ولم يكن ذلك مقصورا على قبائل العرب المسيحيين أمثال بنى غسان الذين قطنوا حدود سوريا بل شمل قبائل البدو المتعددة فى داخل الجزيرة العربية نفسها •

وكان النبى محمد قد سافر فى صباه الى المناطق فى تجارة للسيدة خديجة أرملة مكة الثرية التى تزوجها بعد ذلك . ويقال ان عمرو بن العاص قد سافر الى مصر ووصل الى الاسكندرية حيث شاهد بدهشة وانبهار اشعاعات مدينة البطالمة والاسكندر قبل أن يقود العرب منتصرين الى هذه

البلاد الغنية • وعندما شنوا الحرب ـ حرب الجهاد المقدس ـ ضد الفرس والبيزنطيين كانوا يعلمون حق العلم ضخامة التراث الذى سيوضع بين أيديهم • وكانت الامبراطوريتان العظيمتان القديمتان تتحاربان منذ ألف عام ، وقد أنهكت هذه الحروب قواهما حتى القرن السابع الميلادى قبل أن تخضعا فى فترة وجيزة للغزو العربى الجارف •

ومن الصعب فهم السرعة المدهشه التى انتشر بها الفتح العربى دون دراسة دخائل هذه الأمم التى كانت تعيش على ذكرى مجدها القديم الغابر • ومن العوامل الحاسمة فى حالة الامبراطورية البيزنطية عامل التقسيم الذى فرق بين المسيحيين الغربيين والشرقيين فى المجلس المسكونى الخامس فى خلقدونية عام ٤٥١ • فبعد هذا التاريخ بدأ الغرب سياسة تعذيب لا تتسامح مع مسيحيى الشرق الذين فقدوا بدورهم كل تعاطف نحو اخوانهم الغربيين • وأصبحت المسيحية عقيدة امبريالية وكمنت العوامل التاريخية من وراء الجدال الخلقدونى بين المذهبين فى علم اللاهوت. مذهب ينادى بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة ومذهب ينادى بوجود طبيعتين ومشيئتين ، بحيث يمكن وصف ما حدث بأنه معركة قومية مضاف اليها نكسة تميل الى الاتجاه البدائى فى ديمقراطية المسيحية فى الشرق ، هذا وفى الناحية الأخرى نجد الحكومية الامبريالية الدينية فى الغرب •

وكانت القسطنطينية عازمة على تزعم المجلس المسكونى وان تصبح السلطة الرسولية الوحيدة ؛ وهذا يرتبط الى حد كبير بالاسكندرية وأنطاكية • وكانت نتيجة هذا الشقاق فى الكنيسة العالمية نشأة بطرياركية طائفة الملكانيين مع ميل كبير تجاه الامبراطورية ، وكان فى ذلك تحد للاتجاهات الاستقلالية التقليدية بين بطرياركيات الأقاليم فى الشرق سواء عند الأقباط أو السريان أو الأرمن •

وكان تعيين جوستنيان لشخص واحد يجمع فى يديه السلطة الدينية الى جانب الدنيوية لكل من أمور مصر وبطرياركية الاسكندرية سبيلا

الى التفرقة الكاملة بين الأقباط المسيحيين المصريين وطغاتهم البيزنطيين ، وذلك فى لحظة حاسـمة حرجة عندما هاجم العـرب المسـلمون حصن « بابليون » فى بداية صيف عام ٦٤٠ (*) ٠

. . .

وكان نتيجة هذا الموقف الضنك أن التزمت مصر الحياد بين المتنافسين ، واضـطر المقوقس البطريرك الملكانى والى مصر البيزنطى أن يسلم مصر للعرب بعد سقوط سوريا وغزو بلاد الفرس ٠ وهكذا بعد خمسين عاما من ظهور الاسـلام ضمت امبراطورية العرب مساحات شاسعة تمتد من المحيط الهندى الى شواطىء الأطلس ٠

وكانت المرحلة الهامة الثانية هى مرحلة الانشاء ٠ فقد بدأ العرب يستقرون بقوة ايمانهم وشعورهم بالعدل الى جانب احترامهم البالغ لنظم الحكم القائمة وتقديرهم لتفوق الحضارات القوميه ، واطمأنوا فى هدوء وانسجام مع رعاياهم فى هذه الامبراطورية التى غنموها ، وكان يميز سلوكهم تجاه الشعوب التى قدر لهم أن يعيشوا معهـا عدة قرون مزيج من البساطة والتواضع والشهامة والنجدة ٠ وكان كل ما أسهموا به فى حضارات هذه الدول فى هذه الفترة مقصورا على اللغة والعقيدة فان أولئك القادمين من صـحرائهم الجرداء قد اعتزوا بلغتهم العربيـة وعقيدتهم الاسـلامية ٠ وكانت القدسية التى استثمرها العقل العربى فى اللغة

(*) استمر حصار بابليون سبعة أشهر ٠ واستولى عليه العرب فى أبريل سنة ٦٤١ م ٠ وتم فتح مصر بعد سقوط الاسكندرية فى السنة التالية ٠

وهناك مواقع أخرى فاصلة فى حروب العرب وهى :
Pentapolis or Cyrenaica التى استولى عليها عام ٦٤٢-٦٤٣ ، معركة كربلاء عام ٦٩٨ ، وأسبانيا التى تم فتحها عام ٧١١م والاغارة على جنوب فرنسا عام ٧١٧ ٠ وكانت موقعة لورز (بواتييه) هى المعركة التى أوقفت زحف العرب على أوربا وكان ذلك عام ٧٣٢ ضد شارل مارتل كما وقف الزحف على شرق أوربا عند القسطنطينية عام ٧١٧ أثناء حكم ليو الايزورى ٠

والعقيدة قد ظهرت واضحة فى القـرآن ، وهو نص مقدس شـمل القواعد والنظريات فى الدين الجديد باللغة العربية الخالدة ٠

وكان من المفروض على المسلمين عامة أن يقرأوا كتاب الله فى نصـه الأصـيل ، أو على الأقل يرجعون اليه ، وهكذا أصبح التراث العـربى للأجيال المتعاقبة مرتبطا باللسان العربى والعقيدة الاسـلامية معا ٠

أمـا المرحلة الثالثة فهى مرحلة الاندماج ٠ فبعد استقرار العـرب فى امبراطوريتهم تبع ذلك فترة بدأ العرب فيها حصاد ثمار الحضارات الأسمى من حضارتهم والتى أصبحت عندئذ تحت قيادتهم ٠ وبعكس الهمج البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية فى أوربا ، وكذلك بعكس المغول فى الشرق الأوسط ، لم يفعل العرب المسلمون مثلما فعل أولئك وهؤلاء فى المناطق التى احتلوها ، ولكنهم حاولوا أن يصلوا الى المستوى الرفيع لهذه الجماعات سواء فى الثقافة أو فى شئون الحياة والعمران ٠

وهكذا استغل العرب المنابع الطبيعية وكذلك الثراء الفكرى لمثل هذه الأمم ٠ وعندما نتحدث عن معجزة الثقافة العربية نجد أنه من الضرورى أن نتذكر طبيعتها وتكوينها من عناصر مختلفة ٠ ولا يبدو هذا واضـحا فى أثر المجالات الواسعة من أغريق وفرس فحسب ، بل يتساوى معهما أثر العناصر الأكثر محلية مثل الفكر والفن القبطى والسريانى والنسطورى والهندى ٠ وكان العـرب يتجاوبون مع كل هذه الحضـــارات القديمة والعظيمة ببساطة لا يماثلها فى التاريخ البشرى الا ما فعله اليابانيون من اندماج وتأثر بالوسائل العلمية والتكنولوجية الغربية خلال العصر الماجى(*) (١٨٦٨ ـ ١٩١٢) كما أشار بذلك الأستاذ جورج سارتون ٠ وليس القياس هنا كاملا فى كل التفاصيل ؛ اذ أن اليابانيين اقتصروا فى تقبلهم

(*) Meiji وهو العصر الذى حكم فيه الامبراطور موتسوهيتو بلاد اليابان ٠

للحضارات الأخرى على حدود اليابان ؛ على حين أثبتت انجازات العرب المدهشة أنها ذات أثر في التقدم العالي للعقل البشرى واسهمت في نشر الحكمة والعلم القديم •

وأصبحت كلمة (عربى) تحوى معنى أكثر اتساعا من مجرد معناها العنصرى الأصلى كما كانت الحال في أسرة الأمويين في دمشق • وقد ظهرت حركة الثقافة العربية في ذروتها في حكم العباسيين في بغداد حيث كانت النظرة الفارسية سائدة أكثر من العربية ، ومن هناك انتقلت معجزات العقل الاغريقى وكذلك الحضارة الاغريقية الى الأجيال اللاحقة • والواقع ان الثقافة العربية أصبحت ملتقى تيارين فكريين عظيمين قديمين كان كل منهما يتطور على حدة خلال العصور السابقة • ففي ناحية نجد ثقافة اليونان بل اننا اذا تعمقنا في التاريخ القديم وجدنا الحضارة المصرية القديمة الى جانب حضارة الاغريق ؛ وفي ناحية أخرى نجد السومرية والفارسية والهندية • وأصبح التكامل والاندماج في هذه الممالك الفكرية المتفرقة هو الهدف الأساسى للعرب • وهكذا كانت نشأة الحضارة العربية نتيجة للتداخل والامتزاج بين هذه الانجازات الفكرية التى حققتها أمم قديمة •

ومع ذلك فمن الخطأ أن نحسب أن جهد العرب قد اقتصر على نقل المعرفة القديمة • ففي الصفحات القادمة سوف نرى أن الدارسين والمعلقين العرب قد ضربوا بسهم وافر في الأصالة وحققوا درجة عالية من الابتكار، على حين كان الاغريق ينتكسون ويرقدون في غيبوبة العصور الوسطى المظلمة ، وكان الرومان الورثة المباشرين سياسيا للاغريق في الغرب • وكانت نظرتهم النفعية سببا في التقليل من قيمة المثالية الاغريقية الناهضة، وكانت نشأة المسيحية فيما بعد في الامبراطورية تبعدهم عن الفكر الوثنى القديم وتتجه الى عقيدة جديدة تنقلهم من المشاكل الدنيوية الى سماوات الخلود • وهكذا أصبح العرب بمعنى ورثة الحضارة اليونانية في الأرض ولو عن طريق غير مباشر •

عصر الترجمة

بدأت الثقافة العربية بنقل منظم للكتب الفلسفية والعلمية التى وضعها كبار الفلاسفة والعلماء القدامى من اللغة اليونانية الى العربية • فقد أمر الخلفاء العباسيون بحماسهم المعهود بأن يتم نقل كل عمل جديد بالنقل مهما تبلغ تكاليفه • وقام بتنفيذ ذلك اليعاقبة السوريون والنسطوريون المسيحيون بما لهم من مهارة وكفاية فى كل من اليونانية والسريانية والعربية • ثم جاء المأمون وأنشأ بيت الحكمة فى بغداد عام ٨٣٠ معهدا للبحث والدرس ومركزا عظيما لنشر النشاط ومتابعةالعلوم والترجمة • ويعتبر بيت الحكمة أول أكاديمية حقيقية للدراسة فى العاصمة الاسلامية • ثم أرسل الخلفاء بعثات خاصة الى القسطنطينية لنقل الأصول الخطية اليونانية لترجمتها الى اللغة العربية • وهناك حالات لوحظ فيها أن سفراء الخلافة كانوا يساومون فى معاهدات الصلح مع البيزنطيين من أجل الحصول على بعض الأصول اليونانية للعرب •

وهذه الضغوط الدبلوماسية على أعلى المستويات من أجل تقدم الدراسة العربية تكاد تكون فريدة فى التاريخ • وربما كانت الحالة الوحيدة المشابهة والجديرة بالذكر هى ما يعزى الى فيلادلفس من البطالسة فى القرن الثالث قبل الميلاد فانه حين لم يقنع باستيراد الوثائق الخطية من مدن اليونان ، أمر بتفتيش كل السفن التى ترسو على شواطىء الاسكندرية ، ومصادرة كل الأوراق المكتوبة وايداعها مكتبة ميوسيون Museon بالاسكندرية وهكذا يمكن القول بأن أكاديمية المأمون فى بغداد كانت أول حركة انعاش للجو العلمى الذى اندثر منذ متحف ميوسيون فى الاسكندرية •

وقد بدأت حركة الترجمة من الفارسية لا من اليونانية على يد عبدالله بن المقفع ، وهو فارسى مسلم عرف بقدرته وبلاغته الفائقة فى اللغة العربية ، بدأ بترجمة كليلة ودمنة وهو من الأدب الايرانى الكلاسيكى الى اللغة العربية • وقد كان ابن المقفع مولى عيسى بن على عم السفاح (٧٥٠ ـ ٧٥٤) أول الخلفاء العباسيين ، وكان الكتاب المذكور مترجما عن الهند البوذية • كذلك ترجم ابن المقفع حياة ملوك الفرس « سير الملوك العجم » عن أصلها « خوداى ناما » الذى استخدمه الشاعر الفارسى الخالد الفردوسى فى تأليف قصته الشهيرة « شاه ناما » • ونحن لانعرف النص العربى القديم الضائع الا خلال بعض فقرات حفظها ابن قتيبة فى سجلاته التاريخية « عيون الأخبار » • ثم انزلق ابن المقفع بعد ذلك فى السياسة فى عصره وكانت لعبة خطرة ، حتى نفذ فيه حكم الاعدام حوالى ٧٥٧ ـ ٧٥٨ أيام حكم المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) • وبرغم أنه كان فارسيا فان أسلوبه مازال يعتبر من روائع الاساليب فى اللغة العربية •

وجاء هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) ليظهر ميولا فارسية أكثر مما أظهره من سبقوه • وكان مشغوفا بعلم الفلك الفارسى حتى قيل انه نبنى انشاء المرصد فى جنديسابور • وقد عرف فى كتابات أحمد النهاوندى فى القرن التاسع الذى اشتهر بجمعه أول جدول شامل لعلوم الفلك « الزيج المسهتامى » استوحاه من ملاحظاته الخاصة • وعن طريق محاولاته الخاصة الأولية لدراسة الفلك والرياضيات الهندية والفارسية اهتم الخليفة بتوسيع مجالها ليشمل اليونانية •

وقد بدأت القصة برسالة هندوسية عن الفلك والمعروف باسم سدهنتا Siddhanta وبالعربية « سندهند » • كما ترجمه محمد بن ابراهيم الفزرى (٧٧١ م) الذى جمع أيضا الجداول الفلكية السنسانية (الزيج من الزك الفارسى) • وكان أول عربى يقيم معملا فلكيا على النمط الاغريقى • ولنقص الدراسة والفهم لمبادىء الرياضيات وعناصرها بين العرب أمر

هارون الرشيد بترجمة Syntaxis الذى ألفه كلوديوس البطلمى المعروفة بالعربية « الماجست » والتى تستعرض المقومات والأدلة لعلم الفلك كذلك وجدت مبادىء اقليدس طريقها الى اللغة العربية بفضل سلطة الرشيد وتوجيهه ٠

وصل العرب أخيرا الى أرسطو وربما كان ذلك عن طريق أصول سريانية اذ كانت كل أعمال أرسطو محفوظة ٠ وهذا العمل مرتبط باسم يحيى أو يوحنا بن البطريق سنة ٨١٥ ٠ وفى عام ٨٣٥ ترجم مسيحى آخر من حمص اسمه عبد المسيح ما يعرف باسم « علم اللاهوت عند أرسطو » من كتاب مختصر لبلوتينس Plotinus وعند اقامة أول مستشفى فى عصر الرشيد ، صدرت الأوامر بترجمة أعمال أبوقراط وجالينوس فى الطب ٠

وقد شارك جعفر البرمكى وكان وزيرا ذا نفوذ فى تشجيع الترجمة فأجزل العطاء للباحثين والدارسين ٠ وواصل الخليفتان الأمين (٨٠٩ ــ ٨١٣) والمأمون (٨١٣ ــ ٨٣٣) حماسهما وتشجيعهما وولاءهما لرعاية أبيهما للعلوم الاغريقية ٠ وكان للمأمون حقا عدد كبير من الباحثين كان يرعاهم فى بيت الحكمة الذى أصبح بالتدريج متحفا للمخطوطات ٠

وبدأت صناعة الورق فى بغداد منذ عام ٧٩٤ وبدأ استعماله ليحل مكان اللفائف الجلدية الغالية الثمن وكذلك مكان ورق البردى المصرى الذى كان هشا ٠ وكان هذا اشارة بدء ثورة فى تاريخ مواد الكتابة ولتسهيل عمل الناقلين ٠

وقد كرم الخليفة فى قصره الأطباء النسطوريين الذين درسوا الطب اليونانى ٠ وكان حنين بن اسحق مؤلف أول كتاب عن طب العيون عنوانه « عشر مقالات فى العين » وكذلك جبريل بن بختيشوع (٨٣٠ م) كلاهما كان يتمتع بتقدير كبير فى أعلى دوائر عصرهما ٠ وقد توسع المأمون فأنشأ

ما نسميه بالعمل الميدانى عندما أمر بمسح جغرافى للصحراء السورية قام به سبعون باحثا فيهم الخوارزمى مؤلف الكتاب المعروف برغم أنه مفقود « صورة الأرض » ٠

وكان حنين بن اسحق النسطورى (٨٠٩ ـ ٨٧٣) فخر عصر الترجمة٠ وهو ابن لصيدلى مسيحى من الحيرة ٠ وقد تعلم العربية ثم تتلمذ على ابن ماسويه وطرد من دراسته لشدة فضوله ٠ ثم ذهب الى اليونان حيث درس اللغة اليونانية الى حد الكمال ، وبعد ذلك استقر فى البصرة حيث واصل دراسته على يد خالد بن أحمد حتى عام ٨٢٦ وهو العام الذى انتقل فيه الى بغداد وأصبح تابعا لطبيب الدولة جبريل وعن طريقه نقل كتاب جالينوس فى الطب الى العربية والسريانية ٠ واستقر حنين ألمع المترجمين فى عصره فى بيت الحكمة حيث أحاط به مدرسة من الباحثين الجدد وفيهم ابنه اسحق (٩١١) وابن أخيه حبيش بن الحسن وعيسى بن يحيى بن ابراهيم الذى بذل جهدا كبيرا فى ترجمة العديد من الأعمال اليونانية٠ ويقال ان حنين وحده ترجم من الأعمال مائة برغم ان القليل منها فقط هو الذى بقى حتى الآن ٠ فالى جانب طب أبو قراط ترجم حنين كتاب « المبادىء » لمؤلفه Dioscorides أو المعروف باسم " Materia Medica " الذى كان يحوى صورا رائعة فى المخطوطات العربية ٠ وقد ترجم اسطفانوس بن باسيلوس وهو من تلاميذ حنين هذا الكتاب أولا الى اللغة السريانية ثم ترجمه الى العربية اما حنين ، أو ابنه أو حبيش ابن أخيه ٠

ومن المترجمين كذلك يوسف الخورى وقد كان قسيسا ونقل مثلثات ارشميدس الى العربية من نسخة سريانية حوالى ٩٠٨ ، ثم راجعها بعد ذلك ثابت بن قره ٠ وكان معاصره فى بعلبك قسطه بن لوقا قد ترجم Hypsicles التى راجعها الفيلسوف العربى الكندى وكتاب ثيودسيوس " Sphaerica " والذى راجعه ابن قره و « الميكانيكا » لمؤلفها هرن٠،

وكذلك كتاب "Metorora" لمؤلفه نيوفراستس ، وكتاب « الفيزياء » عند أرسطو لمؤلفه جون فيليبونس ، ونسخة مراجعة من اقليدس • وعدة كتب أخرى • أمـا كتاب ارسطو عن الشـعر فقد ترجمه أبو بشر متى بن يونس الجماعى (٩٤٠) وكذلك كتاب أمونيوس المسمى Prolegomena وكتـاب بورفيرى المسمى "Isagoge" الذى كتبه الموحـد أبو زكريا يحيى بن عادى المنطقى الذى توفى عام ٩٧٤ •

وقد نشأت مدرسة مشابهة لمدرسة حنين فى حران شمال العراق تحت زعامة ثابت بن قره (٨٢٥ - ٩٠١) وكان من الصـابئة عبـدة النجوم • وترتكز شهرته على قدرته الفائقة مترجما وعلى علو كعبه فىعلم الفلك • وقد سجل بارهيريوس (ابن العبرى) فى أوائل القرن الثالث عشر ، أن ثابتا كان أستاذا فى اليونانية والسريانية والعربية وأنهوضع نحو مائة وخمسين مؤلفا باللغة العربية فى المنطق والرياضيات والفلك والطب ، كما أن له خمسة عشر مؤلفا آخر بالسريانية ، وشملت تراجمه ومراجعـاته أعمالا لـكل من ابولونيـوس ، اقليـدس ، بطليـموس ، ونيودوسيدس وكتاب قدامى آخرين •

وهكذا سارت الثقافة العربية معتمدة على أساس متين من الفلسفة والتراث العـلمى اليونانى ، وكذلك من الرياضـيات والفلك الهنـدى والفارسى • وتحركت فى ثقة تجاه تحقيق أهدافها العليـا فى الفـكر الابداعى • فلم تعد مجرد معبر ينقل حكمة القدامى ولكنها حققت نضجا كافيا لان تترك وراءها آثارا فكرية مستقلة فى مجالات متعددة وكذلك وصلت فى غضون خمسة قرون معجزة الفكر العربى الى مستويات عليا تفوق التصـور بدأت أولا بالترجمة • ويمكن أن نصف هذا العصر بأنه العصر الفضى وقد شغل أواخر القرن الثامن وكل القرن التاسع وبداية القرن العاشر • ثم لحقه العصر الذهبى قرب نهاية القرن العاشر وامتد

الى القرن الحادى عشر ومعظم القرن الثانى عشر • وخـلال هـذه الفترة يمكننا أن نحس وجود مركزين اسلاميين للثقافة : بغداد فى الشرق ، وقرطبة فى الغرب • ويجدر أن نوضح باختصار النواحى الرئيسية لهذه الصورة المضيئة وأثرها فى تقدم العالم فى مختلف النواحى الانسانية والعلم والفلك والطب والفن والهندسة •

الفلسفة واللاهوت

قامت المدرسة الاسلامية فى الفلسفة على أساس من أرسطو ، وضعه عربى قح هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى فيما بعد عام ٨٧٣٠ وقد عينه الخليفة المأمون معلما خاصا لابنه وخليفته المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) • ويعتبر الكندى مؤسس المدرسة العربية للارسطوطالية بما فى المعتزلة أو المدرسة المتحررة لعلماء اللاهوت الذين تقبلوا نظريات أرسطو الفلسفية حتى لو عارضت ظاهر نصوص القرآن • وعندئذ كانت تعتبر رمزية أو استعارية • وقد أدى اشراف المأمون وخلفائه وتشجيعهم لهذه الحركة التحررية الى ضجة هائلة قام بها العرب المحافظون الذين عذبتهم السلطات • فقد استشهد أحد أئمة السنة الأربعة وهو ابن حنبل (٨٥٥) فى مناظرة عقدها الخلفاء لمحاكمة المفكرين الأصلاء وكذلك القادة •

وبرغم مقاومة المحافظين فان فلسفة أرسطو استمرت بكل قوتها ، ووجدت مؤيدين لها بين الكتاب العرب ومنهم الفارابى (ويعرف باللاتينية باسم « الفارابيوس ») الذى يعتبر رائدها العظيم الثانى • وكان أبونصر محمد الفارابى (٩٥٠) عضوا فى حاشية أمير حلب سيف الدولة المشهور بحبه للأدب • وسمى الفارابى المعلم الثانى بعد أرسطو لاعماله الرائعة الواسعة فى مجال الفلسفة • وأصبحت كتابات الفارابى وتعليقاته على أرسطو وأفلاطون مرجعا مهما ، وظلت كذلك عدة قرون • والفارابى فى مبدأ أمره تحول الى مفكر مادى لا يؤمن الا بالماديات ثم أصبح بعد ذلك زاهدا وبعد ذلك تطور وعاد محافظا متدينا • وكان مذهبه الفلسفى يحمل طابع كل من فلسفة افلاطون وأرسطو الى جانب فلاسفة الاسلام المتزهدين، ومن كتبه التسعة والثلاثين كتابه « احصاء العلوم » وهو يحتوى على

ملخص لكل معارف عصره • اما فى بحثه بعنوان « المدينة الفاضلة » وقد استوحاها من « جمهورية افلاطون » ومن كتاب « السياسة » لارسطو ، فقد كان الفارابى يرى القانون الطبيعى فى صراع دائم مع كل تنظيم آخر • وفى نهايه مناقشته للعلوم السياسية توصل الى نتيجة هى أن كل نظام ملكى مستنير قائم على مبادىء خلقية ودينية قوية هو أحسن فرصة لانقاذ العالم من قانون الغابة • وقد عرف الفارابى كذلك بأنه كان طبيبا وعالم رياضـة وربمـا كان أعظم مؤلف عربى فى الموسـيقى فى أيـام الخلافة (*) •

وبعد ذلك نأتى الى أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) وهو أعظم تلاميـذ الفارابى ويعرفه الغربيون باسم (أفسـينا Avicenna) وقد كان مؤلفا موهوبا فى مجال الطب والفلسفة • وكان ابن سينا مواطنا من بخارى فى آسيا الوسطى ، وطبقت شهرته الآفاق فوصلت الى اسبانيا حتى أن رايموند كبير أساقفة طليطلة أمر كل من : شماسة الدومينكانى واسمه جنديسالفس وطالب يهودى معتنق للمسيحية اسمه جوان افنديث من أشبيليه [فى جنوب اسبانيا] أن يتعاونا فى ترجمة أعمال ابن سينا الى اللاتينية خلال الفترة من ١١٣٠ — ١١٥٠ • وقد اجتهد ابن سينا لانقاذ العقيدة فى التوفيق بين وجود الله والنظريات

(*) كتب الفارابى مؤلفا ضخما فى الموسيقى هو « كتاب الموسيقى الكبير » وقد ترجمه الى الفرنسـية R. d'Erlanger تحت عنـوان La Music Arabe اى الموسيقى العربية وذلك فى ٦ مجلدات • وطبعت فى باريس بين عامى ١٩٣٠ ، ١٩٥٩ •

ويمكن للقارىء الرجوع الى ما كتبه H. G. Framer تحت عنوان : "The Sources of Arabian Music" أى مصادر الموسيقى العربية وطبع فى اسكتلندا عام ١٩٤٠ • وكذلك مقال بعنوان :

Oriental Influences on Occidental Military Music.

أى المؤثرات الشرقية على الموسيقى العسكرية الغربية وظهر هذا المقال فى « الثقافة الاسلامية » العدد ١٥ عام ١٩٤٥ (ص ٢٣٥ ، ٢٤٢) •

وقد كان الفارابى نفسه موسيقيا ممتازا •

الفلسفية لاثبات الألوهة دون معارضة الفلسفة وبذلك وضع الأسس التي بنى عليها ابن رشد (الذى يعرفه الغربيون باسم Averroes نظرياته فيما بعد في الأندلس فى القرن التالى لابن سينا . والواقع أن أثر ابن سينا ظل ملحوظا في مراكز العلم المختلفة فى أوربا . وقد اتبع منطقه الذى يعتمد على البدء من المعلوم الى المجهول الفيلسوف المدرسى البرتوس ماجنوس وكانت دراساته في الميتافيزيقا ومناقشاته لطبيعة الله والخلق سببا فى نشأة كثير من التأملات والدراسات فى الحضارة الغربية .

وهناك آخر من المفكرين العرب تكاد تتساوى فلسفته ونفوذه على العلم الأوربى مع تأثير ابن سينا هو أبو حامد الغزالى (١٠٥٨ ـ ١١٠٩) وكان يعرف فى الأدب اللاتينى باسم " Algazel " . وكان يعلم فى نيسابور وبغداد حيث جعلت منه مغامراته الفكرية عن أرسطو ضحية للشك الذى دمر هدوءه الفكرى فترة من الزمن . ولذلك اعتزل عمله في مدرسة بغداد وهجر الحياة العامة الى العزلة التامة . وفى النهاية أصبح زاهدا وبدأ يدرس نظريات الفلسفة المختلفة . وكانت دراساته التحليلية فى المنطق ، والفيزياء ، والميتافزيقا موضع دراسه باللاتينية فى القرن الثانى عشر فى طليطلة ، فقد احتوت " Pugio Fidei " التى كتبها رايموند مارتن كثيرا من مناقشات الغزالى فى بحثه « تهافت الفلاسفة » ويبدو واضحا أن نظرياته الفلسفية اتفقت مع الفكر الفلسفى والكلامى فى الدولة المسيحية فى العصور الوسطى .

وجدير بالذكر أن الغزالى نفسه في فترة صراعه الفكرى وقع تحت تأثير جماعة من الفلاسفة والمفكرين فى البصرة كانوا يعرفون باسم « اخوان الصفا » . وقد انتعشت فلسفتهم فى النصف الثانى من القرن العاشر برغم أنهم كانوا منبوذين فى بغداد حيث وصفوا بأنهم طائفة شيعية ملحدة . وكانت رسائلهم الاثنين والخمسين (رسائل لاخوان الصفا)

تهدف الى أن تحتوى كل المعرفة المعاصرة فى ذلك الوقت فى نظام موحد يتمل للرياضيات ، والفلك ، والجغرافيا ، والموسيقى ، وعلم الجمال ، والعلوم ، والفلسفة ٠

وقد وصلت الفلسفة العربية في الأندلس الى ذروتها في القرن الثانى عشر فى أعمال أبى الوليد بن رشد الخالدة (١١٢٦ — ١١٩٨) وتعرفه الفلسفة المدرسية الأوروبية باسم أفيروس وكان من أهل قرطبة وقضى بعض حياته فى اسبانيا وبعضها فى مراكش حيث قضى أخريات أيامه وكانت فلسفته تمثل خليطا عجيبا فى تأثيره فى الشرق والغرب ٠ فبينما كانت فلسفة ابن رشد تؤثر على أساس الفكر الأوربى فى العصور الوسطى وظلت قوية حتى نشأة العلوم التجريبية ، لم تحظ بمثل هذا الحظ بين المسلمين ٠ بل العكس نجد ابن رشد الأندلسى يتعرض للنقد اللاذع وكثيرا ما كان علماء الكلام العرب يتهمونه بالزندقة ٠ الا أن المفكرين الانسانيين فى الغرب كانوا يعتبرونه أعظم معلق فى التاريخ على ارسطو ، وكتبه فى علم النفس والكلام والمنطق والقانون يجب اعتبارها اسهاما كبيرا فى الحضارة العامة فى العصور الوسطى ٠

ويبدو تأثير ابن رشد فى القديس توماس الكوينى (١١٢٥ — ١٢٧٤) فى بحثه الخالد "Summa Theologica" واضحا من مناقشاته حول مكانة الالهام بين العقيدة والمنطق ٠ ورغم أن القديس توماس كثيرا ما انتقد المفكر المسلم عمدا وصغر من شأن فلسفته وخطأ من نظرياته فانه دون وعى وقع تحت تأثير ابن رشد ٠ فقد كانت رسالة ابن رشد التى تنادى بأن العقيدة والمنطق لا يتعارضان ، وان النظريات الفلسفية يمكن أن نجد لها سندا من العقيدة ، كانت هى الأسس التى أقام عليها القديس المسيحى وعالم اللاهوت نظريته فى العصور الوسطى ٠ وان الموازنة التفصيلية بين مناقشاتهما تدل على التقابل والتوازى بينهما ، حتى ليبدو استحالة افتراض المصادفة فيه ٠ فلابد أن فلسفة ابن رشد قد وصلت الى الأكوينى

مباشرة عن طريق الترجمة اللاتينية التي قام بها ميشيل سكوت فى طليطلة قبل مولد القديس ببضع سنوات ، وكذلك بطريق غير مباشر عن طريق النسخ اللاتينية لأعمال الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٤) الذى دون كتبه باللغة العربية كذلك • وجدير بالذكر أن ترجمة فلسفة ابن رشد قد هوجمت من السلطات الدينية الا أنها كانت تنال صراحة تشجيع أساتذة جامعة باريس وتوصيتهم لطلابهم •

واستمر دارسو الفلسفة العربية فى ازدياد فى أوربا وخاصة من القرن الحادى عشر الى القرن الثانى عشر • ومن بين هؤلاء أشهر أسماء العصر مثل جربرت من اسبانيا الذى أصبح البابا سيلفستر الثانى (٩٩٩ ـ ١٠٠٣) وأدهيمار من باث ، وهرمان من دالماتيا ، وميشيل سكوت ، ودانيال مورلى ، وروبرتس انجليكس ، وبيتر المبجل • وكان الأخيران أول من عرف من كتاب العصور الوسطى بمحاولة نقل القرآن الى اللاتينية • وكانت مدرسه طليطلة فى القرن الثانى عشر ، تلك التى كانت تخضع لأشراف ريموند كبير أساقفة طليطلة تعيد ذكرى أكاديمية الخليفة المأمون التى أنشأها فى القرن التاسع وأسماها (بيت الحكمة) فى بغداد • وفى الوقت نفسه كان الفونس العاشر الحكيم ملك قشتاله وليون (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) قد منح وصايته وولايته لكل الدارسين من جميع الثئات ، وشجع حركة نقل الفلسفة والعلوم العربية الى اللغات الغربية • فترجم جيرارد من كريمونا واحدا وستين أصلا كانت للقراء موسوعة عالمية للفكر المعاصر •

فقد ترجم الأدب العربى أولا الى الأدب اللاتينى فى اسبانيا بمساعدة « المتأخرين » أى العرب الذين تخلفوا فى الأراضى المسيحية وراء المستعربين المسيحيين ، وكذلك عن طريق الباحثين اليهود الذين كانوا يتنقلون فى حرية بين العرب وجيرانهم الأوربيين • وعن طريق هذا النقل عن لغة الكلام تمت النسخ اللاتينية • وأصبحت كلمتا «فلسفة» و «عربية»

مترادفتين • فقد كتب روجر بيكون (١٢١٥ ـ ١٢٩١) وقد تأثر تأثرا بالغا بالفلسفة العربية قائلا : Philosophia ab Arabico deducta est وتدين أوربا لاعادة كشف أرسطو والفلاسفه الاغريق للعرب ، وذلك قبل ظهور النصوص الأصلية الاغريقية خلال عصر النهضة بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين عام ١٤٥٣ • ومن الغريب أن بعض النصوص التى نقلت الى اللاتينية قد نقلت الى اليونانية بأمر من البابا وهكذا أصبحت الدائرة كاملة ـ من اليونانية الى اليونانية عن طريق اللغة العربية واللاتينية •

ويبدو أن الفلسفة العربية التى وصلت ذروتها فى القرن الثانى عشر قد توقفت بعد الغزالى فى الشرق وابن رشد فى الغرب ، وهذه ظاهرة من أغرب الظواهر فى تاريخ الحضارة • ومن الصعب أن نجد تفسيرا منطقيا نهائيا للتوقف والجمود الفجائى للفكر العربى • فهل كانت حالة عدم الاستقرار والفقر الناتجة من غزوات المغول فى الشرق الأوسط والأراضى المستشرقة فى اسبانيا سببا لذلك ؟ ليس هناك شك فى أن جموع المغول جعلوا من أراضى الخلافه الشرقية أرضا همجية لكن كيف نفسر ذلك فى اسبانيا وقد كانت تحت حكم المستنيرين من الحكام مثل الفونسو الحكيم ؟ هل من الممكن أن نحسب أن انتصار التعصب على التحرر الفلسفى نتج عنه توافق فكرى للمستويات العادية لعلماء الكلام الطبيعيين ؟ أو أن السر فى هذا التخلف هو اختفاء الاشراف والولاية البيروقراطية لمراكز العلم الكبرى عن طريق الدولة والكنيسة ـ ودار الحكمة التى أنشأها المأمون فى بغداد ، ودار العلم التى أنشأها الحاكم فى القاهرة ، وبلاط الفونسو فى أسبانيا المسيحية ومدرسة طليطلة التى انتعشت بفضل جهود كبير الأساقفة ريموند ؟ وهل صحيح أن الفكر العربى فى لحظة ما أصبح مشبعا حتى توقفت قدرته الابداعية وأصبح التدهور هو الطريق الطبيعى أو أن الأمر يرجع الى كل هذه العوامل والأسباب التى أفضت الى انهيار الفلسفة والحضارة العربية ؟ كل هذه الأسئلة ما زالت فى انتظار الاجابة •

وبرغم أن هذه المشكلة ما زالت رهن الدراسة فان الحق لا يزال باقيا وهو أن أواخر العصور الوسطى شهدت هبوطا حادا في حمى الفكر العربي فيما عـدا حالة وحيدة في شخصـية واضـحة كالشهب هي شخصـية ابن خلدون عام ١٤٠٦ وهو فيلسوف عظيم في كتابة التاريخ وأبو الدراسات الاجتماعية • ومع ذلك فان شخصيته الرائعة التي لمعت في أفق الثقافة العربية مرت دون أن يلحظها معاصروه سواء من المسلمين أو المسيحيين ؛ وقد كان مؤلفه كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر في سبع مجلدات ضخمه قد تضاءل بازاء مقدمة الكتاب ؛ وفي هذه المقدمة يلخص ابن خلدون فلسفته في التاريخ وعلم الاجتماع العملي • فقد كان يدرس العوامل الجغرافية والمناخية والطبيعية والروحية التي تحكم نشأة الامبراطوريات وسقوطها ؛ وكان يشرع القوانين التي تعمل في مجرى الحوادث بفهم وعمق بصيرة لم يعرضهما أي مؤرخ فلسفي خلال العصور الوسطى • وكثيرا ما يوصف بأنه أول باحث في علم الاجتماع ؛ وأنه مؤسس لعلم الاجتماع الحديث • ولكن ابن خلدون ظهر متأخرا في وقت لم يكن في الامكان أن يؤثر في الفكر العربي عن طريق الترجمة اللاتينية ؛ وكان المسلمون عاجزين عن فهم هذه النظريات أو تقبلها ؛ وظل الأمر كذلك حتى ظهرت أول ترجمة حديثة لمقدمته بالفرنسية في القرن التاسع عشر وعندئذ عرف الدارسون في العالم ابن خلدون وعن طريقه ظهر آخر شعاع من الثقافة الاسلامية يسطع على الفكر البشري •

العلوم والرياضيات

انتعش الالهام العربى فى مجال العلوم التى تحتاج الى الدقة بترجمة ما خلفه عباقرة اليونان القدامى أمثال اقليدس ، وبطليموس ، وأبوقراط ، وهرن ، وآخرين غيرهم • وكانت معرفتهم زيادة على ذلك قد ازدادت قوة عن طريق ذخيرة جديدة تختلف طبيعتها كل الاختلاف عما أخذوه عن الغرب • ويجدر أن نفترض أنه بنهاية القرن العاشر كان العرب قد أصبحوا على دراية بعلم الحساب الهندوكى الذى وضعه (براهماجيتا) ، وكذلك الجبر ، الى جانب استعمال الصفر والنظام العشرى الذى سبب تحولا خطيرا فى علم الرياضيات • فالكلمات جبر ، وكيمياء ، ولوغاريتمات ، العنبر كلها مما استعمله العرب • وقد وضع العرب أسس الهندسة التحليلية وحساب المثلثات الذى لم يكن معروفا عند اليونانيين الا بقدر ضئيل •

ففى عام ٨٢٥ نشر الخوارزمى (*) كتابه التاريخى فى الجبر الذى أسماه « كتاب حساب الجبر والمقابلة » • وفى تاليفه لهذا الكتاب استخدم مؤلفات اليونانيين فى الغرب وكذلك المصادر الشرقية فى بابل والهند • وقد اهدى الخوارزمى مؤلفه لمولاه المستنير الخليفة المأمون ، وأشار فى مقدمته الى أنه سوف ييسر عملية حساب الميراث ، والوصايا ، والتقسيم ، والقضايا ، وحسابات التجارة ، وقياس الأراضى ، وخطط شق القنوات ، والعمليات الهندسية ، والعمليات الأخرى • وكان بحثه الشهير فى الحساب

(*) محمد بن موسى من خوارزم شرق بحر قزوين • وتوفى ما بين ٨٣٥ ، ٨٤٤ • وقد حرف الاسم فى اللاتينية الى «الجورزم» أو «الجورثم» • وهناك بعض الكتاب الذين يشكون فى ذلك •

قائما على التمثيل العشرى ، وعلى نظام جديد للأرقام ترجمه عن اللاتينية جيرارد من كريمونا Gerard of Cremona فى بداية القرن الثانى عشر؛ وكان له تأثير كبير فى الرياضيات فى أوربا • فقد كان سببا فى ادخال الأرقام العربية ، الصفر والكسور فى علم الحساب الغربى • أما جداوله الرياضية وقد راجعها وحسنها المجريطى عام ١٠٠٧ فقد نقلها الى اللاتينية اديلارد من « باث » فى عام ١١٢٦ •

ومن العبث أن نحاول مراجعة كل تطورات علم الرياضيات العربى بعد الخوارزمى ؛ غير ان هناك اسما يبدو واضحا فى الصورة وهو اسم عمر الخيام (١٠٣٨ ــ ١١٢٣) • وهو فارسى من نيسابور ويعرفه الغرب أكثر بأنه شاعر ألف الرباعيات التى ترجمها وخلدها بالانجليزية الشاعر الانجليزى فتزجيرالد ، وذلك برغم أن شهرته الحقيقية تقوم اساسا على عبقريته الرياضية واسهامه فى تقدم العلوم • وأصلح الخيام التقويم الفارسى القديم وأجرى تعديلات كبيرة فى جبر الخوارزمى ورياضيات اليونانيين •

وبينما كان يحاول حل المعادلات التكعيبية بفروض وبراهين هندسية حدس استحالة ايجاد مكعبين يصبح مجموعهما مكعبا واحدا وهى مسألة عممها بيير دى فيرمات (١٦٠١ ــ ١٦٦٥) أى بعد عمر الخيام بعدة قرون• وقد نقلت مؤلفاته فى الجبر الى اللغة الفرنسية عام ١٨٥٧ •

وفى الطبيعيات (الفيزياء) لم يكتف العرب بمجرد نقل النظريات اليونانية ببساطة بل أضافوا اليها اكتشافاتهم •

وقد كان ابن الهيثم (٩٦٥ ــ ١٠٣٩) ويعرف باللاتينية باسم « الهازن » من أهل البصرة ، وانتقل الى القاهرة خلال مدة الحاكم أحد خلفاء الفاطميين • كان ابن الهيثم أعظم علماء الفيزياء العرب • وفى كتابه

الهام عن البصريات عارض مفاهيم كل من اقليدس ، وبطليموس الخاطئة عن أن الرؤية ناتجة عن أشعة تخرج من داخل العين الى الأشياء الخارجة عنها ، وهكذا قلب النظرية اليونانية عن عمل الخزانة ذات الثقب ، وقد درس ابن الهيثم انعكاسات الضوء وعلم الميكانيكا ، وكان يعرف مبـدأ التصور الذاتي الذى وضعه اسحاق نيوتن بعد ذلك الوقت فى أول قوانينه عن الحركة وأصبح كتاب ابن الهيثم (الذخيرة فى علم البصريات) أساس معظم الابحاث البصرية فى العصور الوسطى خاصة فى مؤلف روجر بيكون فى القرن الثالث عشر وخلال عصر النهضة تأثر بأعماله كل من ليوناردو دافينشى (١٤٥٢ ــ ١٥١٩) وجوهان كبلر (١٥٧١ ــ ١٦٣٠) .

وهناك عربى آخر من أصل فارسى ومعاصر لابن الهيثم هو البيرونى(١) (٩٧٣ ــ ١٠٤٨) وقد كان عالما فى الجغرافيا والتاريخ والفلك والطبيعة، وجاب أقطار الأرض حتى وصل الى الهند وتعلم اللغة السنسكريتية ، فمكنه ذلك من ترجمة الكتابات العلمية فى الهند الى اللغة العربية . وقد أسهم اسهاما كبيرا فى مبادىء الهيدروستاتيكا [علم توازن السـوائل وضغوطها] والتى تحقق منها فى آبار الهند الارتوازية . كما أن كتاباته عن تواريخ الأمم وكذلك تاريخ الهند تعتبر من الأعمال المشهورة .

وفى الرياضيات وضع خاتمة للمعرفة العربية ، واستخدام الأرقام الهندية ، ووفق الى حل كثير من المسائل المتعلقـة بالزوايا والمخـروط والمعادلات التكعيبية . أما فى الفيزياء فقد استخدم طريقة الازاحة فى حساب النقل النوعى لثمانية عشر حجرا مختلفا بعضها ثمين وبعضـها نصف ثمين . كما أجرى تجارب على بعض المعادن وتوصل الى نتائج على درجة كبيرة من الدقة (٢) .

---

(١) هو أبو الريحان محمد البيرونى ويعرف بأنه « الأستاذ » .

(٢) قدر البيرونى الوزن النوعى للذهب بأنه من ١٩٫٠٥ الى ١٩٫٢٦ والزئبق ١٣٫٥٩ ، وللنحاس من ٨٫٣٣ الى ٨٫٩٢ وللبرنز من ٨٫٥٨ =

وكان خليفة البيرونى الحق فى الطبيعة هو الخازنى أبو الفتح عبدالرحمن المنصور ، الذى كتب فى الموضوع عام ١١١٨ • وقد حسب الوزن النوعى للمواد التى صعب ايجاد أوزانها النوعية قبل ذلك الا وهى السوائل كالماء والزيت ، اللبن والدم البشرى • وفى حالة الماء ميز بين الماء العذب وماء البحر الملح ، وبين الماء البارد والماء الساخن ، على درجة من الدقة لا نكاد نشعر معها بالخطأ اذا قورنت بالأرقام الحديثة • وكان الخازنى أيضا مدركا لقوة الجاذبية تجاه مركز الأرض ويقال انه اكتشف قانون السرعة للأجسام الساقطة •

ولكن من الخطأ أن نبالغ فى اسهام العرب فى العلوم التجريبية ككل • ففى الكيمياء استوحى العرب معرفتهم مما انحدر اليهم من فارس والصين والاسكندرية وكانت هذه جميعا بدائية الى حد ما • ولما كانوا يعرفون المبدأ اليونانى الذى يقول ان لكل المعادن أصلا واحدا ، ولكنها تختلف فى الدرجة والنسبة فقط ، فانهم أضاعوا وقتا طويلا وطاقة وجهدا فى محاولة التغلب على مشكلة تحويل المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة ليحولوا الرصاص الى ذهب • والى جانب سر التحويل حاولوا أن يستخدموا حجر الفلاسفة وآكسير الحياة لعلاج أمراض البشر ولاطالة الحياة • وفى مثل هذه المحاولات تعرفوا على سلسلة من العمليات الكيميائية فى الأشياء مثل الصهر والتقطير والتبخير والترشيح والتصعيد والبلورة وكلها عمليات عرفها جابر بن حيان من الكوفة وهو العالم المشهور فى فترة انتقال بين القرن الثامن والتاسع • ويقال انه اخترع عمليتى التكلس والاختزال وانه حضر عدة آكاسيد •

=

الى ٨ر٦٧ • ثم جاء بعده الخازنى الذى راجع هذه الأرقام وقال انها ١٩ر٠٥ ١٣ر٥٦ ، ٨ر٦٦ ، ٨ر٥٧ على التوالى •

ويمكن للقارىء أن يقارن بين هذه الأرقام • وبين الأرقام المعروفة الآن وهى : ١٩ر٢٦ ، ١٣ر٥٦ ، ٨ر٨٥ ، ٨ر٤ على التوالى •

وقد عرف العرب الكحول والقلويات وكلتا الكلمتين من أصل عربى . استعملوا الأنبيق وهو تعبير عربى آخر كما عرفوا الماء الملكى ، وكبريتور الزئبق ، ونيترات البوتاسا (ملح البارود) ، والشب . والكبريتات بصورها النقية ، وعدد آخر من المركبات الكيميائية . وتمكن العرب من فصل الانتيمون والزرنيخ من كبريتوراتها ، ووصفوا تحضير الصلب وتجهيزه ، وصبغ القماش والجلد ، واستعمال ثانى أكسيد المنجنيز فى صناعة الزجاج ، وتحضير حامض الخليك من الخل . ومع ذلك فانهم - ويا للغرابة - استمروا فى تصديقهم لنظرية العناصر الأساسيةالأربعة فى الطبيعة التى كان يؤمن بها اليونانيون وهى الأرض والهواء والماء والنار ، وقد أعلن انبادقليس (١) Empedocles هذه النظرية أول ما أعلنت فى القرن الخامس قبل الميلاد وجاء أرسطو ليعززها فى القرن التالى .

وهناك الرازى (٢) (٨٦٥ - ٩٢٥) ويعرف باللاتينية باسم «رازس» Rhazes . وهو طبيب فارسى مستعرب مسلم ، عرف عدة مواد ووصف عمليات كيميائية جديدة وتجارب عملية كانت معروفة لروجر بيكون . وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) ، وكان معروفا ومشهورا فيما يختص بالفلسفة والكلام ، كتب بحثا لا ينسى عن العلوم الطبيعية وصف فيه تكوين الجبال ، والأحجار ، والمعادن ، وناقش ظواهر الزلازل ، والريح، والماء ، والحرارة ، والترسيب ، والتجفيف وأسباب التجمد .

---

(١) يكتب الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى كتابه « فجر الفلسفة اليونانية » طبعة ١٩٥٤ ص ١٦١ هذا الاسم Empedokles ويذكر فى هامش الصفحة ذاتها بأن هذا الاسم ورد فى الملل والنحل للشهرستانى « أنبا دوقليس » وفى أخبار الحكماء للقفطى « ابيدقليس » وفى عيون الانباء لابن أبى أصيبعة « بندقليس » والغالب ان الذين يرسمونه بالذال يحرفون الاسم عن النساخ . (المترجم)

(٢) أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الذى عرف بأعماله المشهورة فى علم الطب وسنتناوله فيما بعد عند الحديث عن الطب .

الفلك

كانت دراسة علم الفلك أمرا تقليديا معروفا من قديم الزمان فى الشرقين الأدنى والأوسط • وكان للعرب دورهم الكبير فيه ففى خلال تجوالهم عبر الصحراء الواسعة كانوا يعتمدون على الكواكب لترشدهم الى وجهتهم • وظل اهتمامهم بالسماء أمر يتبعه بل يشجعه الخلفاء ، وتحت حكمهم بدأنا نسمع عن اقامة مراصد متعددة • فقد بكر الأمويون بانشاء مرصد فى دمشق ، وأضاف العباسيون مرصدا آخر فى بغداد ، وزود الخليفة المأمون المرصد الجديد فى بغداد عند بوابة الشماسية بكل جهاز فلكى معروف فى ذلك الوقت ، وتبناه والحقه بأكاديمية دار الحكمة ، وعهد بادارته الى سند بن على وقد كان يهوديا اعتنق الاسلام ، ويحيى بن أبى منصور وكان كلاهما ذا مهارة عظيمة فى علم الفلك خلال المرحلة الأولى من القرن التاسع • ثم أقام العباسيون مرصدا ثالثا فى جندسابور فى ايران وهى مدينة عرفت بأنها مركز كبير للتعليم وخاصة فى العلوم الطبية • وكان الدارسون من النسطوريين قد جاءوا الى هناك بعد القرن الخامس بعد أن أغلق البيزنطيون مدرسة الرها التاريخية فى صراعهم من أجل مبادئهم الارثوذكسية وحل محلهم اليونانيون عندما أغلق جستنيان مدرسة أثينا فى ٥٢٥ • وكان مقدرا لجندسابور بموقعها الممتاز أن تصبح مركزا للنفوذ الغربى وللاتصالات الفارسية والهندية • وفى مصر ، عند نهاية القرن العاشر أنشأ الخليفة الحاكم المرصد الرابع فوق تلال المقطم خارج القاهرة • وحتى بعد انهيار الخلافة ووقوع بغداد فى أيدى المغول انقاد هولاكو خان وراء ايمانه الخرافى بالفلك فبذل رعاية كبيرة لانشاء مرصد مراجه Maragha الكبير قرب بحيرة أورميا Urmia فى أذربيجان خلال القرن الثالث وقد عرف بأجهزته الأثرية • وعين الخان عالم الفلك

الخاص به مديرا وهو ناصر الدين الطوسى (١٢٧٤) وألحق بالمرصد مكتبة كبيرة • وكان الطوسى على درجة كبيرة من المهارة فقد جمع الجداول الخانية « الزيج الخانى » وأهداها لاستاذه • وكانت تتضمن تاريخا عربياوفارسيا ويونانيا وصينيا • وقد سجل كذلك حركات الكواكب من ملاحظتـه بوساطة أجهزة هائلة كانت تتضمن مزولة حائطية ، وذات الحلق (آلة فلكية قديمة مكونة من كرة وحلق) وآلات تعيين الانقلابات الجغرافيـة الخاصـة بالفصول الأربع والعضادة (*) • وجمع من ملاحظات سـابقة لليونانيين مثل أبوقراط وبطليموس وللعرب الذين كانوا أئمة فى هذا المجال من الدراسة منذ العصور الأولى • وهناك مرصد آخر أشرف عليه المغول ومولوه فى سمرقند ـ عاصمتهم • ولم يقدر لمرصدى سمرقند ، Maragha أن يعيشا طويلا لانهما قاما بهدف المتعة الزائلة للحكام •

ومن الواضح أن دراسة الفلك على أساس علمى لقيت اهتماماكبيرا منذ البداية فى عصر المأمون • ومعظم الدارسين والفلاسفة فى ذلك العصر حاولوا وراء بحثهم عن المعرفة الكاملة ، البحث فى كل فرع من فروع العلوم بما فى ذلك الفلك بدرجات متفاوتة من الكمال • ومشاهير المسلمين فى علم الفلك كثيرون حتى ليصعب أن نحصيهم كلهم • ولكن هناك أسماء مثل الفرغانى (٨٦٠) وأبو معشر (٨٨٦) من بلخ فى خراسان ثم البطانى (٨٧٧ ـ ٩١٨) وابن يونس (١٠٠٩) والبيرونى (٩٧٧ ـ ١٠٤٨) والزرقلى (١٠٢٩ ـ ١٠٨٧) والبطروجى (١٢٠٤) وكلهم من المشاهير العظام الذى يصعب اغفالهم حتى فى ملخص قصير •

وقد ترجم كتـاب الملخص الفلكى للفرغانى الى اللاتينيـة بعنـوان Astronomical Compendium • ترجمه جيرارد من كريمونا وجوهانس

(*) عرفت العضادة فى دائرة المعارف الاسلامية الجزء الثانى ص٤٤٥ بأنها خط الرؤية على ظهر الاسطرلاب يدور حول محور أو مدار ، وعن طريقه يمكن عمل ملاحظات عدة ، لا سيما عند رصد ارتفاع نجم •

هيسالنس قبل عام١١٨٧ونسره في نورمبرج فيعام١٥٣٧ Melanchthon السهير فى عصر الاصلاح الالمانى ٠ أما بحث أبى معشر فى الفلك فقد نقله الى اللاتينية ابيلارد من باث بمساعدة جوهانس تحت عنوان De conjunctionibus et annorum revolutionibus وقدتفوقت الجداول الفلكية التى وضعها البطانى على المواد اليونانية وانتشرت بتوسع فى كل أوربا فى العصور الوسطى ٠ وقد أكمل عمله أبو الوفا (٩٤٠-٩٩٨) بعد ذلك بستين عاما برغم أن شهرة أبى الوفا قامت على اسهامه فى حساب المثلثات الذى استعمله كوبرنيكس بتوسع فيما كتب تحت عنوان Opus palatinum de triangulis ٠ ومن بين الأعمال الكثيرة التى قام بها البيرونى أنه أوجد النسبة بين الفروض الفلكية ٠ وقد جمع على بن يونس الفلكى الخاص للحاكم ، جداوله « الزيج » فى مرصد المقطم ٠

فاذا اتجهنا غربا الى اسبانيا فى طليطلة نجد أبا اسحاق ابراهيم بن يحيى الزرقلى المعروف فى اللاتينية باسم "Arzachel" يضع جداول طليطلة من ملاحظاته ورصده الخاصة مقررا مواقع الكواكب ٠ ووضع جدولا فلكيا جديدا استعمله الملك الفونسو الحكيم فى القرن الثالث عشر فى تصويره وتقديره للاطوال ٠ واستفاد كوبرنيكس من هذا البحث والجدول الفلكى ٠ ومن أعمال أبو اسحاق البطروجى (*) الذى يعرف باللاتينية باسم "Alpetragius" وكان بحث كوبرنيكس بعنوان "De revolutionibus orbium coelestium" وقد أحيا عربى من اسبانيا هو البطروجى الاهتمام ببعض أعمال أرسطو فى الفلك والفيزياء وعلم الجو (الطقس) التى كانت قد نقلت من العربية الى اللاتينية ٠

(*) هو نور الدين أو اسحاق مؤلف « كتاب الهيئة » وقام بترجمته الى اللاتينية ميشيل سكوت عام ١٢١٧ والى العبرية عام ١٢٥٩ ٠ ويمكن للقارىء أن يقارن ذلك مع ما جاء فى كتاب « تاريخ العرب » لمؤلفه فيليب حتى ، لندن عام ١٩٥٨ ص ٥٧٢ هامش رقم ٥ ٠

واحتفظ العرب بفكرة كروية الآرض خلال العصور المظلمة فى أوربا حتى أظهرها عام ١٤١٠ بيير دى ابلى فى خريطته مصور العالم "Imago Mundi" التى استعملها كربستوفر كولمبس بنتائج عظيمة . ويدين فاسكودى جاما بمعرفته للطريق الى الهند للبحار العربى أحمد بن ماجد فى القرن الخامس عشر واليه يعزى نقل ابرة الملاحة الى البحارة الأوربيين والبوصلة من الملامح التورية لفجر التاريخ الحديث .

الجغـرافيا

لا يمكن ارجاع الدراسات الجغرافية العربية ـ بعكس باقى فروع الدراسات الانسانية ـ الى التأثير اليونانى • ورغم أن العرب لم يجهلوا أسهام بطليموس ، وايراتونينس ، وسترابو من العصور القديمة فانهم اعتمدوا فى اعادة وضع جغرافيتهم المحلية والعامة على أسفارهم وملاحظاتهم المباشرة • وقد شملت أسفارهم خريطة العالم المعروف فى ذلك الحين منذ وقت الهجـرة حتى نهاية العصـور الوسطى • فبينمـا نسمع أن الخوارزمى (٨٣٠) وسـليمان تاجرسيراف (٨٥٠) قد وصـلا الى الهند والصين فى القرن التاسع الميلادى نجد ابن بطوطه (١٣٥٣) فى منتصف القرن الرابع عشر جوابا يسـافر الى شمال افريقيا ، ومصر وسوريا والامبراطورية البيزنطية والجزيرة العربية وبلاد الفرس وبعض الحدود الآسيوية والهند ، وسيلان ، وجزر ملديف • وفيما بين الخوارزمى وابن بطوطه مرحلة ملأى بالجوالة العرب الجغرافيين وواضعى الخرائط وجامعى الأطالس والمعجمـات الجغرافية الـكبيرة • وهؤلاء ممثلون فى محتـويات (*) Bibliotheca Geographorum Arabicorum

وان الحج وهو رحلة دينية الى مـكة فرضـا على كل المؤمنين الذين يستطيعون اليه سبيلا ، كان باعثا على سفر المسلمين من الغرب والشرق للقيام بالرحلة المقدسـة ولتبادل التجارة والمعلومات • ومعظم المسافرين الذين وصفوا الممالك والمسالك بدأوا رحلاتهم ووجهتهم مـكة • وكان أول الذين كتبوا وصفا فى القرن التاسع هم ابن خرداذ (٨٧٠) واليعقوبى

(*) لزيادة الايضاح يمكن للقارىء أن يرجع الى
Atiya : Historiography and Bibliography. Monumental Collections Section VII.

(٨٩٠) وابن الفقيه (٩٠٣) وابن رستا (٩١٠) ولكن أول جغرافيا حقيقية للعالم الاسلامى ظهرت خلال القرن العاشر فى أعمال أبو زايد البلخى (٩٣٤) ، وكان من بلاط السامانية (*) فى خراسان فى ترانسوكزرنيا وبرغم أن كتابه هذا فقد فان مدرسته قد مثلت خير تمثيل فى جغرافيات القرن العاشر فى أعمال لاصطرخى (٩٥٠) ، وابن حوقل (٩٧٥) ، والمقدسى (٩٨٥) ، والمسعودى (٩٥٦) وذلك برغم أن الأسمين الأخيرين لم يقعا تحت تأثير البلخى مباشرة . أما جغرافيو الغرب من العرب ومسافروه فقد ظهروا فى القرن الحادى عشر . فقد ترك الأسبانى العربى « البكرى » (١٠٦٧) عملا عظيما لم يبق منه سوى الجزء القليل الذى نشر عن شمال افريقيا . أما الأدريسى فقد ترك أثرا مميزا فى تطور الأدب الجغرافى الغربى والشرقى . وقد ولد الأدريسى فى ثيوته [سبته] فى ١١٠٠ وأكمل دراسته فى قرطبة ودعاه بعد ذلك الملك روجر التانى (١١٠١ ـ ١١٥٤) ملك صقلية الى بلاطه فى بالرمو . وأوصى الملك النورماندى العلامة العربى أن يجمع كتابا فى جغرافية العالم . وكانت النتيجة عملا من أعظم الانجازات فى جغرافيا العصور الوسطى وخرائطها . وفى مؤلفه الذى وضعه للملك وأسماه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » قسم الأدريس الأرض الى سبع مناطق مناخية تضم كل منطقة عشرة أجزاء . وكانت الأقسام السبعون مصورة فى سبعين خريطة جزئية يمكن جمعها لتكون وحدة تمثل العالم كله . وكان الكتاب كله عملا لم يسبق له مثيل فى عظمته واكتماله وضبطه . وعلى خلاف مع خريطة ابن حوقل (٩٧٥) الدائرية نجد خريطة الأدريسى بيضية الشكل تشبه الى حد ما نموذج الاسكندرية الذى وضعه بطليموس . وكانت خريطة الأدريسى أكثر دقة فى تصويرها لمنطقة البحر الأبيض المتوسط وكان على علم أفضل بها .

(*) أسسها ناصر بن أحمد (٨٧٤ ـ ٨٩٢) وهو حفيد أحد نبلاء زوروا استريان اسمه سامان الذى اتخذ اسمه للأسرة السامانية .

وكان هنـاك أندلسيون آخرون مثل ابن جبير (١١٩٢) سـجلوا انطباعاتهم الجغرافية • ففى عام ١٢٢٨ جمع ياقوت والقزوينى (١٢٧٥) معجماتهم الجغرافية ونظمها أبجديا على حسب التراث الجغرافى العربى الذى كان تحت تصرفه • وقد يبدو أن اسـهام العرب فى هذا المجال لم يكن له تأثير قوى فى تطور المعرفة الجغرافية فى أوربا ، ذلك التطور الذى ظل متأخرا حتى عصر النهضة • ورغم ذلك فان تأثير العرب فى فتح طرق التجارة بين أوربا وآسيا أنعش تقدم التجارة الدولية ، مما كان له أثر هام فى تاريخ العالم • وكما سبق أن ذكرنا كان العرب يعرفون الصين فى القرن التاسع عندما تسلل المبشرون المسيحيون النسطوريون والتجار المسلمون الوعاظ الى الشرق الأقصى وذلك قبل أن يصـل أول أوربى الى الصين بمدة ٤٠٠ سنة ـ فان الأوربيين لم يصلوا اليها الا فى العصور الوسطى المتأخرة •

الطب

كان العرب روادا عظاما فى مجال الطب واسهامهم فى تقدمه يفوق الخيال • ويبدو اهتمام الخلفاء الأوائل وخاصة هارون الرشيد وابنه المأمون واضحا فى أوامرهم بنشر ترجمة الأعمال الطبية القديمة التى وضعها الاطباء اليونانيون وفى الوقت نفسه نسمع بوجود المستشفيات حيث كان رجال الطب يجرون ملاحظات على المرضى فى أثناء قيامهم بمعالجتهم • ويقال انه فى عام ٨٥٠ كان هناك أربع وثلاثون مستشفى فى العالم العربى: معظمها يموله الخلفاء . وفى عام ٩٧٨ كان فى مستشفى (بيمارستان) دمشق اربع وعشرون طبيبا مقيما ويقال انه كانت هناك مستشفيات خاصة للنساء وصيدليات خاصة لصرف الدواء •

والى جانب المستشفيات قامت مدارس الطب للتمرن على كل أنواع الامراض وكذلك الجراحة ، وكان الطلبة يشهدون المحاضرات ثم يعكفون على القراءة فى المكتبات الطبية الغنية بمقتنياتها • وكانت هناك امتحانات تعقد واجازات تمنح للذين يسمح لهم بمزاولة مهنة الطب • وكان للأطباء حرمة ومكانة فى قصور الخلفاء وفى المجتمع ؛ وكان فى استطاعة بعضهم أن يبلغوا درجة عالية من الثراء • فيقال مثلا ان جبريل بن يختيشوع (٨٣٠) الطبيب النسطورى جمع ٨٨٫٨٠٠٫٠٠٠ درهم حوالى ٧٫١٠٤٫٠٠٠ دولار حاليا فى عصر الخليفة العباسى المأمون • ولعل الأوربيين قد تعلموا أثناء الحروب الصليبية المزيد عن مستشفيات الشرق • وكذلك فعل الداوية ، والفرسان البيض (فرسان القديس يوحنا) الذين كرسوا انفسهم للخدمة الاستشفائية فى ميدان القتال فى غضون الحروب الصليبية ، فقد كانت معرفتهم بالتمريض قائمة على النموذج العربى •

ونصل الى العصر الذهبى للطب العربى الذى يميزه وجود أبو بكر محمد ابن زكريا الرازى (٨٦٥ ـ ٩٢٥) المعروف عند الغربيين باسم «رازس» وكان فارسيا مسلما مستعربا من الرى قرب طهران ، وكان على علم بالطب اليونانى والفارسى والهندى كما درس الكيمياء والعلوم • وأصبح من أعظم كتاب عصره • أكمل ما لا يقل عن عشرين كتابا يبحث نصفها فى الطب • وواحد من أشهر كتبه بحثه التمهير عن الجديرى والحصبة حيث يعطى تشخيصا دقيقا لكل من المرضين ويحذر من العدوى •

ويبدو أنه أوصى بنوع من التطعيم كعلاج • وقد نقل هذا البحث الى اللاتينية فى زمن مبكر كما نقل الى لغات أخرى بعد اختراع الطباعة ، وكان مؤلفه الأعظم عن الطب العلاجى العام فى عشرين مجلدا ويسمى بالعربية « الحاوى » • وقد ترجمه الى اللاتينية جيرارد من كريمونا وظل مرجعا فى كليات الطب الأوربية حتى القرن السابع عشر • ويشير الرازى الى كتاب الطب اليونانيين والسريانيين والفرس والهنود والعرب بطريقة منتظمة ثم يعرض ملاحظاته وآراءه فقد كان علمه غزيرا ضخما وكانت بصيرته عميقة •

وكان أعظم خليفة للرازى فى ميدان الطب هو الفيلسوف وعالم الطبيعة ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) • وكان مواطنا من بخارى ارتبط ببلاط السلطان نوح بن منصور • وكان ابن سينا قارئا شرها وكاتبا عبقريا منتجا • وتشمل قائمة ما تبقى من أعماله تسعة وثلاثين بندا فى الطب والفلك والهندسة والفلسفة وعلم الكلام وفقه اللغة ، وقد جمع ثمار الدراسة العربية واليونانية العالمية والطبية فى مرجعين هما « كتاب الشفا » و « القانون فى الطب » وكلا الكتابين أثرى فى حجمه وأهميته • فالأول فى ثمانية عشر مجلدا يعتبر موسوعة تشمل كل المعرفة الضرورية لشفاء الروح سواء من ناحية العلوم البحتة أو العلوم الانسانية ، كما يحوى اقتصادا وموسيقى • وقد ترجم جرارد من كرمونا القانون فى الطب

الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، وكان يتألف مما لا يقل عن مليون كلمة • استعرض فيه كل كتب الطب السابقة بما فيها أعمال الرازى • وبحكم أنه موسوعة طبية احتوى عرضا كاملا للتشريح والفسيولوجيا والباتولوجيا والصحة الوقائية وعلم الصيدلة والمستحضرات الطبية المعروفة فى عصره • وكانت تركيباته الدوائية تصل الى ٧٦٠ مستحضرا ؛ وظلت معلوماته فى الصيدلة مرجعا حتى مطلع العلوم التجريبية فى التاريخ الحديث • وقد وصف الالتهاب البلورى والدرن ، وأظهر ان الدرن معد ، وشرح الطريقة التى يمكن بها نقل بعض الأمراض عن طريق تلوث التربة أو الماء •

وقد حذر الأطباء العرب من انتشار الوباء عن طريق الاتصال أو لمس الملابس أو آنية الطعام الملوثة • وشخصوا سرطان المعدة ، ووصفوا العقاقير المضادة لحالات التسمم ، كما استعملوا الكى وعالجوا أمراض العين • ومارسوا التخدير عن طريق الاستنشاق ، ووصفوا الأدوية المنومة عن طريق الفم ، تلك التى تؤدى الى النوم العميق أو الغيبوبة وذلك تمهيدا لاجراء الجراحة • وأجروا أول عملية قيصرية فى العصور الوسطى ، واستعملوا أمعاء الحيوانات فى الخياطات • وقد اشتهر اسم أبو القاسم الزهراوى من قرطبة وكان طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ ـ ٩٦١) وكان يعرف باللاتينية باسم أبو القاسيس ، وكان معجزة عصره فى الجراحة • وكان كتابه المسمى التصريف حجة ومرجعا فى الجراحة • وظل من أروع ما كتب فى هذا المجال لعدة قرون •

وفى طب العيون ربما كان أشهر طبيب عربى فى هذا الفن هو على ابن عيسى الذى يعرف فى اللاتينية باسم جيزوهالى Jesu Haly وغالبا كان مسيحيا من بغداد فى الفترة الأولى من القرن الثانى عشر • وقد استعمل مؤلفه « تذكرة الكحالين » فى أوربا فى العصور الوسطى منذ زمن طويل • وليس هناك أدنى شك فى أن العرب فى مجموعهم أنجبوا أعظم الأطباء فى العالم فى العصور الوسطى سواء فى الشرق أو الغرب •

الفن والعمارة

كان العرب بحكم تقاليدهم الاسلامية الأولى لا يحاولون محو الحضارات القائمة ، بل بالعكس حاولوا أن يصبحوا جزءا منها • وهكذا كان تأثيرهم وتأثرهم المزدوج مع بعض التعديلات التى تناسب معتقدات الدين الجديد ، عاملا فى ابداع طراز من الفن والعمارة أصبح يعرف بالفن الاسلامى والعمارة الاسلامية • فقد أخذوا من الأشكال والطرز والموارد الفنية لمختلف البلاد التى تحت حكمهم ، واستخدموا المهندسين المعماريين والفنيين من سوريا وارمينيا ومصر والدولة البيزنطية وايران والهند • بغض النظر عن أديانهم المختلفة ، استخدموهم فى اتمام ما أصبح حقا لهم بعد النصر أن يفعلوه • وكانت النتيجة انجازا رائعا فى نشأة المدن الرائعة والقصور والقلاع والمساجد والمقابر والجسور وكل أنواع الفن التى انتشرت من اسبانيا الى الهند والغريب أنها كانت تحمل طابع الوحدة والاختلاف فى وقت واحد • وقد ظهرت كلها ابتداء من مدينة بغداد ، ومدينة سامرا وأصل اسمها العربى « سر من رأى » ، والفسطاط . والقصور التى لا تعد والمبانى ابتداء من الحمراء فى الأندلس الى تاج محل فى الهند ومئات المساجد من جميع بقاع الامبراطورية ابتداء من الجامع الأزرق فى قرطبة وجامع سيدى عقبة فى القيروان وجامع تونس العظيم ومساجد ابن طولون والأزهر فى القاهرة وقبة الصخرة فى بيت المقدس والمسجد الأموى فى دمشق ومساجد مكه والمدينة العظيمة ومساجد بغداد وسر من رأى ومشهد وشيراز ونيسابور وغير هذه جميعا ، ظهرت كلها أعمالا فنية غاية فى الجمال ، توحدها الخصائص الاسلامية ومع ذلك تعرض روعة فائقة لأن كل عمل منها يمثل قمه الفن القومى ذى الشخصية المستقلة للبلد الموجود به • وكان الفنانون ومهندسو العمارة المسلمون يميلون

من البداية أن يلاحظوا بعض الأمور ، فكان هناك اعتراض الاسلام على التجسيم أو التصوير النحتى الكامل للانسان أو للحيوان فقد أنكره النبى ومن ناحية كان النحت يعتبر من مظاهر الوثنية القديمة ومن ناحية أخرى كان المؤمنون يعتبرون مثل هذا النحت أمرا مخالفا للدين من حيث أنه يمثل محاولات الانسان لخلق نفسه والتشبه بالله تعالى خالق الكون . على أن هذا الحظر لم يتبعه الخلفاء دائما خاصة فى تزيين قصورهم اذ كانت تنتشر لوحات تمثل مناظر الصيد ، والفتيات فى الحمامات ، وبعض موضوعات أخرى ذات قيمة معمارية رائعة لا تزال ترى فى الأطلال والآثار . وقد تجاهلت الأسرة الفاطمية (٩٠٩ ـ ١١٧١) فى مصر هذا الحظر الا فى فن العمارة الدينى . ومع ذلك وجد فن العمارة والزخرفة الاسلامى مخرجا له فى الأشكال التى لا تمثل بشرا ، فوجد فى الأشكال الهندسية والزهور والنباتات ؛ وكانت النتيجه رائعة وما زالت تسمى بالطراز العربى . وهذا يظهر فى كل الأبنية ابتداء من صب القالب الى المخطوطات الزخرفية التى غالبا ما نجدها محلاة بالخط الكوفى أو غير الكوفى الذى ينسجم تماما مع محتوياتها .

ومن الصعب أن ندخل فى تفصيلات العمارة الاسلامية فى دائرة هذا البحث فهى طويلة ومعقدة . وكل ما يهمنا هنا هو نظرة سريعة الى الملامح التى أثرت بطريقة أو بأخرى فى الفن الغربى والعمارة الغربية . وقد سبق أن أشرنا الى تأثير فن العمارة الحربى الشرقى فى تطور القلاع فى الغرب عندما استعرضنا نتائج الحروب الصليبية وخاصة النظم المركزية والملامح الجديدة لتلك القلاع باستخدام المزاغل ، والمداخل المضللة ، والابراج بل يمكن أن نضيف هنا أن القوس المحددة التى أصبحت من الملامح المميزة للعمارة القوطية فى العصور الوسطى فى أوربا كانت معروفة لرجال العمارة المصريين منذ قرون . فقد كان هو الطراز الذى اتبع فى ـ القبوات ـ فى المساجد القديمة كمسجد ابن طولون الذى بنى فى القاهرة عام ٨٧٦ . ثم تكرر عام ٩٧٠ فى مسجد الأزهر وجامعته

التى بنيت تحت اشراف الخلافة الفاطمية وبمالها ٠ وكانت النوافذ والأبراج والأقواس والبوابات المزركشة لقطع الزجاج ذات اطار وافريز على الطراز العربى ٠ والكنائس المنتشرة فى مدن أوربا فى العصور الوسطى نجد لها مثيلا أقدم فى المساجد والقلاع والمدارس والمستشفيات وفى المآذن والمقابر التى تسبقها فى عمرها الزمنى فى البلاد الاسلامية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وغربه ٠ وقد وجدت روعة الفن الاسلامى منفذا لها فى صب الأحجار قام به أساسا النحاتون المسيحيون فى سوريا وهم الذين كانوا أبناء مهرة لأجيال أنتجت روائع بعلبك فى أيام الرومان ، ودير سانت سيمون والمدن الميتة فى شمال سوريا فى القرون الأولى لعصرنا الحاضر ٠ ومن الصعب أن نحصى كل الأمثلة للتحف المتوافرة فى فن العمارة الاسلامى فى العصور الوسطى ٠ فهناك جدار يعتبر تحفة فنية فى حفر الأحجار وما زال ماثلا فى بقايا قصر بناء الخليفة الأموى الوليد حوالى عام ٧٤٣ فى الصحراء السورية ٠ وكان مشتى ملكيا لم يكتمل ، يحوى بعض روائع فن العمارة الاسلامية ٠ وقد كشف البناء كله عالم آثار ألمانى وجد انه جدير بالنقل قطعة قطعة ليعاد بناؤه فى متحف برلين عام ١٩٠٤ ٠ وكان التصوير على الجدران يمثل أغصان كرم ملتوية ، وفواكه ، وأزهارا ، وطيورا ، وحيوانات على أشكال عقاب ، ومثلثات ورسوم هندسية تكون أثرا رائعا فى فن النحت يمكن مقارنته وتشبيهه بروائع التطريز ٠

وفى مجال الفنون البسيطة أثبتت الحضارة العربية أنها معبر رائع بين تذوق العمل فى الزمن القديم وبين انجازات الصانع فى العصور الوسطى ٠ فقد كانت اسبانيا وصقلية وفلسطين ثلاث نقاط للاتصال بين العمال المهرة فى أوربا والامبراطورية العربية ٠ وفى الواقع أن بلاد الشرقين الأدنى والأوسط وصلت الى مستوى عال من الكمال فى هذه الفنون البسيطة فى بداية التوسع العربى ٠ فقد كان العرب يكتنزون ويغذون الشرق بهذه الفنون على حين كانت أوربا ما زالت متأخرة ٠

ففى العصور الوسطى ازدحمت أسواق القاهرة ودمشق وبغداد وفاضت بأعمال فنية من كل وصف • فقد كانت المجوهرات كالذهب والفضة بنقوشها وزخرفتها ، والفخار ببريقه المعدنى وأحيانا بغيره ، والزجاج الملون ، والفخار الرائع وكل أنواع أصص الزهر والزجاج والبللور والمصنوعات الجلدية والأقمشة المطرزة والمنسوجة من لون واحد أو عدة الوان وغيرها كانت معروضة فى الأسواق الشرقية • وقد أثبتت انها كانت همزة وصل فنية عبروا بها الشرق الى الغرب فى العصور الوسطى المتأخرة •

وأهم من هذا كله كان نقل فن صناعة الورق • فان اختراع الورق الذى حل محل البردى والجلد كان نقطة تحول فى تقدم الحضارة ، ويرجع ظهوره فى الشرق الأوسط الى عام ٧١٢ وهو العام الذى غزا فيه العرب سمرقند ، حيث كان الكتان يضرب ويعجن وينشر على شكل صفحات ورق للكتابة • وأقيم أول مصنع للورق فى بغداد عام ٧٩٤ ، وتلا ذلك مصنع القاهرة قبل عام ٩٠٠ ثم ظهر الورق فى مراكش عام ١١٠٠ ، وانتشر من هناك الى اسبانيا وصقلية • وفى أوربا لم يكن استعمال الورق أمرا عاما حتى عودة الصليبيين من الشرق فى أواخر العصور الوسطى ومعهم الطريقة الفنية الصحيحة لصناعة الورق • أما صناعة الزجاج التى ظهرت فى البندقية فيرجع أصلها الى عقد مؤرخ فى أول يونيو عام ١٢٧٧ بين بوهمند الرابع أمير انطاكية وكونتارينى رئيس مقاطعة البندقية وبموجبه بيع سر صناعة الزجاج المستحضر من سوريا الى البندقية • وبدأ العمل تحت اشراف الفنانين العرب المسلمين بمواد مستوردة من الأراضى المقدسة واحتفظت البندقية باحتكار صناعه الزجاج حتى القرن السابع عشر عندما تسرب سر صناعته الى فرنسا عن طريق الوسيط كولبرت • أما بالرمو فى صقلية ، فبسبب علاقاتها المباشرة مع العرب انتجت الزجاج بل انها استطاعت صنع المرايا منذ القرن الثانى عشر • ولكن يبدو أن صناعة البللور كانت من احتكار قرطبة حيث استطاع ابن فيناس المغربى أن يتقن

العملية فى الفترة الأخيرة من القرن التاسع • وفى الشرق الأوسط كان البلور الصخرى هو المستعمل فقط وكان الخلفاء الفاطميون يملكون ألف أصيص زهر من هذه المادة الثمينة مثل الأبريق المحفوظ فى خزينة سان مارك فى البندقية • وهى تحفة رائعة للفن ترجع الى القرن الثانى عشر • ويمكننا أن نرى آثار البللورات الصخرية الرائعة فى كثير من كاتدرائيات أوربا ، ولابد أن الصليبيين قد أحضروها معهم من رحلاتهم المقدسة فى الشرق • أما صناعة الفخار (سيراميك) فقد كانت مشهورة فى بلاد الفرس ، وسوريا ، ومصر ، وأدخلها المسلمون الشرقيون من صانعى الفخار الى ايطاليا وفرنسا وغالبا ما كان ذلك فى القرن الثانى عشر •

أما صناعة النسيج التى اشتهرت بها الأنوال الشرقية فقد كانت معجزة انبهر لها خيال الغربيين • فقد كان القبط فى مصر ينتجون أفخر أنواع الأنسجة القطنية من التيل والكتان وهى التى عرفت منذ قدوم العرب • واستمر مصدرو النسيج من الأسواق الشرقية الى أوربا منتعشين طوال العصور الوسطى • ولازلنا نرى نماذج من أردية الملوك والأردية الدينية المطرزة بالنمط العربى فى كاتدرائيات العصور الوسطى ، ومرة أخرى نجد أن روجر الثانى ملك صقلية هو الذى نقل الطراز الشرقى فى المصنع فأقام قصرا لصناعة النسيج فى بالرمو ليتولى النسج والتطريز لثياب التشريفة التى كان يهديها لحكام أوربا •

أما الصناعات الجلدية فقد كانت معروفة من قديم الزمان فى الشرق، وظهرت أول ما ظهرت فى الغرب فى القرن الرابع عشر فى مجال محدود • ثم انتشرت فى القرن الخامس عشر • أما صناعة النحاس وتطعيمه بالذهب والفضة ونحوهما والنقر فى الخشب وصناعات فنية أخرى فقد نقلت كذلك من الفنيين الشرقيين • وقد ظل تأثير العرب حتى فى تصوير العصور الوسطى وعصر النهضة حيث كانت الحروف العربية الكوفية تزين حواشى الملابس فى كثير من الرسوم الدينية وليس أدل على ذلك من المنظر الأوسط فى لوحة « تتويج العذراء » •

اللغويات (علم اللغة)

من الممكن أن يكون بناء الكلمات وتبادل التعبيرات بين لغتين دليلا تاريخيا كبيرا لأن الحضارات تختفى بلا شك وراء الكلمة المستعملة فى التعبير ، وقد تركت اللغة العربية من الأثر فى اللغات الغربية فى مجالات شتى ما يشعر بمدى اسهامها فيها • وبرغم أن هناك جهدا ملحوظا لتبين هذا المدى للغة العربية وتعبيراتها فى غيرها من اللغات ، فان الفرصة مازالت قائمة لدراسات أوسع وأبعد فى هذا المجال الهام • وربما كان اكبر عمل ذى قيمة فى اللغات اللاتينية هو القائمة الضخمة التى جمعها ارنولد ستيجر أستاذ جامعة زيورخ فى سويسرا • وما زالت اللغات الأخرى فى حاجة الى مجلدات مثل هذا ، على الرغم من أنه يجدر بنا ان نفترض أن ذلك التاثير الواضح سيقل كلما اتجهنا بعيدا عن العالم العربى • وهناك فى كتاب التراث الاسلامى الذى أعده أرنولد وجيوم(١) قوائم متنوعة من الكلمات ورغم قلتها الا انها تعطينا صورة عن تسلل اللغة العربية الى اللغات الغربية •

ونسوق فى هامش هذه الصفحة أمثلة للكلمات العربية التى وجدت طريقها وتاثيرها فى اللغة الانجليزية وما لهذه الكلمات من طبيعة وتنوع • ويمكن أن نعدد بالتفصيل هذا التأثير خاصة فى الفلك ، وعامة فى مجالات العلوم والموسيقى والملاحة والنسيج والألوان والخضر والفواكه والأزهار والتجارة والأماكن (٢)

---

(١) T. Arnold and A. Guillaume, *Legacy of Isham.* Oxford, 1952.

(٢) ومن أمثلة ذلك :

قطن	ليمون	سكر	شربات	ياسمين	جره
الجبر	الكيمياء	المنـاخ	صفر	قهوة	تفريق

=

ويمكن التعرف على مئات من أسماء الأماكن فى كل من اللغةالاسبانية والبرتغالية فى أصولها العربية ، ولكثرتها لا يمكن احصاؤها فى هـذا النطاق • وهناك كلمات كذلك فى لغة الكلام يمكن التعرف عليها فى اللغة الاسبانية مثل adobi من كلمة طوب وقد استعملت كذلك فى امريكا الآن لتعنى الطوب النيىء وذلك من أيـام المستوطنين الاسبـان الأوائل (*) •

=

موسم صك طحبورة [طبلة] دمشق الجزيرة
تعريف طرف الغار فيثارة امير البحر عنبر دارالصناعة

(*) ومن الأمثلة :

الخص المخزن فلان حتى غزال منارة
مطرح السيد الخياط صحراء الخزانة القاضى
جمل القبـة مسجد

أدب اللغة

. رأينا كيف كان أثر الفكر العربي والثقافة العربية فى تقدم الحضارة الأوربية واضحا ولاسيما فيمجالات الفلسفة وعلم الكلام والعلوم والطب. وهناك أيضا مجال آخر لم نتناوله من قبل وقد ظهر بعد نشوب الحروب الصليبية فقط . فان النتاج الأدبي الممثل فى الأدب الغنائى من أول أغنية رونالد التي تصور مغامرة شارلمان الاسبانية (فى القرن الثامن) الى أغانى شتيف (١١٣٠) وأغنية انطاكية (١١٨٠) قد ظهرت كمجموعة أساطير أدبية أكثر منها تاريخية وبها استعان تاسو في كتابة ملحمته « تحرير بيت المقدس » وبهذه الطريقة نرى كيف أن شارلمان والملك آرثر فى Morte d'Arthur أصبحا من الصليبيين . كذلك نجد أغانى المنشدين (الشعراء الجوالة) فى اسبانيا ، وشعراء الاقاليم فى جنوب فرنسا ، والمنشدين في المانيا يحملون طابعا وتأثيرا عربيا . وفى القصة العاطفية الفرنسية القديمة Floire et Blanchfleur بمواقعها وأماكنها العربية وكذلك قصة Aucassin et Nicolette تشبه الى حد ما قصة أبو القاسم الاسبانية العربية .

وهناك حاجة الى دراسة أخرى تبين الى أى مدى أثر الشعر الغنائى العربي فى الشعر الغنائى الأوربي والعكس ومع ذلك فليس هناك شك فى أنه قد حدث بعض التفاعل في اسبانيا وصقلية وذلك بعيدا عن أثر الصليبيين . والواقع أن هناك طريقين أدبيين من أصل عربي تركا أثرهما فى الأدب الغربي في العصور الوسطى والعصر الحديث . فهناك ألف ليلة وليلة التي يقال أن هناك لمحات منها في قصص « تشوسر » وأجزاء من Decameron التي كتبها Boccacio ، رغم أنه لم يعرف بعد الطريق

الذى وصلت به الى أوربا فى هذه العصور المبكرة • وفى العصور الحديثة نجد أن روبنسون كروزو ورحلات جاليفر تحمل آثارا وفقرات من نفس الكتاب • زد على ذلك أن آثار الحروب الصليبية استمرت من العصور الوسطى حتى العصر الحديث وأنتجت لنا قدرا كثيرا من الشعر والقصص التاريخى نجده فى كتابات ملتون وسير والتر سكوت ، تبعتها طائفةمن القصص التاريخية فى العصر الحديث تختلف قيمتها ، وان عالم العربية الاسبانى العظيم وهو المسيحىأستاذ علمالكلام• ميجيول أسن بالاسيوس Miguel Asin Palacios فى كتابه « الاسلام والكوميدبا الالهية » " La Escatologia Musulmana en la Divina Commedia " قد أثار معركة كلامية عندما ابتكر نظريته الجديدة فى مدى تسلل الفكر العربى وتدخل الأسطورة العربية فى الأدب الغربى • وقد نشر كتابه هذا عام ١٩١٩ ، ثم عدله فى طبعة مختصرة بالانجليزية سنة ١٩٢٦ • وقد وقف بالاسيوس حياته الى حد كبير على دراسة علم اللغة العربية وحضارتها ، وكانت دراسته الواسعة فى مجال الكلام والفلسفة فى العصور الوسطى عونا له على معالجة هذا الموضوع والتحدث بقدرة وثقة عن تأثير ابن رشد فى القديس توماس الاكوينى • ثم أوضح بعد ذلك كيف أن الفيلسوف الكتالونى [من شمال شرق اسبانيا] الكبير رايموندلل يدين بالكثير من كتاباته للزاهد الاسبانى المسلم ابن عربى (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) واستعرض بيقين وثبات آثار أعمال اخوان الصفا (العباسيين) فى فكر أنسلمو دى تورميدا •

ولكن مناقشة بالاسيوس عن الأصل الاسلامى للكوميديا الالهيةالتى الفها دانتى أثارت من الغرابة أكثر مما أثاره أى شىء كتبه قبل ذلك • فدانتى الذى كان فيلسوف النهضة الخالد وشاعرها والذى كان النقاد والمؤرخون يعتبرونه الى ذلك الحين تلميذا لارسطو ولتوماس الاكوينى ، أظهره بالاسيوس واقعا تحت تأثير أكثر بعدا • لقد استنتج بالاسيوس أن صعود دانتى وبياترس الى مملكة السموات ، والى الجنة ، كان له

نظير فى تاريخ الرســالة المحمدية ، وهو عروج النبى محمد مع جبريل الى الســـماء • وقد كتب هذه القصــة بتوسع فى القرن الثالث عشر الزاهد الاسبانى العربى ابن عربى من مورثيه فى جنوب شرق اسبانيا وتوفى قبل ميلاد شاعر فلورنسا العظيم (دانتى) بخمسة وعشرين عاما فقط • ويرجع أصل القصة الى الأيام الأولى من الاسلام وعناصرهاموجودة فى علم الكلام الاسلامى تحت شعارين يدلان على دورتين الأولى الاسراء أو الرحلة الليلية الاعجازية للنبى الى بيت المقدس والثانية المعراج أو صعود النبى محمد من المدينة المقدسة الى عرش الله •

وقد ظلت عبقرية دانتى الخلاقة دون منازع، اذ أن الدارسين والباحثين لم يجدوا فى الأدب المسيحى ما يمكن أن يكون قد تاثر به دانتى فى هذا الموضوع ، ثم جاء كشف بالاسيوس لنظير له فى الأدب العربى فكان كشــفا أدى الى الحاجــة الى مراجعة المصــادر التى يمكن أن يكون قــد استلهمها أمير شعراء النهضة • وقد جاءت نتائج الموازنة بين الكوميديا الالهية والقصة الاسلامية مذهلة • فقد أصبح من الواضح أن دانتى يدين بجزء من بناء قصيدته الخالدة لتلك القصة المحمدية والأدب الاسلامى •

التعليم

لم تكن هذه المنجزات الرائعة التى حققها العرب فى العصور الوسطى فى عالم الدراسه مجرد مصادفة ، فقد دلت على جهد فكرى طويل ، واهتمام حقيقى بالثقافة من جانب الحكام والمحكومين ووجود نظام متطور متقدم للتعليم العام الى جانب خدمات ومصادر مكتبية واسعة • وقد سبق أن ذكرنا دار الحكمة فى بغداد ، ومثيلتها « دار العلم » فى القاهرة• ولكن هاتين كانتا اكاديميتين للدراسة أكثر منهما مدرستين منتظمتين ، وقد نفترض أنهما كانتا تقومان بعمل معاهد الدراسات العليا • والواقع أنهما كانتا فى تلك العصور الوسطى مثل معهد الدراسات العليا الموجود فى جامعة برنستون بأمريكا الآن أو معهد «دمبرتون أوكس الموجود فى فى واشنطن • فقد كان المقصود منهما قبل كل شىء تقدم البحث والدراسة وترقيتهما •

أما أول مركز للتعليم العام بالمعنى الحقيقى للكلمة فيبدو أنه كان الجامعة التى عرفت باسم الجامع الأزهر الذى أنشىء تحت اشراف الفاطميين عام ٩٧٠ أداة ووسيلة لنشر مذهب الشيعة والدفاع عنه وذلك برغم أنه استمر بعد ذلك قلعة قوية لمذهب السنة • فبعد انتهاء عصر الفاطميين فى مصر ١١٧١ سرعان ما حول صلاح الدين وخلفاؤه من الأيوبيين الأزهر الى جامعة سنية تحت وصايتهم الكاملة • وقد قدره السلاطين المتعاقبون وأوقفوا عليه الكثير من الأموال • وكان من أعظم السلاطين الذين أولوا الأزهر اهتماما كبيرا وأمدوه بالأموال السلطان المملوك قايتباى (أحد المماليك البرجية) (١٤٦٨ ــ ١٤٩٥) وقد أضاف اليه مبانى واسعة • وأصبح الأزهر رمزا للقيادة الروحية الاسلامية والدراسة الدينية •

وكان تقديس الأزهر أمرا تقبله المسلمون جميعا ، وكثيرون منهم اتخذوا من فنائه ملجأ لهم · ومازال التاريخ الكامل لهذا المعهد الاسلامي العظيم بوثائقه وتسجيلاته التي نشرت والتي لم تنشر في انتظار التحقيق · ويجب ألا ينسينا الاتجاه النقدي لدراسته القديمة في العصر الحديث الدور الذي قام به بوصفه رائدا للعلوم الاسلامية في العصور الوسطى· فقد مر التاريخ الطويل المتأرجح لاقدم جامعة في العصور الوسطى بفترة هبوط في ظل الحكم التركي · وكانت الفترة من بداية فتح السلطان سليم الأول لمصر في ١٥١٧ حتى بداية الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ من أحلك فترات التاريخ المصري أعقبتها يقظة غير ناضجة نتجت عن أول اتصال بأوربا في القرن التاسع عشر وكانت مرتبطة بالأزهر وأساتذته من العلماء ·

ومع ذلك فعلى مدى العصور الوسطى ظل الأزهر مرتعا لآلاف من الطلاب من كل بقاع العالم الاسلامي · وكان الطلبة المقيمون يعيشون ويدرسون في جماعات تحت نظام « الرواق » الذي يشبه الى حد كبير تقسيم الطلبة الى أسر في جامعة أوربا في العصور الوسطى · وكان الطلبة الغرباء أيضا يسمح لهم بالالتحاق ، وكانوا يعيشون حول المسجد · ومع أن جامعة باريس كانت تضم أربع أسر ، فان الأزهر كان يتكون من ستة وعشرين رواقا كل منها يرتبط بوحدة جغرافية ، وكل منها يحمل ممرا بين عدد معـين من الأعمدة وقـد بلغت ٣٧٥ عمودا في الجامع · وكان الأساتذة والتلاميذ يتلقون العون من التبرعات والاوقاف الخيرية · وأصبح كل أستاذ معروفا بعمود معين كان يجلس اليه ويحيط به تلاميذه في دائرة حيث يدرسون المعرفة المنقولة (العلوم النقلية) وهي علم الكلام ، والشريعة ، والحديث ، والتصوف ، أو العلوم العقلية وهي علم اللغة والعروض ، والبلاغة والفلك · وكانت هنـاك دراسات تتضمن الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، والرياضيات وفروعا أخرى من العلوم الانسانية ، وبوجه عام كانت في الأزهر طريقة لنقل حكمة الأجيال

السابقة أكثر منها محاولة للبحث في مجالات جديدة ٠ وكانت الدراسة في الأزهر حماسية وكانت المحاضرة تستمر ساعات ويتوقف مداها على مزاج الأستاذ الذى كان ينتقل بحرية من موضوع الى آخر دون ضبط ٠ وكانت ملكة الحفظ والاعتماد على الذاكرة من الأهمية بمكان ، فيبدأ بحفظ القرآن عن ظهر قلب وهذا النظام الذى أنتج كثيرا من الأسماء الشهيرة ، اضمحل واستهلك وجمد بمرور الزمن وجمد معه أساس الثقافة الاسلامية ككل (*) ٠

وقد تكاثرت المدارس في العالم الاسلامى بمرور الوقت ٠ ومن الصعب أن نحصل على احصاء دقيق أو شبه دقيق للأسس العلمية لهذه المدارس ٠ ونحن نجد اشارات في المصادر المعاصرة الى عدد كبير من المعاهد ذات الانماط المختلفة ، لا فى المدن الكبيرة بل في قرى مغمورة ٠ ونستطيع أن نستنتج من الرحالة العرب فى العصور الوسطى وكذلك من الكتاب أمثال ابن جبير في القرن الثانى عشر ، وابن بطوطة فيالقرن الرابع عشر ، والمقريزى فى القرن الخامس عشر – نستنتج انه كانت هناك على الأقل أربع وسبعون كلية في القاهرة ، وثلاث وسبعون فى دمشق ، وواحدة وأربعون في القدس ، وأربعون في بغداد ، وأربع عشرة في حلب ، وثلاث عشرة في طرابلس في سوريا ، وتسع في الموصل ، وعدد كبير جدا في الاسكندرية ٠ ولم تكن هذه وحدها ، فقد كانت اسبانيا العربية ملأى بالمدارس والمدرسين ٠ وكانت الأمية تكاد تختفى في الخلافة الغربية (فى اسبانيا) وكذلك في الخلافة الشرقية التي كانت لها ظروفها الخاصة ٠

وبمرور الوقت انتشرت ظاهرة بين القادة وذوى الثراء في معظمالبلاد التى تخضع للعرب لانشاء مدارس ومساجد وكانت تحمل (هذه المدارس

(*) يلاحظ أن هناك تطور حديث في جامعه الأزهر وهو تحويلها الى جامعة بها كليات الطب والعلوم ٠٠٠ الى جانب الدراسا التقليدية فى الدين واللغة ٠

أو المساجد) أسماء مؤسسيها ، وكان من القواعد المألوفة انشاء المدرسة داخل المسجد • وفي الاسلام كان للجامع استعمال أوسع من استعمال الكنيسة في العالم المسيحي • فقد كان الجامع مكان عبادة ومركزا سياسيا واجتماعيا ومجلسا للدولة والادارة المدنية في باكورة الامبراطورية الاسلامية ، ودار قضاء ، وأكثر من ذلك معهد دراسة • وفي بعض الحالات كانت المدرسة ملحقة بضريح أو مقام أو تلحق بمكان للعبادة (رباط أو خانقاه) ويعطينا الرحالة الفارسي ناصيري خسرو صورة هامة لجامع عمرو بن العاص في بداية عهده ، فيقول ان جامع عمرو بن العاص في القاهرة أو الفسطاط كان يؤمه يوميا ٥٠٠٠ شخص من بينهم نسبة كبيرة من الطلبة والأساتذة الذين كانوا يعقدون فصولا بين جدران المسجد •

أما التعليم العالي فقد كان متمركزا في القاهرة وبغداد • فقد كان لجامعة الأزهر منافستان في بغداد هما المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية • وقد أنشأ «نظام الملك» الوزير المشهور للسلطان السلجوقي الب ارسلان ، والصديق الصدوق للشاعر وعالم الرياضيات الشهير عمر الخيام ، المدرسة النظامية في عام ١٠٥٠ • حاضر الغزالي الفيلسوف العربي الشهير في المدرسة النظامية من ١٠٩١ الى ١٠٩٥ • وكان الوزير المثقف يؤمن ايمانا عميقا بالتعليم ، وأنشأ كليات أخرى أصغر تحمل اسم النظامية في نيسابور ، وبالق ، وحيرات ، واصفهان ، ومرو ، والبصرة ، والموصل • وقد قدر ما كان ينفق على كل هذه المعاهد سنويا بما يساوي مليونا ونصف مليون دولار • فبخلاف المنح والمرتبات الكافية التي كانت تؤدى للأساتذة كان الوزير يعطي للتلاميذ مكافآت خاصة «معاليم» واستمرت النظامية تعمل في بغداد حتى الفترة الأخيرة للقرن الرابع عشر عندما اندمجت مع المستنصرية بعد الغزو الثاني للمغول للمدينة بغداد على يد تيمورلنك في عام ١٣٩٣ •

أما المستنصرية فقد أنشأها الخليفة العباسى المستنصر عام ١٢٣٤ لتكون حلقة دراسة لعلم الكلام ومدرسة لدراسة الشريعة الاسلامية التى وضعها الأئمة الأربعة للسنة ، وكان لكل قسم أستاذ على رأس خمسة وسبعين دارسا ٠

وكما كان الحال فى المدرسة النظامية كان المدرس والتلميذ يمنح مرتبا مناسبا وما يكفيه طول يومه من الطعام وأدوات الكتابة ٠ فكانت كأنها مدرسة داخلية ، فيها مخادع للنوم ، ومطابخ ، وخزان لتبريد مياه الشرب ، وحمام ، ومستشفى بها طبيب لمعالجة المرضى ورعايتهم ٠ وكان هناك ساعة من نوع الساعات المائية قائمة فى القاعة الكبيرة لتعلن أوقات الصلاة ٠ وكان التلاميذ الذين يرتادون المكتبة للقراءة ليلا ويستذكرون ليلا يمدون بالزيوت والمصابيح للأضاءة ٠ واستمرت المدرسة بعد اكتساح هولاكو المغولى عندما احتل بغداد فى عام ١٢٥٨ ، وكذلك بعد عام ١٣٩٣ فى أيام تيمور لنك حتى اتحدت مع النظامية ٠ وكانت كلتا المدرستين فى مبان جميلة رائعة ؛ وخصص الخليفة المستنصر حديقة لها منظرة واسعة تطل على الكلية ، وكانت هذه الحديقة لاستعمال الخليفة الذى كان قد ألف أن يقضى بعض وقته جالسا الى نافذة محجبة ليرقب نشاط الطلبة ويسمع المحاضرات دون أن يلحظ وجوده ٠

وكان ملحقا بكل مدرسة أو معهد مكتبة غنية بالمخطوطات ٠ ذلك أن الدارسين كانوا يقضون وقتا طويلا ينسخون الكتب التى كانت تجد طريقها الى مكتبات المدارس والجوامع ، وقد ساعد وصول الورق من الصين الى الشرق الأوسط فى القرن الثامن على النمو السريع وانتشار المكتبات فى كل مدينة اسلامية فى العالم تقريبا ٠ وأقيمت مصانع الورق فى سمرقند ، وبغداد ، وطرابلس فى سوريا ؛ وعدد كبير من المراكز فى مصر والأندلس لتوفى بحاجة الكتاب المتزايدة الى الورق وقد امتلأت مكتبات

قصور الخلفاء وكذلك معاهد التعليم الشهيرة بكميات هائلة من المخطوطات. وكان لمعظم المكتبات الكبيرة موظفوها لتجليد النسخ الخطية واصلاحها .

ومن الصعب أن نعطى تقييما دقيقا لمحتويات أى من مكتبات المراجع، الا أنها كانت أكثر من أن يكون لها قوائم . ونحن لا نجد عددا مكتوبا الا أحيانا ، فقد كانت مكتبة مرصد المهراجا تحتوى على ٤٠٠ر٠٠٠ مخطوط ، وعندما أنشئت المدرسة المستنصرية أفتتح الخليفة مكتبة للمراجع بعطاء ابتدائى من حمولة ١٦٠ جملا من الكتب ويقال ان صلاح الدين أتلف مليونين من كتب الشيعة أو من التى تحمل أثرا للخلفاء الفاطميين . وقد يبدو ذلك مبالغا فيه . وفى تقدير آخر أكثر تحفظا يقال انه أتلف ١٢٠ر٠٠٠ كتاب وقد لا يكون هذا مقبولا . وحتى فى بعض القرى الصغيرة جدا نسمع عن وجود مكتبات كبيرة جدا . فهناك مدينة تكاد تكون مجهولة وهى « الرى » فى أعالى ايران ولا تبعد كثيرا عن بحر الخزر [بحر قزوين] وكان لها مكتبة تحتوى على حمولة ٤٠٠ جمل من المخطوطات وبها قائمة فى عشرة مجلدات .

وعند غزو بغداد على يد هولاكو خان عام ١٢٥٨ ، ألقى المغول الى نهر دجلة بكميات هائلة لا تحصى من المخطوطات حتى أنها أقامت جسرا بعرض النهر كالمارة والخيالة (كما قال المعاصرون) يعبرون فوقها النهر من شاطىء الى آخر وقد تغير لون ماء النهر من تحلل مواد المخطوطات فى مجراه ، ومع ذلك وبرغم كل هذا التدمير واذا سمحنا ببعض المبالغة فان الكثير الذى بقى وأنقذ يحمل دليل حضارة براقة استطعنا أن نفهمها فهما جزئيا .

خاتمـــة

وهكذا تجد أن قصة تاريخ العلاقات بين الشرق الأوسط والغرب كانت طويلة ومتقلبة متغيرة . فكثير من فصولها كان مملوءا بالعنف ، وبعضها هادىء سلمى تضمن اسهاما فى مسيرة البشر نحو التقدم . انه صراع هائل بدأ فى التاريخ القديم واستمر بحماس ونشاط ازداد عبر العصور الوسطى والعصر الحديث . برغم أن مركز الأحداث قد انتقل عبر القرون وأسباب الصراع قد تغيرت فى مظهرها الخارجى فان الأسس الأولى تظهر علامات واضحة للأستمرار .

فعندما ننظـر الى الصراع العنصرى والثقافى بين اليونان القديمـة والفرس ، وقيادة الامبراطورية الرومانية للشرق والغرب ، ونهضة الخلافة الاسـلامية وامتدادها وتوسعها حول البحر الأبيض المتوسط ، واندفاع الصليبيين واختراقهم للشرق الاسـلامى ، ثم مناهضـة الصـليبية ، والسلطنة التركية بنفوذها وسيطرتها التى عملت على الوحدة الاسلامية ، تجد أن كل هذه الفصـول تؤدى بنا الى عتبـة التاريخ الحديث . فاذا ما وصلنا الى القرن التاسع عشر فاننا نفتح صفحة جديدة فى هذه القصة التى لا تنتهى وندخل فترة جديدة لها معانيها الجديدة للمناطق الحاسمة فى الشرقين الأدنى والأوسط .

وان سيطرة العثمانيين على شرق أوربا وغرب آسيا ، ووقوع مصر فى يد المماليك فى نهاية العصور الوسطى وفجر التاريخ الحديث يعلن بدء فترة حالكة لمعظم الولايات المحكومة . فان الحملة التى قام بها الأتراك

ضد الصليبيين كانت أول دليل على الوقوف ضد المسيحيين الأوربيين ، وكان مقدرا لها أن تبدأ حربا ضارية لغزو الأراضى الأسلامية في القرن السادس عشر ، ووقعت الأمة العربية تحت نير العمانيين • وبدأت بغداد والقاهرة اللتان كانتا مهدا للحضارة السابقة ـ بدأتا تفقدان بهجتهما القديمة وتدهورتا وعلاهما صدأ كامل ـ وأدى تحويل تجارة الشرق من أسواق القاهرة وسوريا الى فقر هذه البلاد الثرية ، وانتشر الجهل والمرض والفقر وسدت طرق التقدم لسوء الحكم ولعدم مراعاة الحقوق الانسانية • وظل سكان الشرق الأوسط فى غفلة عن مجدهم القديم وانحدروا الى غيبوبة سياسية •

ثم ظهرت فجأة حركة يقظة غير كاملة • وكان ذلك بدخول الحملة الفرنسية القصيرة العمر عام ١٧٩٨ الى مصر • فقد حدث أن وجد الناس المعزولون أنفسهم فى مواجهة نفوذ جديد من الغرب المتحضر • وأدركت أوربا الفرص الرائعة التى يمكن أن يقدمها لها الشرق الأوسط • فقد تصور نابليون بونابرت أنه باقامة حكم فرنسى فى مصر تتوافر له امكانية انتزاع الهند وتجارة الشرق من يدى الانجليز • وفى ذلك الوقت كانت تركيا تمثل رجلا يحتضر ، وكانت القوى الأوربية مشغولة بالتفكير فى كيفية تقسيم الامبراطورية التركية (العثمانية) ، وفى غمرة انشغالهم ومنازعاتهم وخاصة فى أثناء النزاع الحربى بين انجلترا وفرنسا شدا وجذبا ـ نشهد مولد الاستعمار الحديث والامبريالية وما له من آثار بعيدة فى علاقات الشرق والغرب • وهذا يفتح لنا فصلا لم ينته بعد فى التاريخ المعاصر ، ومع أن هذا الموضوع لا يدخل فى نطاق كتابنا هذا فجدير بنا الا نغفل اعطاء القارىء مجملا للظواهر الواضحة التى تفسر ان الحركات القديمة انتقلت وتحولت الى أخرى جديدة فى عصرنا •

فالاستعمار وانشاء المستعمرات والامبراطوريات كان نتيجة منطقية ، برغم انها بعيدة للحروب الصليبية تماما كما كانت الحركات القومية

نتيجة طبيعيـة للغزو الغربى • وحقـا ان الموازنة فهى التاريخ لا يمكن ان تكون كاملة في تناصيلها الدقيقة الا أنها تكفى دليلا على القول بأنه غالبا ما نجد أن العنف يولد العنف • فكما كانت الحرب الصليبية من غرب أوربا سببا أدى الى الاسراع بحركة ضدها تقاومها من الشرق المسلم ، فقد أدى الاسـتعمار الحديث الى نشأة القوميات في المناطق نفسـها • وهذا يبدو واضحا فى مصر فى ثوراتها فى أعوام ١٨٨٢ ، ١٩١٩ ، ١٩٥٢ •

وفى خارج مصر ، قامت الثورة العربيه عام ١٩١٦ لمسـاندة الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى أملا فى الحصول على الاستقلال من الأتراك ، ولكنها أدت الى مهزلة نظام الانتداب الذى حاولت به انجلترا وفرنسا أن تعيدا الحياة بطريقة جديدة الى مبدأ الاستعمار الذى كان يحتضر • وهكذا نجد مرة أخرى مساحات شاسعة من الشرق الأوسط العربى تنقسم الى مناطق نفوذ بين قوتين استعماريتين تحت شعار عصبة الأمم • ولكن هذا النظام ـ لأنه لم يكن طبيعيا ـ كان مقدرا له أن ينتهى ويزول من الطريق • فقد أخفق أمام نشأة سلسلة من الدول الجديدة • وبين هذا الخضم من الأحداث ، ظهرت دولة اسرائيل فى عام ١٩٤٨ وحرب السويس ١٩٥٦ ، ويجدر بنا أن ننظر الى هذه الأحداث على ضوء العلاقات بين الشرق الأوسط الذى يبحث عن كرامته وتحقيق ذاته وبين الغرب حيث كانت انجلترا وفرنسا تبحثان عن وسائل وطرق لوقف الصحوة المتواصلة للعملاق المهدد •

وتأخذ المشاكل المعقدة لعلاقات الشرق والغرب مظهرا جديدا فى المدى الذى عشناه على ظهر الأرض ، يعكس هذا المظهر صراعا عن مذهبين من مذاهب الفكر والسياسة هما الشيوعية ، والديمقراطية ، ويشير اليهما بعض المشاهدين فى المناطق المتخلفة على أنهما استعمار جديد (امبريالية) • ونبدأ بعصر التحالفات على نطاق واسع ، فبينما نجد المعسكر الشيوعى خلف الستار الحديدى يبتلع كل شرق أوربا وأوربا الوسطى الشرقية ؛

ويضاف الى ذلك القارة الصينية ، تحاول القوى الديمقراطية تحت زعامة الولايات المتحدة أن تحبط المناورات الروسية وذلك باقامة أحلاف عسكرية مثل حلف شمال الأطلنطى ، وحلف جنوب شرقى آسيا ؛ وبين هذه الكتل الضخمة تميل الأمم غير المنحازة الى اتجاه جديد برغم أن النظرية الخاصة به ليست جديدة وهى نظرية الحياد الايجابى • ورواد هذه الحركة مصر ، والهند ، ويوجوسلافيا • وفى الوقت نفسه بدأت افريقيا السوداء ستيقظ ببطء كما يستيقظ العملاق ، ونجد أن أهالى افريقيا تنقسم عواطفهم بين هذه القوى الثلاث الموجودة ، ولعلهم يكونون عنصرا جديدا قويا فى تشكيل العلاقات الدولية بمرور الوقت •

وكذلك نشهد مولد قوى جديدة أخرى وأن هذه القوى الجديدة تحاول أن تتحالف مع بعضها البعض لتكون أقاليم بأسرها . ومع أن بعض هذه الاتجاهات الى التجمع غير كاملة فاننا نجدها ملحوظة فى المجال الاقتصادى وكذلك السياسى بين المجموعات المتجاورة من الدول • فهناك منظمة الدول الأمريكية وهى قائمة حتى الآن • ويجدر بنا دراسة وحدة مصر وسوريا فى جمهورية واحدة وهى الجمهورية العربية المتحدة وان كانت الصفة الرسمية قد استمرت فترة قصيرة • ويجب أن تكون هذه الدراسة فى اطار الكتلة العربية فى الجامعة العربية التى تطمح الى وحدة العرب السياسية وهى لم تتم حتى الآن • وفى أوربا نجد مجموعة من الدول الغربية التى اضطرت الى أن تتخذ خطوات معينة تجاه تكوين كتلة أوربية محلية لمواجهة التفوق المذهل لحليفتها أمريكا ، وفى الوقت نفسه لمواجهة الخصم المخيف لها وهو « روسيا » • وفكرة مجموعة أوربية قد تضم بريطانيا بدأت تاخذ شكلها تدريجيا ، والمقصود منها اقامة اقتصاد صالح للدول الأعضاء دون المساس بسيادتها الفردية • وقد أدلى بعض الكتاب بأفكار جريئة فهم يرون أن يمتد التحالف الاقتصادى الى تحالف عسكرى ، وآخر سياسى • بل ان المتفائلين يحلمون بعالم فاضل أى (يوتوبيا) تتحد

فيه السيادات الغربية فى تحالف فيدرالى « الولايات المتحدة الأوربية » له برلمان وتنظيم ادارى لكن هذه الخطوة الثورية لم تتم بعد ٠

وقد قدم سير أوليفر فرانكس السفير البريطانى السابق لدى الولايات المتحدةالأمريكية تقريرا عميقا يتضمن موضوعا جديدا جريئا هو أن المشكلة بين الشرق والغرب بدأت تتوارى ويحل محلها مشكلة الشمال والجنوب ٠ فان المواجهة الحاسمة فى شئون العالم كما يراها هى ازدياد العلاقة بين الدول الصناعية الغنية فى الشمال والدول النامية فى الجنوب ٠ وفى رأيه أن المشكلة بين الشمال والجنوب ستكون عاملا حاسما فى مصير علاقات الشرق بالغرب ٠ والأمل فى الاستقرار وحل مشاكل العالم يتوقف على استعداد دول أوربا وشمال أمريكا للتعاون لرفع المستوى الاقتصادى والديمقراطى للحياة بين الدول الناهضة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ٠

وفى غضون هذا كله نشهد أبعادا جديدة لها قوة هائلة فى هيئة الأمم المتحدة التى تؤكد شخصيتها التاريخية لحقوق الانسان : الاحترام ، والعدل ، والالتزام بميثاق القانون الدولى والحفاظ الجماعى على السلم والأمن ٠ وبذلك تعبر عن الآمال الحاضرة لسلامة الغد ، والشعور بوحدة العالم ان لم يكن باتحاده ٠ ففى عالم الغد يجب أن يتحد الماضى والحاضر ؛ وليس بعيدا عن الاحتمال أن تنمحى الصفات المميزة لكل قرن ٠ فان حيوية المسرحيات الأغريقية الكلاسيكية لم تتلاش بسبب اختلاف الاخراج على المسرح الحديث عنه فى القديم ٠ وقياسا على هذا ، بالرغم من اتساع المسرح وازدياد عدد الشخصيات فان القوى الصليبية والقوى التى قامت لتناهض الصليبية ما زالت تعيش ولو أنها تحت قناع آخر ٠

واذا استعرضنا القوى الآتية : الفرس ، واليونان ، وجنود الرومان ، وخصوم الاسلام ، وفرسان الفرنجة ، والغزاة العثمانيين ، وجنود بونابارت ، وجنود حربين عالميتين ، نجد أنها مرت متعاقبة عبر

أراضى البحر الأبيض المتوسط • وخضعت بالتعاقب أيضا لضربات الخصوم الذين جاءوا بعدها • واليوم ، اتسع الميدان لنجد الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية على رأس القوى المتنازعة وكل منهما تمتلك الأسلحة والمذاهب السياسية • ومع ذلك فان الشرق الذى عرفناه أيام الحروب الصليبية • وأيام الحروب الصليبية المضادة ما زال باقيا عاملا هاما فى اقرار القوى العالمية •

« ملحق »

مصادر دانتي والقصة الإسلامية

مرت مدة طويلة كان النقاد يعتبرون دانتي فيلسوف النهضة وشاعرها الخالد من تلاميذ ارسطو وتوماس • وفي عام ١٩١٩ نشر أحد اللاهوتيين المسيحيين الأسبان الذين يجيدون اللغة العربية وهو ميجيول اسن بالاسيوس « الاسلام والكوميديا الالهية » وقد تشكك بالاسيوس في أن يكون لدانتي أصالة في تاليف الكوميديا واستعرض الشبه الواضح بين الكوميديا الالهية والقصة الاسلامية ، والاتفاق الواضح بينهما في الخطة وفي تفاصيل كثيرة • فقد اتضح أن الحركة ، والغرض الرمزى ، والفكرة عن الهندسة الفلكية للسماء وطبقات الجو ، والفكرة الأخلاقية ، وكثيرا من الاستنباطات الأدبية ـ ظهر أنها كلها متشابهة تماما وتكاد تكون واحدة في كل من دانتي والقصة الاسلامية •

وقد رويت القصة مرتين في اللغة العربية **أولا** : عندما رواها الزاهد الضرير في القرنين التاسع والعاشر ، أى أبو العلاء المعرى (٩٧٣ـ١٠٥٧) وكان يسمى فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة • ففى رسالته « رسالة الغفران » يستعرض بمهارة وفصاحة الرحلة السماوية للنبى محمد وأكد عناصر رحمة الله الواسعة في مقابلة ما له من سخط وجبروت • **وثانيا** : بعد ذلك بنحو قرنين أعيدت رواية القصة بروح تختلف كل الاختلاف وبطريقة أطول من طريقة أبى العلاء ، قام بذلك الاشراقى الصوفى « ابن عربى » الذى تعزى فلسفته خطأ الى الأميدولية وتلميذ الأفلاطونية الحديثة من مدرسة ابن مسرة (٨٨٣ ـ ٩٣١) بقرطبة ؛ وقد أتم هذا العمل في كتابين نشر أحدهما وهو « كتاب الفتوحات المكية » أما الآخر فلم ينشر ولا زال مخطوطا وهو «كتاب الاسرا الى المقام الأسرى» •

ويمكن توضيح التشابه بين روايتى ابن عربى ودانتى ببعض الأمثلة المحسوسة . ففى كل من الكتابين يقص النبى محمد ، ودانتى تجربتهما فى العالم الآخر . ويبدأ كلاهما رحلته ليلا . وفى القصة الاسـلامية يعترض أسد وذئب الطريق الى الجحيم ، وفى شعر دانتى يعترض الطريق فهد وأسد ذئبة . ونجد خايطور رئيس الجن الذى يخاطب النبى فى قصة ابن عربى على حين نجد فرجل فى شعر دانتى زعيم الكلاسيكيين هو الذى يصاحب دانتى . وفى كل من الروايتين نجد التحذير واحد من الاقتراب من الجحيم : أصوات مختلفة ، وانفجار لهب . كما نلاحظ أن بناء الجحيم فى كلتا الروايتين واحد ، فهو تنور كبير يتكون من عدة طبقات مختلفة على حسب الطبقات المختلفة من الخاطئين .

وبعد عبر جيل التطهير نجد الجنة الاسـلامية والمسيحية واحدة . فتترك بياتريس دانتى كما يترك جبرائيل محمد عند اقترابهما من الحضرة الالهية . والملك العملاق فى الرواية الاسـلامية يمثله ديك ويحل محله نسر سماوى فى رواية دانتى . ويرى دانتى الكوكب زحل وله سلم ذهبى يصل به آخر السماوات . ويصعد محمد سلما من بيت المقدس الى أعلى السموات . والصعود الى الله فى كلتا الروايتين واحد ، فكلاهما يصف الرؤيا الالهية كأنها بؤرة نور قوى تحيط بها تسع دوائر متمركزة من الأرواح الملائكية تزيدها اشـعاعا وفى الوسـط « الشـاروبيم » ونجد الاستجابة عند كلا الحاجين [محمد ودانتى] للرؤيا العظيمة واحدة . فكلاهما انبهر بضوء خاطف للبصر حتى انهما يعتقدان أن بصريهما قد ضاعا وأنهما قد أصـابهما العمى . وتدريجيا يسـترجعان قوتيهما على الأبصار ويستطيعان أن ينظرا الى المنظر الابداعى الاعجازى ثم يفقدان الوعى فى نشوة .

والسـؤال الآن الذى يحتاج الى اجابة هو كيف نربط معا هاتين الطريقتين المختلفتين للتفكير ، احداهما شرقية باللغة العربية والأخرى غربية ، بلغة أهل فلورنسا (الايطالية) . والمشكلة ليست بالصعوبة

التى تبدو بها ، فالفضل فى حلها يرجع الى بلاسيوس فقد بحث فى المصادر الأسبانية العربية فى العصور الوسطى وكذلك فى اللاهوت المسيحى ٠ وهنـاك وثيقـة واحـدة من الأدب فى القرن التاسع تستحق البحث والدراسة ٠ فالنسخة اللاتينية لكتاب « التاريخ العربى » التى كتبها كبير الأساقفة رودريجو جيمنيه دى رادا من طليطلة Rodrigo Jiménez de Rada of Toledo تحتوى على دراسة لحياة محمد وفيها يضم المؤلف الترجمة الحرفية لقصة « المعراج » من مصادر اسـلامية موثوق بها وهى « الحديث » ٠ وهذه الرواية تكاد تكون مطابقة تماما لما ورد فى العمل المشهور القديم للبخارى المحدث المسـلم العظيم ٠ وقد سجلت هذه القصة فى « تاريخ العرب » وانتقلت الى تاريخ أسبانيا وجمعها ما بين ١٢٦٠ ، ١٢٦٨ الملك الحكيم الفونسو العاشر باضافات قليلة من مصادر أصلية أخرى ٠

وبعـد ذلك ـ وفى القرن نفسـه ـ نجـد عملا آخـر تحت اسـم Impunacion de la seta de Mohomah كتبه القديس بيتر باسـكال أسقف جين Jaen وهو أحد رهبان الرحمة أثناء فترة أسره فى غرناطة بين عام ١٢٩٧ وعام ١٣٠٠ وانتهى أمره بالقتل على أيدى المغاربة العرب ٠ وتدل حياته وأعماله على انه كان رجلا ذا مكانة ودراسة عميقة ٠ وكان مدرسا لولى العهد فى أراجون ٠ وعندما زار روما استحوذ على اعجاب البابا نيقولا الرابع كعالم من علماء اللاهوت ٠ وألقى محاضرات فى جامعة باريس وهو فى طريق عودته الى بلاده ٠ وفى أعماله نجده يقتبس من القرآن والحديث فيما يتعلق بفلسفة الحشر ٠ وترجـع فيـه مقتطفـاته الى اشارته الخاصة بكتاب اسمه « المريجى » وهو بلا شك « المعراج » أى صعود محمد الى السماء ٠ ونجده يستخدم فصلا مسهبا من الكتاب نجد فيه تشـابها كبيرا لمفهوم دانتى ٠ فنجده يتحدث لا عن السـماء والجحيم ، بل عن الصراط وهو خيط رفيع أو ممر مستقيم يقوم جسرا بين الجنـة والنار وتمر عليـه الأرواح التى يجب أن تحفظ توازنها أثناء السير ٠ وهذا هو المرادف الاسـلامى للمطهر عند دانتى ٠ وبنهاية القرن الثالث عشر كانت القصة كلها قد عرفت واشتهرت فى الدوائر الأدبية الأسبانية ومن المحتمل كذلك فى الغرب كله ، ومن بين ذلك ايطاليا ٠

ومع هذا العرض التاريخي الذى يرجع الى الأصول ، فان الدارس المحقق يمكنه أن يحكم على الموضوع كله على أنه حدث مهم الا اذا استطاع أن يحققه بأدلة مادية أخرى . وهذا ما فعله أسن بالاسيوس بمهارة . فهو يذكر أن دانتى تلقى مرانته الأدبية من علامة فى فلورنسا صاحب دائرة معارف اسمه برونتو لاتينى وصل الى أعلى المراتب فى توجيه الرأى العام . وعندما كان دانتى شاعرا حديثا ، احتضنه برونتو وأولاه رعايته . وكان دانتى يستمع الى نصائحه . وقد ظهرت الروابط الروحية التى ربطت التلميذ بأستاذه واضحة فى مناقشاتهما عندما تلاقيا بعد ذلك فى الجحيم . ويتفق المعلقون على « الكوميديا الالهية » بل انهم يقررون أن القصيدة الرمزية "Tesoretto" التى كتبها برونتو تعتبر احدى مصادر الالهام بالنسبة لدانتى . ولكن ما يجدر أن نأخذه فى الاعتبار هو أن برونتو نفســه كان ذواقة للحضــارة العربية عندما كان سفيرا لفلورنســا فى بلاط الفونسو الحكيم عام ١٢٦٠ . كما زار طليطلة واشبيليه حيث كانت مجالا واسعا لترجمه الأصول العربية . وكانت أهم أعماله "Tesoretto", "Tesoro" وقد كتبهما بعد عودته من أسبانيا مباشرة ، وتظهر لنا تأثره القوى بالأدب العربى . وقد نقل برونتو الى تلميذه دانتى احترامه وتقديره للحضارة العربية السامية وهذا أمر واضح ، واستنتاج فى محله . فان كثيرا من كلام دانتى فى « الكوميديا الالهية » يؤيد هذا الغرض وسيكون من الصعب معارضة هذه النظرية وخاصة اذا ما لحظنا التشابه فى النصوص مع « الاسراء » لابن عربى .

وقد جعل اسس بلاسيوس الأمر واضــحا ، وهو ان أبا النهضــة وشاعرها يدين بجزء كبير من بناء قصيدته الخالدة للتصوف الاســلامى وقصصه وكتاباته .

الأسماء الإفرنجية ومرادفاتها

(أ)

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
٢٢	أفتكين	Aftekin
١٥٧	أفـــا	'Offa
١٢٧	أفديمو	Avdimou
٨٥	افينون	Avignon
١٤	اكزرسيس	Xerxes
٢٦	أكوابنديت	Aquapendente
٥٦	أكويتين	Aquitaine
٧٨	الألبيجنسية	Albigensian
١٧١	الأرمن	Armenians
١٤٦	الأسر البابلونى	The Babylonish Captivity
١٥٤	الأغالبة	Aghlabids
١٧١	الأكراد	Kurds
١٧١	الألبانيون	Albanians
١٢٩	الايا	Alaya
٨٥	الأرخبيل	Archipelago
١٦	الأفار	Avars
٧٢	الأيونيون	Ionian
١٦٣	الب (نهر الب)	Elbe
١٠٥	الباب العـــالى	Suprme Porte
١٤	البارتيه	Parthian
١٣٠	البانى (بافوس)	Paphos
٢٠٣	البرتوس ماجنوس	Albertus Magnus
١٦	البسفور	Bosphorus
٢٢٠	البطروجى	Alpetragius
١٠٤	البلاط البابوى	'Curia Romana
٧٢	البلوبونيسيس	Peloponnesus
٥٤	البندكتيون	'Cistercian (Benedictines)
٧٠	البندقية (فينيسيا)	Venice
٦٩	الأبنين	Appenines
١٧١	التركمان	Turcomans
٧٦	الجليل	Galilee
٧	الحج الجماعى	Passagium Generale
٧٨	الحشاشون	Assassins
٩٢	الحفصيون	Hafsids

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٩٥	الحيرة	Hira
٢١٣	الخوارزمى	Algorism
٥٤	الداوية	Templars
١٠	الدردنيل	Hellespont
٧٢	الدودكان	Dodecanese
٢١٧	الرازى	Rhazes
١٦٣	الراين	Rhine
٧٥	الرجل العجيب	Stupor Mundi
١٤	الرها	Edessa
٢١٩	الزركلى	Arzachel
١٧١	السلاف	Slavs
١٤	السلام الرومانى	Pax Romana
١٧١	السلوفنيون	Slovenes
١٤	السلوقيون	Selecucid
١٧١	الشراكسة	Circassians
١٠٠	الصوف الذهبى (جماعة)	Golden Fleece
٨٠	الصين	Cathay
١٩٨	العصر الماجى	Meiji Era
٢٠٦	الفارابى	Alfarabius
١٥	الفرات	Euphrates
٥٥	الفرسان البيض	Hospitallers
٨	الفرنجة	Franks
٧٠	الفلاندرز	Flanders
٣٩	الفلمنجيون (الفلمنكيون)	Flemings
١٩٣	الفونسو البوكرك	Alfonso Alboquerque
١٠١	القديس جون	Prester John
١١٠	القديس فرنسيس الأسيسى	St. Francis of Assissi
٨٩	القرم	Crimea
١٣٨	القرن الذهبى	Golden Horn
١٦٤	القلزوم	Clysma
٢٠	القوط (الفيسغوت)	Visigoth
٩	الكارولنجيون	Carolingians
٨	الكرسى البابوى	Roman See
٢٢	الكسيوس كومنينس	Alexius Comnenus

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
٢١	الكلب (نهر الكلب)	Orontes
١٨	الكوفة	Kufah
٧٦	اللد	Lydda
١٦٤	اللوار	Loire
١٤	المدائن	Ctesiphon
٣٦	المرابطون	Almoravids
٢٠	المقوقس (كورش)	Cyrus
١٥٧	الملك أفا	Offa Rex
١٧١	المنغوليون	Mongols
٩٢	المهدية	Cité d'Auffrique
١٣٤	المورة	Morea
١٨	اليرموك	Yarmuk
١٠١	اليعاقبة	Jacobites
١٧١	اليونانيون	Greeks
٢٦	أماسيا	Amasia
٥٨	أملرك	Amalric
٥٥	أملفى	Amalfi
٢٠٤	أمونيوس	Ammonius
٩١	اميديو السادس	Amedeo VI
١٢٥	أنازارب (عين زربه)	Anazarb
١٣٨	أناضولى حصار	Anatoli-Hissar
٢١٧	انبادقليس	Empedocles
١٧٨	انجلبرت دى لامارش	Englebert de la Marche
٩٧	انجوراند الى كوسى	Enguerrand de Coucy
٣٣	انجوليم	Angoulême
٦٥	اندرونيكس الأول كومنينس	Andronicus I Comnenus
٢٣٦	انسلمو دى تورميدا	Anselmo de Turmedo
١٦	انطاكية	Antakieh
١٣٥	أنقره	Angora
٤٧	أنا كومنينا	Anna Comnena
٧٠	أنوسنت الثالث	Innocent III
١٤٠	انياس سيلفيوس بيكولوميني	Aeneas Sylvius Picolomini
٣٣	انيو	Anjou
٣٢	أوبين دى انجير	Obin d'Angers

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
٨٧	أودريك	Oderic
٨٧	أودريو من بوردينون	Oderio of Pordenone
٩٥	أورسوفا	Orsova
٢١٨	اورميا	Urmia
٢٨	أوغسطينس (القديس)	St. Augustine
٣٦	أوفرن	Auvergne
٢٦	أورفيتو سوفانا	Orvieto Sovana
٢٤٨	أوليفر فرانكس (سير)	Sir Oliver Franks
٣١	أوليفولا	Olivola
١٢٥	اياس (لاجازو)	Lajazzo
١٣٤	ايبرس	Epirus
١٠٢	ايوجينوس الرابع	Eugenius IV
٨٩	ايجه (بحر)	Aegean Sea
١٦٣	عيذاب	Aidhab
٢٢٢	ايراتوثينس	Eratosthenes
٨	ايربان (البابا)	Urban
١٦	ايسوس	Issos
٢٥	ايفريا	Ivrea
٦٤	أيله (ايلات)	Ailath
٢٩	ايودوكيا	Eudocia

« ب »

٨٥	بابيلونيا	Babylonia
٢٨	باخوميوس (القديس)	Pachomius
١٤٢	بارباريجو	Barbarigo
٣١	بارما	Parma
٢٢	باسل الثانى	Basil II
١٣٠	بافوس (البان)	Paphos
٣٩	بالدوين	Baldwin
٥٣	بالدوين دى بورج	Baldwin du Burg
١٥٨	بالرمو	Palermo
٣٣	بامبرج	Bamberg
٦٧	ببلوس (جبيل)	Byblos (Jubail)
٢٣	ببن الثالث	Pepin III

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٤٢	بتراس	Patras
٨٤	بجايه (بوجيا)	Bugia
٩	بحر بربونتك	Porpontic Sea
٢٦	بحر قزوين	Caspian Sea
١٧٨	برابنت	Branbant
٢١٣	براهما جيتا	Brahmagiysta
٦٨	بربارسا .	Barbarossa
٩٤	برجندى	Burgundy
٢٠	بربونتس	Parpontis
١٤	برسابوليس	Persapolis
١٢٧	برسباى	Bursbay
١٥٩	برشلونة	Barcelona
٢٦	برنارد الراهب	Bernard the Monk
٥٤	برنارد من كليرفو	Bernard of Clairvaux
٧٣	برنديزى	Brindisi
١٦٣	برنر (ممر)	Brenner
١٥٩	بروجز	Bruges
٢٥٥	برونتو لاتينى	Brunetto Latini
٣٨	بريتانى	Brittany
١٣	بشاور	Peshawar
٧٥	بلاجيوس	Pelagius
٩١	بلايولوجى (أسرة بلايولوجى)	Palaeologi
٣٩	بلوا	Blois
٢٠٢	بلوتينس (أفلاطون السكندرى)	Plotinus
١٨	بنو لخم	Banu Lakhm
٨٤	بنينو زكاريا	Benito Zaccharia
١٨	بهرام جور	Vahram Gor
٢١٨	بوابة الشمس	Shammsiyah Gate
٥٦	بواتو	Poitou
٨٤	بوجيا (بجاية)	Bugia
٩٥	بــودا	Buda
٢٠٤	بورفيرى	Porphyry
١٣٤	بوسنيا	.Bosnia

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٣٥	بوسيكوت	Boucicaut
١٧	بونس	Bonus
٩٤	بونيفاس التاسع	Boniface IX
٣٩	بوهمند	Bohemond
٣٩	بى	Puy
٢٣٦	بياتريس	Beatrice
٣٦	بياسنزا	Piacenza
٨	بيت المقدس)أورشليم(	Jerusalem
٢١٠	بيتر (بطرس) المبجل	Peter the Venirable
٣٠	بيرجييه	Périgueux
١٨٠	بيروزى	Peruzzis
٧٧	بيزانت	Besant
١٠٤	بيوس الثانى	Pius II
٢١٥	بيير دى فيرمات	Pierre de Fermat

« ت »

٣٩	تارنتم	Tarentum
١٥٤	تايورمينا	Taormina
١٥	تدمر	Palmyra
٧٢	تراقيا	Thrace
١٠١	ترانسلفانيا	Transylvania
٢٢٣	ترانسوكزونيا	Transoxonia
٤١	تربيزون (طرابيزون)	Trebizond
٣٣	ترير	Trier
١٣٤	تساليا	Thessaly
١٧٧	تسكينى	Zecchini
٤٧	تشارتر	Chartres
٢٣٨	تشفين	Tashfin
٢٣٥	تشوسر	Chaucer
١٥	تلول دورا	Dura Europas
٧٦	تورون (تبنينى)	Toron (Tibnin)
١٠٦	توسكانى	Tuscany
١٣٧	توماس	Thomas

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٣٨	جناديوس	Gennadios
٢١٨	جندسابور	Jundishapur
٧٣	جنوه	Genoa
١٤٢	جوان دى كاردونا	Juan de Cardona
٣٩	جودفرى دى بوابون	Godfrey de Boullon
١٠١	جورج برانكوفتش	George Brankovitch
١٣٨	جورج سكولاريوس	George Scholarios
٩٠	جوريجوس	Gorigos
٥٢	جوسلين	Goscelin
٥٩	جولف	Guelf
٢٢	جون تسيمسكس	John Tzimisces
١٧٨	جون الثانى الطيب	John II the Good
٧٤	جون دى برين	John de Brienne
١٤٢	جون دى لا فاليت	John de la Valette
١٤١	جون زابوليا	John Zapolia
٩٤	جون دى نيفرز	John de Nevers
٩٧	جون من ديركورينو	John of Monte Corvino
١٤٦	جون هس	John Huss
١٤٦	جون ويكليف	John Wycliffe
٦٥	جى	Guy
١٤٢	جيان أندريا دوريا	Gian-Andrea Doria
١١٣	جيبون	Gibbon
٩٧	جى دى لا ترمولى	Guy de la Termouille
٢١٤	جيرارد من كريمونا	Gerard of Cremona
١٣٩	جيرولامو مينتو	Girolamo Minotto
٢٥٣	جين	Jaen
١٢٧	جينس	Janus
١٣٩	جيوفانى جياستنيانى	Giovanni Giustiniani
١٠٦	جيوفانى دومينلى	Giovanni Dominilli
٩٣	جيوفانى سنتيوريون دى الترامابنو	Giovanni Centuirone d'Oltramarino
١١٣	جيوم* دى ماشوه	Guillaume de Machaut

* غليوم

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
	« ح »	
٥٤	حصن الأكراد	Krac de Chevaliers
٥٣	حصن الشوبك	Krac de Monréale
٢٠	حصن بابليون	Fortress of Babylon
٥٢	حران	Harran
١٤٦	حركة التوفيق	The Conciliar Movement
٦٦	حطين	Hittin
٢٢	حمص	Homs
	« د »	
١٦	دارا	Dara
١٣	داريوس الثالث	Darius III
١٧	داسجارد	Daitgard
٢٥١	دانتى	Dante
٢١٠	دانيال مورلى	Danial Morley
١٠٤	دراجاسس	Dragases
٤٧	درازو	Durazzo
١٢٣	دلبروك	Delbrück
٣٩	دنكرى	Tancred
١٣٤	دورس	Doris
٤٨	دوريليم	Dorylaeum
٩٣	دوكات	Ducat
١٩٣	دوم فرانسسكو دى الميدا	Dom Francisco de Almeida
١٤٢	دون جوان	Don Juan
١٣٧	ديمتريوس بالايولوجس	Demetrius Palaeologus
٥٦	ديموثينوس	Demosthenes
١٦٣	دينانت	Dinant
	« ذ »	
١٨	دو قار	Dhu-Qar
	« ر »	
٢٥	رادبرت	Radbert

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٣	صلح كالييه	Peace of Callias
١٠٨	صليبية البى	Albigensian Crusade
٦٦	صفورية	Safouriya
٢٧	صقلية	Sicily
٣١	صوابيا	Swabia
٧٦	صيدا	Sidon
	« ط »	
٦٦	طبرية	Tiberias
٤١	طرابيزون (تربيزوند)	Trebizond
٢٢	طرابلس	Tripoli
١٢٤	طرسوس	Tarsus
٢٢	طرطوس	Tortosa
٢٧	طليطه	Toledo
	« ع »	
٢٢٨	على بن عيسى	Jesu Haly
١٢٥	عين زربه (أنازارب)	Anazarb
	« غ »	
٩٢	غاليبولى	Galepoli
	« ف »	
١٢٧	فاماجيوستا (ماغوصة)	Famagusta
١٠٢	فرانسسكو كوندلميرى	Francesco Condolmiere
٣٦	فرانكونيا	Franconia
٣٤	فرسان القديس يوحنا	Hospitallers of St. John
٩٥	فرواسارت	Froissart
٧٤	فريسيان	Frisian
٣٩	فلاندرز	Flanders
١٠٠	فلورنسا	Florence
٩٧	فلورين	Florin
٢٦	فليكس	Felix

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
٣٠	فورتمند	Fortmund
١٥	فوكس	Phocas
٤٧	فولتشر	Fulcher
١٠	فولتشر دى تشارز	Fulcher de Charters
٥٨	فولك الخامس	Fulk of Anjou
٣٣	فولك من نركسا	Fulk of Nerxa
٤٦	فولكمار	Folkmar
٤٧	فليب الأول	Philip I
٧٢	فيليب أوغطس	Philip Augustus
٩٧	فيليب دى أرتوا	Philip d'Artois
١١	فيليب دى ميزيير	Philip de Mézières
١٣٧	فارنه	Varna
١٤	فالريان	Valrian
١٩٣	فاسكو دى جاما	Vasco da Gama
٢٥	فرسيلى	Vorcelli
٣٩	فرماندوا	Vermandois
٧٠	فورزبرج	Würzburg
٥٩	فيزلاى	Vézelay
٧١	فيلهاردون	Villehardouin

« ق »

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٦	قرطجنه	Carthage
٢٤	قرطبه	Cordova
٢٧	قزوين (بحر)	Caspian
١٣٧	قسطنطين دراجـاسس الحادى عشر	Constantine XI Dragases
٣٧	قشتالة	Castile
١٣٠	قشتيل الروج (كاستلوريزو)	Castellorizzo
٧٠	قلعة تورون	Fort of Toros
١١٢	قلعة جيلارد	Château Gaillard
١٣٧	قلعة روميل حصار	Rumeli-Hissar
٦٨	قونيه	Qonia
٤٨	قيلج أرسلان	Qilij Arslan

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٢٧	لرناكا	Larnaca
١٥٩	لوبك	Lübeck
٤٦	لوثرنجيا	Lotharingia
١٢٨	لوكاس نوتارس	Lucas Notaras
١٣٤	لوكرس	Locris
١٣٤	ليفونيا	Livonia
٢٥	ليو الثالث	Leo III
١٦٣	لييج	Liege

« م »

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٧٢	مارتن الخامس	Martin V
١٠٢	مارتن الفونس	Martin Alphonse
٨٦	مارينو سانودو	Marino Sanudo
٣١	مارسلينوس	Marcellinus
١٦٣	ماسترخت	Maastrecht
١٢٤	ماسيسا	Massisa
١٢٧	ماغوصة (فاماجيوستا)	Famagusta
٣٥	مالازكرو (مانزيكرت)	Manzikert
١٥٤	مانكوس	Mancusi
٨١	مانيول الثانى بلايلوجوس	Manuel II Palaeologus
٦٥	مانيول كومنينس	Manuel Comnenus
٢٠	مدينا صيدونيا	Medina-Sidonia
٩	مرمره (بحر مرمره)	Marmora Sea
٥٦	مرسيفان	Marsivan
١٩	مرو	Marw
١٥٠	مسبوتاميا (أرض ما بين النهرين)	Mesopotamia
٢٢٢	ملديف	Maldives
٨١	مناضل	Athleta Christi
١٧	منبج (هيرابوليس)	Hierapolis
٥٤	موآب	Moab
١٤٨	موريزيو كاتانيو	Maurizio Cattanio
١٦٣	موز (نهر)	Meuse
١٠٥٠	مولدافيا	Moldavia

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
١٤٣	موهاكس	Mohacs
١٦٣	مونت سينى	Mont-Cénis
٣٢	مونتييه انديو	Montier-en-Der
٦٤	مونريال	Monréale
٢٣٦	ميميول آسن بلاسيوس	Miguel Asin Palacios
١٥٧	ميرشيا	Mercia
٢١٠	ميشيل سكوت	Michael Scot
٢٠٠	ميوسيون	Museon
٣٣	مينز	Mainz
٨٤	ميورقه	Majorca

« ن »

٣٧	نافار	Navarre
١٦٣	نامور	Namur
٨٩	نجروبونتس	Negropontis
٢١	نسينورس فوكس	Nicephoras Phocas
١٥	نصيبين	Nisibis
١٠٩	نظام السيف (جماعة دين)	The Order of the Sword
٢١	نهر الكلب	Orontes
٦٨	نهر سالف	Saleph
٩٧	نورمبرج	Nuremberg
١٥١	نومسما	Nomisma
٧١	نيستاس شونياتس	Nicetas Choniates
١٠٢	نيش	Nish
٩٦	نيكوبوليس	Nicopolis
١٩١	نيكولاس الخامس (البابا)	Nicholas V
١٧٨	نيكولاس أوْرزم	Nicholas Oresme
١٧	نيونوى	Nineveh

« هـ »

١٥٩	هامبرج	Hamburg
١٦	هرقل	Heraclius
٥٦	هرقيليا	Heraclia

رقم الصفحة في الترجمة	الكلمة العربية	المرادف باللغة الأجنبية
٢١٠	هرمان من دالماتيا	Herman of Dalmatia
١٠١	هرمانستد	Hermannstadt
٢١٣	هرن	Heron
٧٨	هولاكو	Hulagu
٨٩	همبرت الثانى	Humbert II
١٠١	هينيادى	Hunyadi
٢٤٣	هولاكو خان	Hulagu Khan
٥٥	هونوريوس الثالث	Honorius III
١٦٣	هى	Huy
٢٨	هبو	Hippo
١٧	هيرابوليس (منبج)	Hierapolis
٧٣	هيو الحديدى	Hugh the Iron
٥٤	هيو دى باينس	Hugh de Payens
٩٢	هينو	Hainault

« و »

١٨	واسط	Wasit
٩٥	ودن	Widdin
٩٥	ولاشيا	Wallachia
١٦	وليم الصورى	William of Tyre
٣٧	وليم روفس	William Rufus

« ى »

١٩	يزدجرد الثالث	Yazdagird III
٢٦	يهو شافاط	Josaphat
٨٧	يودين	Udine